﴿ فهرسة الجزء السادس من تفسير الفخر الرازى ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفه

(تمت)

رازی
امام رازی
تفسیر

الجزء السادس من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمين

م

* (وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود) *

بسم الله الرحمن الرحيم

* (سورة طه مائة وثلاثون وخمس آيات) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلي الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) اعلم ان قوله طه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائى بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرئ طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلان ما قبل الالف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأما الكسرة لان الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة الى الكسرة (المسئلة الثانية) للمفسرين فيه قولان (أحدهما) انه من حروف التهجى والآخر انه كلمة مفيدة أما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه فى أول سورة البقرة والذى زادوه ههنا أمور (أحدها) قال الثعلبى طا شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق رضى الله عنه الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة للامة ويا هادى الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل يا طاهرا من الذنوب ويا هاديا الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم

* فى *

*(سورة طه مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طه) فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى الا انه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبى على لغة عك وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا ان صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد من قول الشاعر ✵ ان السفاهة طه فى خلائقكم ✵ لا قدس الله أخلاق الملاعين ✵ ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسما كما فى حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الاصل طاها بصيغة الامر من الوطء فقلبت الهمزة فى يطأ ألفا لانفتاح ما قبلها كما فى قول من قال لا هناك المرتع وها ضمير الارض على انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الارض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على احدى

فى قلوب الكفار قال الله تعالى سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب (وسابعها) الطاء تسعة فى الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الاقوال لا يجب أن يعتمد عليها (القول الثانى) قول من قال انها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين (أحدهما) معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى رضى الله عنهم ثم قال سعيد بن جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبى بلغة عك وأنشد الكلبى لشاعرهم

ان السفاهة طه فى خلائقكم ✲ لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين (الاول) انه بمعنى يا رجل فى اللغة حمل عليه لكنه لا يجوز ان ثبت على هذا المعنى الا فى لغة العرب اذا القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب فى هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التى حكينا ها وأما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح (الثانى) قال صاحب الكشاف ان كان طه فى لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا فى يا هذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طا واختصروا فى هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى يا هذا واعترض بعضهم عليه وقال لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طاها (وثانيهما) انه عليه السلام كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وكان الاصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك فى اياك وهرقت فى أرقت ويجوز ان يكون الاصل من وطى على ترك الهمزة فيكون اصله طا يا رجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج ✲ أما قوله تعالى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان جعلت طه تعديدا لاسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى خبرا عنها وهى فى موضع المبتدا والقرآن ظاهر اوقع موقع المضمر لانها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم (المسئلة الثانية) قرئ ما نزل عليه القرآن لتشقى (المسئلة الثالثة) ذكروا فى سبب نزول الآية وجوها ((احدها) قال مقاتل ان أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الاسلام هو السلام وهذا القرآن هو السلام الى نيل كل فوز والسبب فى ادراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) انه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى أيضا انه عليه السلام كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقال بعضهم كان يقوم

على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرئ طه اما على أن اصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا كما مر ثم بنى منه الامر وألحق به هاء السكت واما على انه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسميهما ليقعا معبرا عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين و يراد باسميهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطر الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى انه اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه أمرا وكونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن

على رجل واحدة وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله لتشقى ذلك قال القاضى هذا بعيد لانه عليه السلام ان فعل شيئا من ذلك فلا بد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى واذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثالثها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لاتشق على نفسك ولا تعذبها بالاسف على كفر هؤلاء فانما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك الا البلاغ وهو كقوله تعالى لعلك باخع نفسك الآية ولا يحزنك قولهم (ورابعها) انك لاتلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بوكيل أى ليس عليك كفرهم اذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفى ذلك الوقت كان عليه السلام مقهورا تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لاتظن انك تبقى على هذه الحالة أبدا بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل تصير معظما مكرما * وأما قوله تعالى الا تذكرة لمن يخشى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى كلمة الا ههنا قولان (أحدهما) انه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثانى) التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ الا ليكون تذكرة كما يقال ماشافهناك بهذا الكلام لتتأذى الا ليعتبر بك غيرك (المسئلة الثانية) انما خص من يخشى بالتذكرة لانهم المنتفعون بها وان كان ذلك عاما فى الجميع وهو كقوله هدى للمتقين وقال سبحانه وتعالى تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون وقال وتنذر به قوما لدا وقال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (المسئلة الثالثة) وجه كون القرآن تذكرة انه عليه السلام كان يعظهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول صلى الله عليه وسلم لانه فى الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل * وأما قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى نصب تنزيلا وجوها (أحدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الارض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) أن ينصب بأنزلنا لان معنى ما أنزلناه الا تذكرة انزلناه تذكرة (وثالثها) أن ينصب على المدح والاختصاص (ورابعها) أن ينصب بيخشى مفعولا به أى انزله الله تعالى تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن واعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف (المسئلة الثانية) فائدة الانتقال من لفظ التكلم الى لفظ الغيبة أمور (أحدها) ان هذه الصفات لايمكن ذكرها الامع الغيبة (وثانيها) انه قال أولا أنزلنا ففخم بالاسناد الى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة الى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه (المسئلة الثالثة) انه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه الى أنه تنزيل ممن خلق الارض وخلق السموات على علوها وانما قال ذلك لان تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وانما عظم القرآن ترغيبا فى تدبره والتأمل فى

الارض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فبين البطلان كيف وطاوها على ماذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الاول أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الارض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ماسلف من أنها من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا * معانيه *

اى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة [illegible]

السحة وقيل ان أباجهل والنضر بن الحرث ﴿ ٥ ﴾ قالا لرسول الله صلى الله وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك و ان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والاول هو الانسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا واما اسم للقرآن محله الرفع على انه مبتدأ ومابعده خبره و القرآن ظاهر أو قع موقع العائد الى المبتدا كأنه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أوالنصب على اضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه ومابعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الاول فانه لايتسنى على ذلك التقدير لكن لالأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولاقائم مقامه فان القرآن صادق على السورة لامحالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض او باعتبار الاندراج ان أريد به الكل بل لان نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب او بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولاريب فى أن ذلك انما يتصور فى انزال ما نزل من قبل وأما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما

معانيه وحقائقه وذلك معتاد فى الشاهد فانه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل اليه أقرب الى الامتثال (المسئلة الرابعة) يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها و بعد مرتقاها أما قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الرحمن مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن لانه اما أن يكون رفعا على المدح و التقدير هو الرحمن واما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه الى من خلق فان قيل الجملة التى هى على العرش استوى ما محلها اذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح قلنا اذا جررت فهو خبر مبتدا محذوف لاغير وان رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدا (المسئلة الثانية) المشبهة تعلقت بهذه الآية فى ان معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) انه سبحانه وتعالى كان ولاعرش ولامكان ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان بل كان غنيا عنه فهو بالصفة التى لم يزل عليها الا أن يزعم زاعم انه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) ان الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش فيكون فى نفسه مؤلفا مركبا وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) ان الجالس على العرش اما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أولا يمكنه ذلك فان كان الاول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثا لامحالة وان كان الثانى كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن اذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو ان معبودهم اما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان فان حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات وذلك لايقوله عاقل وان حصل فى مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجا وهو على الله محال (وخامسها) ان قوله ليس كمثله شئ يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شئ الا فى الجلوس والا فى المقدار والا فى اللون وصحة الاستثناء تقتضى دخول جميع هذه الامور تحته فلو كان جالسا لحصل من يماثله فى الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لان الخالق هو الذى يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) انه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان الها فكيف يعلم ان الشمس والقمر ليس باله لان طريقنا الى نفى الهية الشمس والقمر انهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن الها فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى الهية الشمس والقمر (وثامنها) ان العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة الى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الارض و بالعكس بالنسبة اليناهى تحت بالنسبة الى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الارض و بالعكس

فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وان كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين وباتفاق العقلاء لايجوز أن يقال المعبود تحت جميع الاشياء (وتاسعها) أجمعت الامة على ان قوله قل هو الله أحد من المحكمات لامن المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذى منه يلى ماعلى يمينه غير الجانب الذى منه يلى ماعلى يساره فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا فى الحقيقة فيبطل قوله قل هو الله أحد (وعاشرها) ان الخليل عليه السلام قال لاأحب الآفلين ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبدا غائبا أبدا فكان يندرج تحت قوله لاأحب الآفلين فثبت بهذه الدلائل ان الاستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان (الاول) انا لانشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالى عن بعض أصحاب الامام أحمد بن حنبل انه أول ثلاثة من الاخبار قوله عليه السلام الحجر الاسود يمين الله فى الارض وقوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن وقوله عليه السلام انى لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن واعلم ان هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) انه ان قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل وان لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقى شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى اللهم الا أن يقول انا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى مايشعر به ظاهره بل مراده به شئ آخر ولكنى لاأعين ذلك المراد خوفا من الخطا فهذا يكون قريبا وهو أيضا ضعيف لانه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لايريد باللفظ الا موضوعه فى لسان العرب واذا كان لامعنى للاستواء فى اللغة الا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء والا لزم تعطيل اللفظ وانه غير جائز (والثانى) وهو دلالة قاطعة على انه لابد من المصير الى التأويل وهو ان الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار فاما أن نعمل بكل واحد من الدليلين واما أن نتركهما معا واما أن نرجح النقل على العقل واما ان نرجح العقل ونؤول النقل والاول باطل والا لزم أن يكون الشئ الواحد منزها عن المكان وحاصلا فى المكان وهو محال (والثانى) أيضا محال لانه يلزم رفع النقيضين معا وهو باطل (والثالث) باطل لان العقل أصل النقل فانه مالم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح فى العقل يقتضى القدح فى العقل والنقل معا فلم يبق الا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع فى المقصود اذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الاستواء الاستيلاء قال الشاعر

قد استوى بشر على العراق ❊ من غير سيف ودم مهراق

فان قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه (أحدها) ان الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك فى حق الله تعالى محال (وثانيها) انه انما يقال فلان استولى على كذا اذا كان

باعتبار الاتحاد فظاهر واما باعتبار الاندراج فلان ماله أن يقال هذه السورة ماانزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولايخفى أن جعلها مخبرا عنها مع انه لادخل لانزالها ❊ ٦ ❊ فى الشقاء السابق أصلا مما لايليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى (الاتذكرة) نصب على انه مفعول له لانزلنا لكن لامن حيث انه معلل بالشقاء على معنى ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب تبليغه الاتذكرة الآية كقولك ما ضربتك للتأديب الا اشفاقا قالوا انه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ماشافهتك بالسوء لتتأذى الا زجرا لغيرك فان التأديب فى الاول مسبب عن الاشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت مابين الشقاء والتذكرة من التنافى ولا يجدى أن يراد به التعب فى الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لاملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وانما يتصور ذلك أن لو قيل مكان الاتذكرة الاتكثيرا لثوابك فان الاجر بقدر التعب ولامن حيث انه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى مافعلوه الا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث انه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه ولكن

له منازع ينازعه وكان المستولى عليه موجودا قبل ذلك وهذا فى حق الله تعالى محال لان العرش انما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة الى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة والجواب انا اذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل الا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة وانما عبروا عن حصول الملك بذلك لانه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى انه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين الا فيما قلت حتى ان من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لانه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد ومنه قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم أى هو بخيل بل يداه مبسوطتان أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط والتفسير بالنعمة والتمحل للتسمية من ضيق العطن وأقول انا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله فاخلع نعليك الاستغراق فى خدمة الله تعالى من غير تصور فعل وقوله يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم المراد منه تخليص ابراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة وكذا القول فى كل ما ورد فى كتاب الله تعالى بل القانون انه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته الا اذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه وليت من لم يعرف شيئا لم يخض فيه فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ومن أراد الاستقصاء فى الآيات والاخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق * أما قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى فاعلم انه سبحانه لما شرح ملكه بقوله الرحمن على العرش استوى والملك لا ينتظم الا بالقدرة والعلم لا جرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم أما القدرة فهى هذه الآية والمراد انه سبحانه مالك لهذه الاقسام الاربعة فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى فان قيل الثرى هو السطح الاخير من العالم فلا يكون تحته شئ فكيف يكون الله مالكا له قلنا الثرى فى اللغة التراب الندى فيحتمل أن يكون تحته شئ وهو اما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات أما العلم فقوله تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى وفيه قولان (أحدهما) ان قوله وأخفى بناء المبالغة وعلى هذا القول نقول انه تعالى قسم الاشياء الى ثلاثة أقسام الجهر والسر والاخفى فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به وقد يسر فى النفس وان ظهر البعض وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالاخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين انه يعلم السر الذى لا يسمع وما هو اخفى منه فكيف لا يعلم الجهر والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح

تذكرة (لمن يخشى) وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى انه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لانهم المنتفعون بها وقوله تعالى (تنزيلا) مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فانها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والاول هو الانسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على انه مفعول له لانزلنا اذ لا يعلل الشئ بنفسه ولا بنوعه بل على انه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له الا بأن يكون قيدا لانزلنا بعد تقيده بالقيد الاول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرئ تنزيل على انه خبر لمبتدأ محذوف ومن فى قوله تعالى (ممن خلق الارض والسموات العلى) متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له

موكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة التنزيل الى الموصول بطريق الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات ﴿ ٨ ﴾ اثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض الآية لاصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الارض لكونه أقرب الى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الاعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله تعالى له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى الى تربية المهابة وادخال الروعة المؤدية الى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية الى التذكرة والايمان (الرحمن) رفع على المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ما قبله وان لم يكن تابعا له فى الاعراب ولذلك التزموا حذف المبتدا ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته وقد قرئ بالجر على انه صفة صريحة للموصول وما قيل من أن الاسماء الناقصة لا يوصف منها الا الذى وحده مذهب الكوفيين

ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة فعلى هذا الوجه ينبغى أن يحمل السر والاخفى على ما فيه ثواب أو عقاب والسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ويحتمل أن يفسر الاخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ويحتمل ما لم يقع فى سره بعد فيكون أخفى من السر ويحتمل أيضا ما سيكون من قبل الله تعالى من الامور التى لم تظهر وان كان الاقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) ان أخفى فعل يعنى انه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط قلنا معناه ان تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره فاعلم انه غنى عن جهرك واما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول واما تعليما للعباد ان الجهر ليس لاستماع الله تعالى وانما هو لغرض آخر واعلم ان الله تعالى لذاته عالم وانه عالم بكل المعلومات فى كل الاوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفا بالحدوث أو الامكان والعبد لا يشارك الرب الا فى السدس الاول وهو أصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضا نصفان فخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الانبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم فى علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات فى ادراكاتها وشعوراتها والاهتداء الى مصالحها فى أغذيتها ومضارها ومنافعها والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ثم انك بتلك الذرة عرفت أسرار الهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فاذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الاسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك فهذا تحقيق قوله وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى بل الحق ان الدينار بتمامه له لان الذى علمته فانما علمته بتعليمه على ما قال أنزله بعلمه وقال ألا يعلم من خلق ولهذا مثال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئا ولا ينتقص البتة من ضوئها شئ فكذا ههنا فكيف لا يكون عالما بالسر والاخفى فان من تدبيراته فى خلق الاشجار وأنواع النبات انها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة فى الارض تمتص بها الغذاء فيتأدى ذلك الغذاء الى الاغصان ومنها الى العروق ومنها الى الاوراق ثم انه تعالى جعل عروقها كالاطناب التى بها يمكن ضرب الخيام وكما انه لا بد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ثم لو نظرت الى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها الى كل جانب

جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا تمزق سريعا وهى شبه العروق المخلوقة فى بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن ثم انظر الى الاشجار فان أحسنها فى المنظر الدلب والخلاف ولا حاصل لهما وأقبحها شجرة التين والعنب وانظر الى منفعتهما فهذه الاشياء واشباهها تظهر انه لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ❁ اما قوله تعالى الله لااله الا هو له الاسماء الحسنى فالكلام فيه على قسمين (الاول) فى التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد ستأتى ان شاء الله فى تفسير قوله تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وانما ذكره ههنا ليبين ان الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذى تقدم واحد لاشريك له وهو الذى يستحق العبادة دون غيره وانذكر ههنا نكتا متعلقة بهذا الباب وهى ابحاث (البحث الاول) اعلم أن مراتب التوحيد أربع (أحدها) الاقرار باللسان (والثانى) الاعتقاد بالقلب (والثالث) تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) أن يصير العبد مغمورا فى بحر التوحيد بحيث لايدور فى خاطره شئ غير عرفان الاحد الصمد (أما الاقرار باللسان) فان وجد خاليا عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق (وأما الاعتقاد) بالقلب اذا وجد خاليا عن الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الاولى) ان من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل ان يمضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم انه لايتم ايمانه والحق انه يتم لانه أدى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطبا ورأيت فى الكتب ان ملك الموت مكتوب على جبهته لااله الا الله لكى اذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) ان من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه قال الشيخ الغزالى يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب فاذا حصل المقصود فى القلب كان امتناعه من التلفظ جاريا مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار وقد قال عليه السلام يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان وقال آخرون الايمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم ان الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف فى صحة ايمانه مشهور (أما المقام الثالث) وهو اثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بينا فى تفسير قوله تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا انه يمكن اثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك (أما المقام الرابع) وهو الفناء فى بحر التوحيد فقال المحققون العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن فى جميع صفات هى من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتبه الى الواحد القهار ثم وقوف هذه الكلمات محيطة باقصى نهايات درجات السائرين الى الله تعالى (البحث الثانى) فى الاخبار الواردة فى التهليل (أولها) عن النبى صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر لااله الا الله وأفضل

وأياما كان فوصفه بالرحمانية اثر وصفه بخالقية السموات والارض للاشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما الرحمن للايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه اشارة الى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى الرحمن علم القرآن أو رفع على الابتداء واللام للعهد والاشارة الى الموصول والخبر قوله تعالى (على العرش استوى) وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للايذان بأن ذلك أمر بين لاستره به غنى عن الاخبار به صريحا وعلى متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الاول خبر مبتدا محذوف كما فى قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا

الدعاء استغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (وثانيها) قال عليه السلام ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان خلق السموات والارض وهو يقول أشهد أن لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله عزوجل (وثالثها) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال عليه السلام مازلت اشفع الى ربى ويشفعنى واشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا أدع أحدا فى النار قال لا اله الا الله (ورابعها) قال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله جل ذكره بحكمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله (وخامسها) ان عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قام فى السوق فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب له الله ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا فى الجنة (البحث الثالث) فى النكت (أحدها) ينبغى لاهل لا اله الا الله ان يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انه لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما اعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله (وثالثها) ان موسى بن عمران عليه السلام قال يارب علمنى شيئا اذكرك به قال قل لا اله الا الله قال كل عبادك يقولون لا اله الا الله فقال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيئا تخصنى به قال ياموسى لو أن السموات السبع ومن فيهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله (البحث الرابع) فى اعرابه قالوا كلمة لا ههنا دخلت على الماهية فانتفت الماهية واذا انتفت الماهية انتفت كل افراد الماهية وأما الله فانه اسم علم للذات المعينة اذ لو كان اسم معنى لكان كلها محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد فقالوا الاستحقت عمل ان لمشابهتها لها من وجهين (أحدهما) ملازمة الاسماء والاخر تناقضهما فان أحدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفى ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر فى الحكم اذا ثبت هذا فنقول لما قالوا ان زيدا ذاهب كان يجب أن يقولوا الا رجلا ذاهب الا أنهم بنوا الامر مادخل عليه

بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض) سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما (ومابينهما) من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب أو اكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالا كل ماذكر ملكا وتصرفا واحياء واماتة وايجادا واعداما (وماتحت الثرى) أى ما وراء التراب وذكره مع دخوله تحت مافى الارض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب انه ماتحت الارضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة التى عليها

من الاسم المفرد على الفتح أما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه كأنهما صارا اسما واحدا وأما الفتح فلانهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقا بين الدليل الموجب للاعراب والدليل الموجب للبناء (الثاني) خبره محذوف والاصل لا اله فى الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على ان الوجود زائد على الماهية (البحث الخامس) قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب مالم يضف الى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت وجوابه انه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لاجرم قدم عليه (القسم الثانى) من الكلام فى الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه ابحاث (البحث الاول) قال عليه السلام اذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس انا جعلت لكم نسبا وأنتم جعلتم لانفسكم نسبا انا جعلت أكرمكم عندى أتقاكم وأنتم جعلتم اكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبى وأضع نسبكم أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون واعلم ان الاشياء فى قسمة العقول على ثلاثة أقسام كامل لا يحتمل النقصان وناقص لا يحتمل الكمال وثالث يقبل الامرين أما الكامل الذى لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك فى حقه بالوجوب الذاتى وبعده الملائكة فان من كمالهم انهم لا يعصون الله ما أمرهم ومن صفاتهم انهم عباد مكرمون ومن صفاتهم انهم يستغفرون للذين آمنوا وأما الناقص الذى لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم واما الذى يقبل الامرين جميعا فهو الانسان تارة يكون فى الترقى بحيث يخبر عنه بأنه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وتارة فى التسفل بحيث يقال ثم رددناه أسفل سافلين واذا كان كذلك استحال أن يكون الانسان كاملا لذاته ومالا يكون كاملا لذاته استحال أن يصير موصوفا بالكمال الى أن يصير منتسبا الى الكامل لذاته لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال أما الذى يكون يعرض للزوال فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال وأما الذى لا يكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الالهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لا تقبل الزوال والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال ثم اذا كنت من بلد أو منتسبا الى قبيلة فانك لا تزال تبالغ فى مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضى فلان تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتى كان أولى فلهذا قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى (البحث الثانى) فى تقسيم اسماء الله تعالى اعلم ان اسم كل شئ اما أن يكون واقعا عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الامور الخارجة عن ذاته (أما القسم الاول) فقد اختلفوا فى انه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسئلة مبنية على ان حقيقة الله تعالى هل هى معلومة للبشر أم لا فمن قال انها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم لان المقصود من الاسم أن يشار به الى المسمى واذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت

الارض السابعة (وان تجهر بالقول) بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء اثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم انه تعالى غنى عن جهرك (فانه يعلم السر وأخفى) أى ما أسررته الى غيرك وشيئا أخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتى وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا اما نهى عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول واما ارشاد للعباد الى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى (الله) خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق

لبيان أن ماذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أي ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى (لا اله الا هو) تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ماقبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ما أسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى (له الاسماء الحسنى) بيان لكون ماذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى فانه روى أن المشركين حين سمعوا النبي عليه الصلاة والسلام يقول يالله يارحمن قالوا ينهانا أن نعبد الهين و هو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كمآرب أخرى وآياتنا الكبرى

الاشارة العقلية اليها فامتنع وضع الاسم لها وقد تكلمنا في تحقيق ذلك في تفسير اسم الله وأما الاسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لانه ليس لذاته شئ من الاجزاء لان كل مركب ممكن وواجب الوجود لايكون ممكنا فلايكون مركبا وأما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته فالصفات اما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية اضافية أو سلبية أو ثبوتية مع اضافية أو ثبوتية مع سلبية أو اضافية مع سلبية أو ثبوتية واضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية وكذا السلوب غير متناهية أمكن أن يكون للبارى تعالى أسماء متباينة لامترادفة غير متناهية فهذا هو التنبيه على المأخذ (البحث الثالث) يقال ان الله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لايعلمها الا الله تعالى وألف لايعلمها الا الله والملائكة وألف لايعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابع فان المؤمنين يعلمونه فثلثمائة منها في التوراة وثلثمائة في الانجيل وثلثمائة في الزبور ومائة في الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة (البحث الرابع) الاسماء الواردة في القرآن منها ماليس بانفراده ثناء ومدحا كقوله جاعل وخالق وصانع فاذا قيل فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا صار مدحا وأما الاسم الذى يكون مدحا فنه ما اذا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا حى فاذا قيل الحى القيوم أو الحى الذى لايموت كان أبلغ وأيضا قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والارض ازداد المدح ومن هذا الباب ما كان اسم مدح ولكن لايجوز افراده كقولك دليل وكاشف فاذا قيل يادليل المتحيرين و ياكاشف الضر والبلوى جاز ومنه مايكون اسم مدح مفردا أو مقرونا كقولنا الرحمن الرحيم (البحث الخامس) من الاسماء مايكون مقارنتها أحسن كقولك الاول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى في حكاية قول المسيح ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم و بقية الابحاث قد تقدمت في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم (البحث السادس) في النكت رأى بشر الحافى كاغدا مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك و بلعه فرأى في النوم قائلا يقول يابشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى وليس حسن الاسماء لذواتها لانها ألفاظ وأصوات بل حسنها الحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسنا يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثلا اسم الستار والغفار والرحيم انما كانت حسناء لانها دالة على معنى الاحسان وروى حكيما ذهب اليه قبيح وحسن والتمسا الوصية فقال للحسن أنت حسن والحسن لايليق به الفعل القبيح وقال للآخر انت قبيح والقبيح اذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه فنقول الهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلا تظهر لنا من تلك الاسماء الحسنة والصفات الحسنة الا الاحسان الهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا تضم اليه قبح العقاب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام اطلبوا الحوائج عند حسان

الوجوه الهنا حسن الوجه عرضى أما حسن الصفات والاسماء فذاتى فلا تردنا عن احسانك خائبين خاسرين (ورابعها) ذكر ان صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها فى الماء وقالت انها ماوقعت فى الشبكة الا لغفلتها الهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى فى البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة ابليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها والقنا فى بحار رحمتك مرة أخرى (وخامسها) ذكرت من الاسماء خمسة فى الفاتحة وهى الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الالهية وهى اشارة الى القهارية والعظمة فعلم أن الارواح لا تطيق ذلك القهر والعلو فذكرت بعده أربعة اسماء تدل على اللطف الرب وهو يدل على التربيـة والمعتادات من ربى أحدا فانه لا يهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية فى اللطف والرأفة ثم ختم الامر بالملك والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ولان عائشة قالت لعلى عليه السلام ملكت فاسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء الضعفاء (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظى قال موسى عليه السـلام الهى أى خلقك أكرم عليك قال الذى لا يزال لسانه رطبا من ذكرى قال فأى خلقك أعلم قال الذى يلتمس الى علمه علم غيره قال فأى خلقك أعدل قال الذى يقضى على نفسه كما يقضى على الناس قال فأى خلقك أعظم جرما قال الذى يتهمنى وهو الذى يسألنى ثم لا يرضى بما قضيته له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا (وسابعها) قال الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادى مناد أين الحامدون الله على كل حال ثم تكون التبعة والحساب على من بقى الهنا فنحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك ومن أراد الاستقصاء فى الاسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البينات فى الاسماء والصفات وبالله التوفيق ❊ قوله تعالى (وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى ياموسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى) اعلم انه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه اتبع ذلك بما يقوى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام تقوية لقلبه فى الابلاغ كقوله وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السـلام لان المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويصبره على تحمل المكاره فقال وهل أتاك حديث موسى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله وهل أتاك يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من امر موسى عليه السلام فقال وهل أتاك أى لم

ويبان انه أمر مستمر فيما بين الانبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له اننى أنا الله لا اله الا انا وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبى عليه الصلاة والسلام فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسـلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى (اذ رأى نارا) ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى نار كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته نار روى انه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج الى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام فلما وافى وادى طوى وهو بالجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده

يأتك الى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له وهذا قول الكلبى و يحتمل أن يكون قد أتاه ذلك
فى الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس
(المسئلة الثانية) قوله وهل أتاك وان كان على لفظ الاستفهام الذى لايجوز على الله
تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب فى قلبه وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك كما يقول المرء
لصاحبه هل بلغك خبر كذا فيتطلع السامع الى معرفة مايومى اليه ولو كان المقصود
هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبى عليه السلام لامن قبل الله تعالى
(المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذ رأى نارا أى هل أتاك حديثه حين رأى نارا قال المفسرون
استأذن موسى عليه السلام شعيبا فى الرجوع الى والدته فاذن له فخرج فولد له ابن فى
الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه
السلام النار فلم تور المقدحة شيأ فبينما هو فى مزاولة ذلك اذ نظر نارا من بعيد عن يسار
الطريق قال السدى ظن انها نار من نيران الرعاة وقال آخرون انه عليه السلام رآها فى
شجرة وليس فى لفظ القرآن مايدل على ذلك واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن نارا
بل تخيله نارا والصحيح انه رأى نارا ليكون صادقا فى خبره اذ الكذب لايجوز على الانبياء
قيل النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تاكل وهى
نار الشجر لقوله تعالى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهى نار
المعدة ونار لاتأكل ولاتشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار على أربعة
أقسام (أحدها) نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام (وثانيها) حرقة بلا نور
وهى نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهى نار الدنيا (ورابعها) لاحرقة ولا نور وهى نار
الاشجار فلما أبصر النار توجه نحوها فقال لاهله امكثوا فيجوز أن يكون الخطاب
للمرأة وولدها والخادم الذى معها و يجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على
ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وأيضا فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة
تفخيما أى أقيموا فى مكانكم انى انست نارا أى أبصرت والايناس الابصار البين الذى
لاشبهة فيه ومنه انسان العين فانه يبين به الشئ والانس لظهورهم كما قيل الجن
لاستتارهم وقيل هو أيضا مايؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان متنفيا حقيقة لهم أتى
بكلمة انى لتوطين أنفسهم ولما كان الايناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين
بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد
مالم يتيقن الوفاء به والنكتة فيه ان قوما قالوا كذب ابراهيم للمصلحة وهو محال لان
موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلى آتيكم ولم
يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد مالم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة فى رأس عود
اوفتيلة أوغيرهما أو أجد على النار هدى والهدى مايهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه
قال أجد على النار ما أهتدى به من دليل أوعلامة ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل

فبينما هو فى ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) أى أقيموا
مكانكم أمرهم
عليه الصلاة والسلام
بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم
عليه عليه الصلاة والسلام
من الذهاب الى النار
كما هو المعتاد لالئلا ينتقلوا
الى موضع آخر فانه
مما لايخطر بالبال والخطاب
للمرأة والولد والخادم
وقيل لها وحدها والجمع
اما لظاهر لفظ الاهل
أو للتفخيم كما فى قول من قال
*وان شئت حرمت النساء
سواكم* (انى آنست نارا)
أى أبصرتها ابصارا بينا
لاشبهة فيه وقيل الايناس
خاص بابصار مايؤنس به
والجملة تعليل للامر
أو المأمور به (لعلى آتيكم
منها) أى اجيئكم من النار
(بقبس) أى بشعلة مقتبسة
من معظم النار وهى المرادة
بالجذوة فى سورة القصص
و بالشهاب القبس (أو أجد
على النار هدى) هاديا
يدلنى على الطريق على أنه
مصدر سمى به الفاعل
مبالغة أوحذف منه
المضاف أى ذا هداية
أو على انه اذا وجد الهادى
فقد وجد الهدى وقيل
هاديا يهدينى الى أبواب
الدين فان أفكار الابرار مغمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لايشغلهم عنها شاغل والاول
هو الاظهر لان مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص

النار يستعلون المكان القريب منها ولان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها فلما أتاها أي أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب فظن موسى عليه السلام انها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه و يطمع فيها ثم لم يكن اسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره الى فرعها فاذا خضرته ساطعة في السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودي ياموسى قال القاضي الذي يروى من ان الزند ماكان يوري فهذا جائز وأما الذي يروى من ان النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك والا فهو ممتنع الا أن يكون معجزة لغيره من الانبياء عليهم السلام وفي قوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى دلالة على ان في هذه الحالة أوحى الله اليه وجعله نبيا وعلى هذا الوجه يبعد ماذكروه من تأخر النار عنه و بين فساد ذلك قوله تعالى فلما أتاها نودي ياموسى وان كانت تتأخر عنه حالا بعد حال صح ذلك ولما بقي لفاء التعقيب فائدة قلنا القاضي انما بنى هذا الاعتراض على مذهبه في ان الارهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لان تخلل الزمان القليل فيما بين المجيء والنداء لايقدح في فاء التعقيب (المسئلة الرابعة) قرأ أبو عمرو وابن كثير اني بالفتح أي نودي باني انا ربك والباقون بالكسر أي نودي فقيل ياموسى أولان النداء ضرب من القول فعومل معاملته (المسئلة الخامسة) قال الاشعري ان الله تعالى اسمعه الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت وأما المعتزلة فانهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا انه سبحانه خلق ذلك النداء في جسم من الاجسام كالشجرة أوغيرها لان النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله وأما أهل السنة من أهل ماوراء النهر فقد اثبتوا الكلام القديم الا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى في الشجرة واحتجوا بالآية على ان المسموع هو الصوت المحدث قالوا انه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث (المسئلة السادسة) اختلفوا في ان موسى عليه السلام كيف عرف ان المنادي هو الله تعالى فقال أصحابنـا يجوز ان يخلق الله تعالى له علما ضروريا بذلك و يجوز أن يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة أما العلم الضروري فغير جائز لانه لو حصل العلم الضروري بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضروري بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوما له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفا لان حصول العلم الضروري ينافي التكليف

حيث قيل لعلي آتيكم منها بخبر أوجذوة الآية وكلمة أوفي الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء في قوله تعالى على النار أن اهل النار يستعلون المكان القريب منها أولانهـا عند الاصطلاء يكتنفونهـا قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجي وهي اما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الامر بالمكث والاخبار بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم واما حال من فاعله أي فاذهب اليها لآتيكم أوكي آتيكم أوراجيا أن آتيكم منها بقبس الآية وقدم بتحقيق ذلك مفصلا في تفسير قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (فلما أتاها) أي النار التي آنسها قال ابن عباس رضي الله عنهما رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها الى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوا ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوأها قالوا ألنار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الاخضر وصنف يأكل و يشرب

و بالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا ان الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا فى ذلك المعجز على وجوه (أولها) منهم من قال نعلم قطعا أن الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولاحاجة بنا الى ان نعرف ذلك المعجز ماهو (وثانيها) روى ان موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة الى السماء وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه فنودى ياموسى فقال لبيك انى أسمع صوتك ولاأراك فأين أنت قال أنا معك وامامك وخلفك ومحيط بك وأقرب اليك منك ثم ان ابليس اخطر بباله هذا الشك وقال مايدريك أنك تسمع كلام الله فقال لانى أسمعه من فوقى ومن تحتى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى كما أسمعه من قدامى فعلمت انه ليس بكلام المخلوقين ومعنى اطلاقه هذه الجهات انى أسمعه بجميع أجزائى وابعاضى حتى كان كل جارحة منى صارت اذنا (وثالثها) لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزا (ورابعها) انه رأى النار فى الشجرة الخضراء بحيث ان تلك الخضرة ماكانت تطفئ تلك النار وتلك النار ماكانت تضر تلك الخضرة وهذا لايقدر عليه أحد الا الله سبحانه (المسئلة السابعة) قالوا ان تكرير الضمير فى انى أنا ربك كان لتوكيد الدلالة وازالة الشبهة (المسئلة الثامنة) ذكروا فى قوله فاخلع نعليك وجوها (أحدها) كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادى المقدس ولذلك قال عقيبه انك بالوادى المقدس طوى وهذا قول على رضى الله عنه وقول مقاتل والكلبى والضحاك وقتاده والسدى (والثانى) انما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادى وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من ان يطأها الا حافيا ليكون معظما لها وخاضعا عند سماع كلام ربه والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبه انك بالوادى المقدس وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى اخلع نعليك لانك بالوادى المقدس طوى وأما أهل الاشارة فقد ذكروا فيها وجوها (أحدها) ان النعل فى النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله اخلع نعليك اشارة الى ان لايلتفت خاطره الى الزوجة والولد وأن لايبقى مشغول القلب بأمرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره بان يصير مستغرق القلب بالكلية فى معرفة الله تعالى ولايلتفت بخاطره الى ماسوى الله تعالى والمراد من الوادى المقدس قدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعنى انك لما وصلت الى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات (وثالثها) ان الانسان حال الاستدلال على الصانع لايمكنه أن يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل أن يقول العالم المحسوس محدث أو ممكن وكل ماكان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان يشبهان النعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر فى الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب أن لايبقى ملتفتا الى تينك المقدمتين لان بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروما عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لاتكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت الى الوادى المقدس

وهى نار جهنم وصنف لاياكل ولايشرب وهى نار موسى عليه الصلاه والسلام وقالوا أيضا هى أربعة أنواع نوع له نور واحراق وهى نار الدنيا ونوع لانورله ولااحراق وهى نار ﴿ ١٦ ﴾ الاشجار ونوع له نور بلا احراق وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له احراق بلا نور وهى نار جهنم روى أن الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة (نودى ياموسى) أى نودى فقيل ياموسى (انى أنا ربك) أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرئ بالفتح أى بانى وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة واماطة الشبهة روى انه لما نودى ياموسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عزوجل أنا ربك فوسوس اليه ابليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بانى أسمعه من جميع الجهات بجميع الاعضاء قلت وذلك لان سماع ماليس من شأنه ذلك من الاعضاء ليس الا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل الى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة (فاخلع نعليك) أمر عليه الصلاة والسلام

﴿ الذى ﴾

بذلك لان الحفوة أدخل فى التواضع وحسن الادب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا

من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الاهل والمال والفاء لترتيب الامر على ماقبلها فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الامر ودواعيه وقوله تعالى (انك بالواد المقدس) تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الامر بذلك من شرف البقعة وقدسها روى انه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى (طوى) بضم الطاء غير منون وقرئ منونا وقرى بالكسر منونا وغير منون فمن نونه اوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس أى نودى نداءين أو قدس مرة بعد أخرى (وأنا اخترتك) أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرئ وانا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله (فاستمع) لترتيب الامر أو المأمور به على ماقبلها فان اختياره عليه السلام لماذكر من موجبات الاستماع والامر به واللام فى قوله تعالى (لما يوحى) متعلقة باستمع وما موصولة أو مصدرية أى

الذى هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته (المسئلة التاسعة) استدلت المعتزلة بقوله اخلع نعليك على ان كلام الله تعالى ليس بقديم اذ لو كان قديما لكان الله قائلا قبل وجود موسى اخلع نعليك ياموسى ومعلوم ان ذلك سفه فان الرجل فى الدار الخالية اذا قال يازيد افعل وياعمرو لاتفعل مع ان زيدا وعمرا لايكونان حاضرين بعد ذلك جنونا وسفها فكيف يليق ذلك بالاله سبحانه وتعالى وأجاب أصحابنا عنه من وجهين (الاول) ان كلامه تعالى وان كان قديما الا أنه فى الازل لم يكن أمرا ولانهيا (والثانى) انه كان أمرا بمعنى انه وجد فى الازل شئ لما استمر الى مالايزال صار الشخص به مأمورا من غير وقوع التغير فى ذلك الشئ كما ان القدرة تقتضى صحة الفعل ثم انها كانت موجودة فى الازل من غير هذه الصحة فلما استمرت الى مالايزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق (المسئلة العاشرة) ليس فى الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف فى النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لانا ان عللنا الامر بخلع النعلين بتعظيم الوادى وتعظيم كلام الله كان الامر مقصورا على تلك الصورة وان عللناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز ان يكون قد كان محظورا لبس جلد الحمار الميت وان كان مدبوغا فان كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام أيما اهاب دبغ فقد طهر وقد صلى النبى صلى الله عليه وسلم فى نعليه ثم خلعهما فى الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال مالكم خلعتم نعالكم قالوا خلعت فخلعنا قال فان جبريل أخبرنى ان فيهما قذرا فلم يكره النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فى النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه انما خلعهما لما فيهما من القذر (المسئلة الحادية عشر) قرئ طوى بالضم والكسر منصرفا وغير منصرف فمن نونه فهو اسم الوادى ومن لم ينونه ترك صرفه لانه معدول عن طاوى فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة (المسئلة الثانية عشرة) فى طوى وجوه (الاول) انه اسم للوادى وهو قول عكرمة وابن زيد (والثانى) معناه مرتين نحو مثنى أى قدس الوادى مرتين أو نودى موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى اى مثنى (والثالث) طوى أى طيا قال ابن عباس رضى الله عنهما انه مر بذلك الوادى ليلا فطواه فكان المعنى بالوادى المقدس الذى طويته طيا أى قطعته حتى ارتفعت الى اعلاه ومن ذهب الى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدى يهدى هدى والله أعلم * قوله تعالى (وانا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) قرأ حمزة وانا اخترناك وقرأ أبى بن كعب وانى اخترتك وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذى خصصتك به وهذه الآية تدل على ان النبوة لاتحصل بالاستحقاق لان قوله وأنا اخترتك يدل على ان ذلك المنصب العلى انما حصل لان الله تعالى اختاره له ابتداء لانه استحقه على الله تعالى (المسئلة الثانية) قوله فاستمع لما يوحى فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك امر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل

عقلك وخاطرك مصروفا اليه فقوله وأنا اخترتك يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله فاستمع يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف (المسئلة الثالثة) قوله اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى يدل على ان علم الاصول مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا الفاء فى قوله فاعبدنى تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وهذا هو تحقيق العلماء ان الله هو المستحق للعبادة (المسئلة الرابعة) انه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد أولا ثم بالعبادة ثانيا أمره بالصلاة ثالثا احتج أصحابنا بهذه الاية على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين (الاول) انه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت انه يجوز ورود المجمل منفكا عن البيان (الثانى) انه قال واقم الصلاة لذكرى ولم يبين كيفية الصلاة قال القاضى لا يمتنع ان موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التى تعبد الله تعالى بها شعيبا عليه السلام وغيره من الانبياء فصار الخطاب متوجها الى ذلك ويحتمل انه تعالى بين له فى الحال وان كان المنقول فى القرآن لم يذكر فيه الا هذا القدر والجواب أما العذر الاول فانه لا يتوجه فى قوله تعالى فاعبدنى وأيضا فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر معلوم لان موسى عليه السلام ما كان يشك فى وجوب الصلاة التى جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله وأقم الصلاة على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة قوله لعل الله تعالى بينه فى ذلك الموضع وان لم يحكه فى القرآن قلنا لا شك ان البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكورا لكان أولى بالحكاية (المسئلة الخامسة) فى قوله لذكرى وجوه (أحدها) لذكرى يعنى لتذكرنى فان ذكرى أن أعبد ويصلى لى (وثانيها) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار عن مجاهد (وثالثها) لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها (ورابعها) لان أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق (وخامسها) لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى (وسادسها) لاخلاص ذكرى وطلب وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر (وسابعها) لتكون لى ذاكرا غير ناس فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وثامنها) لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (وتاسعها) أقم الصلاة حين تذكرها اى انك اذا نسيت صلاة فاقضها اذا ذكرتها روى قتادة عن انس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك ثم أو أقم الصلاة لذكرى قال الخطابى يحتمل هذا الحديث وجهين (أحدهما) انه لا يكفرها غير قضائها والآخر انه لا يلزم فى نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة فى ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم اذا ترك شيئا من نسكه فدية من اطعام أو دم وانما يصلى ما ترك فقط فان قيل حق العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام فليصلها اذا ذكر قلنا قوله

فاستمع للذى يوحى اليك أو للوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من انه من باب التنازع واعمال الاول فلا بد حينئذ من اعادة الضمير مع الثانى بل لان قوله تعالى (اننى أنا الله لا اله الا انا) بدل من ما يوحى ولا ريب فى أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى (فاعبدنى) لترتيب المأمور به على ما قبلها فان اختصاص الالوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل (وأقم الصلاة) خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالامر مع اندراجها فى الامر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى (لذكرى)

لذكرى معناه للذكر الحاصل بخلقى أو بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى (المسئلة السادسة) لوفاته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الاداء فلو ترك الترتيب فى قضائها جاز عند الشافعى رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظر ان كان فى الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وان ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع فى صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب فى قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال لو تذكر فى خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضى الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت الا أن يكون الوقت ضيقا فلا تبطل حجة أبى حنيفة رحمه الله الآية والخبر والاثر والقياس أما الآية فقوله تعالى أقم الصلاة لذكرى أى لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله أقم الصلاة لدلوك الشمس أى عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضى رعاية الترتيب وأما الخبر فقوله عليه السلام من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها والفاء للتعقيب وأيضا روى جابر بن عبد الله قال جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنهما الى النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبى صلى الله عليه وسلم وأنا والله ما صليتها بعد قال فنزل الى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها وهذا الحديث مذكور فى الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين (أحدهما) انه عليه الصلاة والسلام قال صلوا كما رأيتمونى أصلى فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثانى) ان فعل النبى صلى الله عليه وسلم اذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بيانا لمجمل قوله تعالى أقيموا الصلاة ولهذا قلنا ان الفوائت اذا كانت فى حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها واذا دخلت فى حد الكثرة يسقط الترتيب وأما الاثر فما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال من فاته صلاة فلم يذكرها الا فى صلاة الامام فليمض فى صلاته فاذا قضى صلاته مع الامام يصلى ما فاته ثم ليعد التى صلاها مع الامام وقد يروى هذا مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وأما القياس فهو انهما صلاتان فريضتان جمعهما واحد فى اليوم والليلة فاشبهتا صلاتى عرفة والمزدلفة فلما لم يجب اسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعى رحمه الله انه روى فى حديث أبى قتادة انهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها ولو كان وقت التذكر معينا للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا ان ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع اذا ثبت هذا فنقول ايجاب قضاء الفوائت وايجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجرى مجرى التخيير بين الواجبين

أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى لا يتحقق الا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الاذكار أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر أو لتكون ذاكرا الى غير ناس وقيل لذكرى اياها وأمرى بها فى الكتب أو لان أذكرك بالمدح والثناء وقيل لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها لان الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرئ لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى

(ان الساعة آتية) تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلاة أى كائنة لامحالة وانما عبر عن ذلك بالاتيان تحققا لحصولها
بابرازها فى معرض امر محقق متوجه نحو المخاطبين (اكاد أخفيها) أى لا أظهرها بأن أقول انها آتية
ولولا أن ما فى الاخبار
بذلك من اللطف وقطع
الاعذار لمافعلت أو اكاد
أظهرها بايقاعها من
أخفاه اذا أظهره
بسلب خفائه ويؤيده
القراءة بفتح الهمزة
من خفاه بمعنى أظهره
وقيل أخفاه من
الاضداد يجئ بمعنى
الاظهار والستر وقوله
تعالى (لتجزى كل نفس
بما تسعى) متعلق بآتية
وما بينهما اعتراض
أو بأخفيها على المعنى
الاخير وما مصدرية
أى لتجزى كل نفس
بسعيها فى تحصيل
ما ذكر من الامور المأمور
بها وتخصيصه فى
معرض الغاية لاتيانها مع
أنه لجزاء كل نفس بما
صدر عنها سواء كان
سعيا فيما ذكر أو تقاعدا
عنه بالمرة أو سعيا فى
تحصيل ما يضاده
للايذان بأن المراد
بالذات من اتيانها هو
الاثابة بالعبادة وأما
العقاب بتركها فمن
مقتضيات سوء اختيار
العصاة وبأن المامور به
فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى
فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ما ينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصى وعليه مدار الامر

فوجب أن يكون المكلف مخيرا فى تقديم أيهما شاء ولانه لو كان الترتيب فى الفوائت
شرط لما سقط بالنسيان ألا ترى انه اذا صلى الظهر والعصر بعرفة فى يوم غيم ثم تبين انه صلى
الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعا ولم يسقط الترتيب بالنسيان
لما كان شرطا فيهما فههنا أيضا لو كان شرطا فيهما لما كان يسقط بالنسيان ✵ قوله تعالى
(ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها
واتبع هواه فتردى) اعلم انه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة
لذكرى أتبعه بقوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله
لذكرى أى لاذكرك بالامانة والكرامة فقال عقيب ذلك ان الساعة آتية لانها وقت الاثابة
ووقت المجازاة ثم قال أكاد أخفيها وفيه سؤالان (السؤال الاول) هو ان كاد نفيه اثبات
واثباته نفى بدليل قوله وما كادوا يفعلون أى وفعلوا ذلك فقوله أكاد أخفيها يقتضى انه
ما أخفاها وذلك باطل لوجهين (أحدهما) قوله ان الله عنده علم الساعة (والثانى) ان
قوله لتجزى كل نفس بما تسعى انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار والجواب من وجوه (أحدها)
ان كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفى والاثبات فقوله اكاد أخفيها معناه قرب
الامر فيه من الاخفاء وأما انه هل حصل ذلك الاخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من
اللفظ بل من قرينة قوله لتجزى كل نفس بما تسعى فان ذلك انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار
(وثانيها) ان كاد من الله واجب فمعنى قوله اكاد أخفيها أى أنا أخفيها عن الخلق كقوله عسى
أن يكون قريبا أى هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله
كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا اكاد أى ولا أريد أن افعله
(ورابعها) معناه اكاد أخفيها من نفسى وقيل انها كذلك فى مصحف أبى وفى حرف ابن
مسعود اكاد أخفيها من نفسى فكيف أعلنها لكم قال القاضى هذا بعيد لان الاخفاء انما
يصح فيمن يصلح له الاظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لان كل معلوم معلوم له فالاظهار
والاسرار منه مستحيل ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعنى لو صح منى
اخفاؤه على نفسى لاخفيته عنى والاخفاء وان كان محالا فى نفسه الا أنه لا يمتنع أن يذكر
ذلك على هذا التقدير مبالغة فى عدم اطلاع الغير عليه قال قطرب هذا على عادة العرب
فى مخاطبة بعضهم بعضا يقولون اذا بالغوا فى كتمان الشئ كتمته حتى من نفسى فالله تعالى
بالغ فى اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب فى مثله (وخامسها) أكاد صلة فى الكلام
والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه ✵ فما ان يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما ان يتنفس قرنه (وسادسها) قال أبو الفتح الموصلى أكاد أخفيها تأويله أكاد
أظهرها وتلخيص هذه اللفظة أكاد أزيل عنها اخفاءها لان أفعل قد يأتى بمعنى السلب
والنفى كقولك أعجمت الكتاب وأشكلته أى أزلت عجمته واشكاله واشكيته أى أزلت

شكواه (وسابعها) قرئ أخفيها بفتح الالف أى أكاد أظهرها من خفاه اذا أظهره أى قرب اظهارها كقوله اقتربت الساعة قال امرؤ القيس

فان تدفنوا الداء لانخفه * وان تمنعوا الحرب لانقعد

أى لانظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لان معنى اكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها (وثامنها) أراد أن الساعة آتية اكاد وانقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الاول الى أن الاولى الاخفاء لتجزى كل نفس بما تسعى وهذا الوجه بعيد والله أعلم (السؤال الثانى) ما الحكمة فى اخفاء الساعة واخفاء وقت الموت الجواب لان الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية الى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية وانه لايجوز أما قوله لتجزى كل نفس بما تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكم بمجئ يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو انه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصى والمحسن عن المسئ وذلك غير جائز وهو الذى عناه الله تعالى بقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بهذه الآية على ان الثواب مستحق على العمل لان الباء للالصاق فقوله بما تسعى يدل على أن المؤثر فى ذلك الجزاء هو ذلك السعى (المسئلة الثالثة) احتجوا بها على ان فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لان الآية صريحة فى اثبات سعى العبد ولو كان الكل مخلوقا لله تعالى لم يكن للعبد سعى البتة أما قوله فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها فالصد المنع وههنا مسائل (المسئلة الاولى) فى هذين الضميرين وجهان (أحدهما) قال أبو مسلم لايصدنك عنها أى عن الصلاة التى أمرتك بها من لايؤمن بها أى بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الايمان بمجيئها من لايؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة قال القاضى وهذا أولى لان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورين وههنا الاقرب هو الساعة وماقاله أبو مسلم فانما يصار اليه عند الضرورة ولاضرورة ههنا (المسئلة الثانية) الخطاب فى قوله فلا يصدنك يحتمل ان يكون مع موسى عليه السلام وان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم والاقرب انه مع موسى لان الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج انه ليس بمراد وانما أريد به غيره وذلك لانه ظن ان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الايمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطبا بذلك وليس الامر كما ظن لانه اذا كان مكلفا بأن لايقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادرا على ذلك جاز أن يخاطب به و يكون المراد هو وغيره ويحتمل أيضا أن يكون المراد بقوله فلا يصدنك عنها النهى له عن الميل اليهم ومقاربتهم (المسئلة الثالثة) المقصود نهى موسى عليه السلام عن التكذيب

فى قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط فقد علق بالاخيرين لماذكر من أن المقصود الاصلى من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على اتم الوجوه الرائقة واكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له اومسوغ هذا ويجوز أن يراد بالسعى مطلق العمل (فلايصدنك عنها) أى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والاول هو الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وان كان النهى بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى (من لايؤمن بها) لمامر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا

بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضى نهى من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (أحدهما) ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثانى) ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لا ارينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته فكذا ههنا كأنه قيل لا تكن رخوا بل كن فى الدين شديدا صليبا (المسئلة الرابعة) الآية تدل على ان تعلم علم الاصول واجب لان قوله فلا يصدنك يرجع معناه الى صلابته فى الدين وتلك الصلابة ان كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلا بد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه قويا فى تقرير الدلائل وازالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من ازالته عن الدين بل هو يكون متمكنا من ازالة المبطل عن بطلانه (المسئلة الخامسة) قال القاضى قوله فلا يصدنك يدل على ان العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لافعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر والجواب المعارضة بمسئلة العلم والداعى والله أعلم أما قوله تعالى واتبع هواه فالمعنى ان منكر البعث انما أنكره اتباعا للهوى لا للدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لان المقلد متبع للهوى لا الحجة أما قوله فتردى فهو بمعنى ولا يصدنك فتردى وان صدوك وقلبت فليس الا الهلاك بالنار واعلم ان المتوغلين فى أسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (أحدهما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثانى) مقام البقاء بالله والاول مقدم على الثانى لان من أراد أن يكتب شيئا فى لوح مشغول بكتابة اخرى فلا سبيل له اليه الا بازالة الكتابة الاولى ثم بعد ذلك يمكن اثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن فى هذا الباب لانه قال لموسى عليه السلام أولا فاخلع نعليك وهو اشارة الى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك امره بتحصيل ما يجب تحصيله واصول هذا الباب ترجع الى ثلاثة علم المبدا وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدا هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله اننى أنا الله لا اله الا أنا وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الامر الذى يجب أن يشتغل الانسان به فى هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ثم فى هذا أيضا نعتر لان قوله فاعبدنى اشارة الى الاعمال الجسمانية وقوله لذكرى اشارة الى الاعمال الروحانية والعبودية أولها الاعمال الجسمانية وآخرها الاعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله ان الساعة آتية اكاد أخفيها ثم انه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله انى انا ربك واختتمها بمحض القهر وهو قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى تنبيها على ان رحمته سبقت غضبه واشارة الى أن العبد لا بد له فى العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف ان هذا الترتيب هو النهاية فى الحسن والجودة وان ذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات ﴿ قوله تعالى (وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش

لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على ابلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا باصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وارادة النهى عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لا أرينك ههنا فان المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته (واتبع هواه) أى ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية (فتردى) أى فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ما ينجى عن اهوالها مستتبع للهلاك لا محالة فى محل النصب على جواب النهى أو فى محل الرفع انه خبر مبتدا محذوف أى فأنت تردى (وما تلك بيمينك ياموسى) شروع

في حكاية ماكلف به عليه الصلاة والسلام من الامور المتعلقة بالحق اثر حكاية مأمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فالاستفهامية في حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره او بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب و بيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أي وماتلك قارة أومأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما في قوله عزوعلا وهذا بعلي شيخا وقيل تلك موصولة أي ما التي هي بيمينك وأياما كان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ماسيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس و التنبيه (قال هي عصاي) نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الافاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرئ عصي على لغة هذيل (أتوكأ عليها) أي أعتمد عليها عند الاعياء أوالوقوف على رأس القطيع (وأهش بها) أي اخبط بها الورق وأسقطه (على غنمي) وقرئ أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرئ بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمن معنى الانحاء والاقبال أي ازجرها منحيا ومقبلا عليها (ولي فيها مآرب أخرى) أي حاجات أخر من هذا الباب مثل ماروى أنه عليه الصلاة والسلام

بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هي حية تسعى قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الاولى) اعلم ان قوله وماتلك بيمينك لفظتان فقوله وماتلك اشارة الى العصا وقوله بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت (احداها) انه سبحانه لما أشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزا قاهرا و برهانا باهرا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين نظرة الى قلب العبد فاى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيها) ان بالنظر الواحد صار الجماد ثعبانا يبتلع سحر السحرة فاى عجب لو صار القلب بمدد النظر الالهي بحيث يبتلع سحر النفس الامارة بالسوء (وثالثها) كانت العصا في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانا و برهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعي الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية ثم ههنا سؤالات (الاول) قوله وماتلك بيمينك ياموسى سؤال والسؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه والجواب فيه فوائد (احداها) ان من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئا شريفا فانه يأخذه و يعرضه على الحاضرين و يقول لهم هذا ما هو فيقولون هذا هو الشيء الفلاني ثم انه بعد اظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذوا منه كذا وكذا فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية وكضربه البحر حتى انفلق وفي الحجر حتى انفجر منه الماء عرضه أولا على موسى فكأنه قال له ياموسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك وانه خشبة لاتضر ولاتنفع ثم انه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث انه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الاشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله وماتلك بيمينك ياموسى (وثانيها) انه سبحانه لما أطلعه على تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ثم انه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولا بقوله وأنا اخترتك ثم قهر بايراد التكاليف الشاقة عليه والزامه علم المبدا والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم تحير موسى ودهش وكاد لايعرف اليمين من الشمال فقيل له وماتلك بيمينك ياموسى ليعرف موسى عليه السلام ان يمينه هي التي فيها العصا ولانه لما تكلم معه أولا بكلام الالهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة والنكتة فيه انه لما غلبت الدهشة على موسى في الحضرة أراد رب العزة ازالتها فسأله عن العصا وهو أمر لايقع الغلط فيه كذلك المؤمن اذا مات ووصل الى حضرة ذي الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسألونه عن الامر الذي لم يغلط فيه في الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثها) انه تعالى لما عرف موسى كمال الالهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا

فذكر بعضها فعرفه الله تعالى ان فيها منافع أعظم مما ذكر تنبيها على ان العقول قاصرة عن معرفة صفات الشئ الحاضر فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول الى معرفة اجل الاشياء وأعظمها (ورابعها) فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده انه خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها (السؤال الثانى) قوله وما تلك بيمينك ياموسى خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد الجواب من وجهين (الاول) انه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدا عليه السلام فى قوله فأوحى الى عبده ما أوحى الأ ان الفرق بينهما ان الذى ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذى ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يستأهل له أحد من الخلق (والثانى) ان كان موسى تكلم معه وهو مع موسى فأمة محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبون الله فى كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم المصلى يناجى ربه والرب يتكلم مع آحاد امة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم فى قوله سلام قولا من رب رحيم (السؤال الثالث) ما اعراب قوله وما تلك بيمينك ياموسى الجواب قال صاحب الكشاف تلك بيمينك كقوله وهذا بعلى شيخا فى انتصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته بيمينك قال الزجاج معناه وما التى بيمينك قال الفراء معناه ما هذه التى فى يمينك واعلم انه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك اجاب موسى عليه السلام باربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال (الاول) قوله هى عصاى قرأ ابن أبى اسحق هى عصى ومثلها يا بشرى وقرأ الحسن هى عصاى بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (أحدها) انه قال هى عصاى فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا فى بحر معرفة الحق ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت الى شئ ما زاغ البصر وما طغى ولما قيل له امدحنا قال لا أحصى ثناء عليك ثم نسى نفسه ونسى ثناءه فقال أنت كما أثنيت على نفسك (وثانيها) لما قال عصاى قال الله سبحانه وتعالى ألقها فلما ألقاها فاذا هى حية تسعى ليعرف ان كل ما سوى الله فالالتفات اليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك ولهذا قال الخليل عليه السلام فانهم عدو لى الا رب العالمين وفى الحديث يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذى لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع الحديث بتمامه (وثالثها) انه قال هى عصاى فقد تم الجواب الا انه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثانى) قوله اتوكأ عليها والتوكى والاتكاء واحد كالتوقى والاتقاء معناه أعتمد عليها اذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئا على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اتكئ على رحمتى بقوله تعالى يا ايها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال والله يعصمك من الناس فان قيل أليس قوله ومن اتبعك من المؤمنين يقتضى

كان اذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ونحوها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء ﴿٢٤﴾ وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها قيل ومن جملة المآرب انها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا اراد كسره لواه بالشعبتين وكانه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم انها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى أنها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير (قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال (ألقها ياموسى) لترى من شأنها مالم يخطر ببالك من الامور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه (فألقاها) على الارض (فاذا هى حية تسعى) ﴿ كون
روى انه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك

كون محمد يتوكأ على المؤمنين قلنا قوله ومن اتبعك من المؤمنين معطوف على الكاف فى قوله حسبك الله والمعنى الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله وأهش بها على غنمى أى أخبط بها فاضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمى فتأكله وقال أهل اللغة هش على غنمه يهش بضم الهاء فى المستقبل وهششت الرجل أهش بفتح الهاء فى المستقبل وهش الرغيف يهش بكسر الهاء قاله ثعلب وقرأ عكرمة وأهس بالسين غير المنقوطة والهس زجر الغنم واعلم ان غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه فى قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته فى قوله وأهش بها على غنمى فكذلك فى القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم يشتغل فى الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ ايضا بامته فيقول امتى امتى (والرابع) قوله ولى فيها مآرب اخرى أى حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها وحكى ابن الاعرابى وقطرب بكسر الراء أيضا والارب بفتح الراء والاربة بكسر الالف وسكون الراء الحاجة وانما قال أخرى لان المآرب فى معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى ولو جاءت اخر لكان صوابا كما قال فعدة من أيام اخر ثم ههنا نكت (احداها) انه لما سمع قول الله تعالى وما تلك بيمينك عرف ان الله فيه أسرارا عظيمة فذكر ما عرف وعبر عن البواقى التى ما عرفها اجمالا لا تفصيلا بقوله ولى فيها مآرب اخرى (وثانيها) ان موسى عليه السلام أحس بانه تعالى انما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة فقال موسى الهى ما هذه العصا الا كغيرها لكنك لما سألت عنها عرفت أن لى فيها مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتنى بسببها فوجدت هذا الامر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) ان موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) انه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة أخرى ثم قال وهب كانت ذات شعبتين كالمحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا حاول كسره لواه بالشعبتين اذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب واذا كان فى البرية ركزها وألقى كساء عليها فكانت ظلا وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا و يصير ان شمعتين فى الليالى واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فاورقت واثمرت وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه و يركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بالقاء العصا فقال ألقها يا موسى وفيه نكت (احداها) انه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب اخرى أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر مآربه فقال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هى حية تسعى (وثانيتها) كان فى رجله شئ وهو النعل وفى يده شئ وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد

شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا اخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من اول الامر ثعبانا وهو الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذا هى ثعبان مبين وانما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة (قال) استئناف كما سبق (خذها ولا تخف) عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شئ من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الاهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الامر اشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالامر

آلة الطلب فقال اولا اخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها ياموسى وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه سبحانه قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك وطالبا لحظك فلا تكون خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصا لى (وثالثها) أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال منقبته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى امكنه الوصول الى الحضرة فأنت مع ألف وقر من المعاصى كيف يمكنك الوصول الى جنابه (ورابعتها) أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن الكل مازاغ البصر فلاجرم وجد الكل لعمرك أما موسى لما بقى معه تلك العصا لاجرم أمره بالقاء العصا واعلم ان الكعبى تمسك به فى أن الاستطاعة قبل الفعل فقال القدرة على القاء العصا اما أن توجد والعصا فى يده أو خارجة من يده فان أتته القدرة وهى فى يده فذاك قولنا وان الله ليس بظلام للعبيد واذا أتته وليست فى يده وانما استطاع أن يلقى من يده ماليس فى يده فذلك محال أما قوله فالقاها فاذا هى حية تسعى ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت الجواب فيه وجوه (أحدها) انه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لانه عليه السلام الى هذا الوقت ماسمع الا النداء والنداء وان كان مخالفا للعادات الا أنه لم يكن معجزا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلاجرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب أن موسى عليه السلام قال أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) ان النداء كان اكراما له فقلب العصا حية مزيدا فى الكرامة ليكون توالى الخلع والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه (وثالثها) أنه عرض عليه ليشاهده أولا فاذا شاهده عند فرعون لايخافه (ورابعها) أنه كان راعيا فقيرا ثم انه نصب للمنصب العظيم فلعله بقى فى قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على انى لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد منى نصرة مثلك فى اظهار الدين (وخامسها) أنه لما قال هى عصاى أتوكأ عليها الى قوله ولى فيها مآرب اخرى فقيل له ألقها فلما القاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب اخرى فلم تفر منها تنبيها على سر قوله ففروا الى الله وقوله قل الله ثم ذرهم (السؤال الثانى) قال ههنا حية وفى موضع آخر ثعبان وجان أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان (أحدهما) أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا فاريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها (والثانى) انها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان (السؤال الثالث) كيف كانت صفة الحية الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا وابتلعت

معجزة اخرى على يده عليه الصلاة والسلام وايذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولايعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها الاولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف الى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى الى سيرتها او على أن اعاد منقول من عاده بمعنى عاد اليه أو على الظرفية أى سنعيدها فى طريقتها أو على تقدير فعلها وايقاعها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل

كل ما مرت به من الصخور والاشجار حتى سمع موسى صرير الحجر فى فيها وجوفها * أما قوله تعالى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ففيه سؤالات (السؤال الاول) لما نودى موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلم خاف (والجواب من وجوه أحدها) ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وأيضا فهذه الاشياء معلومة بدلائل العقول وعند الفزع الشديد قد يذهل الانسان عنه قال الشيخ أبو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه فى النبوة لان الساحر يعلم أن الذى أتى به تمويه فلا يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافها لانه عليه السلام عرف ما لقى آدم منها (وثالثها) ان مجرد قوله لا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار (السؤال الثانى) متى أخذها بعد انقلابها عصا أو قبل ذلك (والجواب) روى أنه أدخل يده بين اسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضا بقوله سنعيدها سيرتها الاولى وذلك يقع فى الاستقبال وأيضا فهذا أقرب للكرامة لانه كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك ادخال يده فى فيها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشبا معجز آخر فيكون فيه توالى المعجزات فيكون أقوى فى الدلالة (السؤال الثالث) كيف أخذه أمع الخوف أو بدونه (والجواب) روى مع الخوف ولكنه بعيد لان بعد توالى الدلائل يبعد ذلك واذا علم موسى عليه السلام انه تعالى عند الاخذ سيعيدها سيرتها الاولى فكيف يستمر خوفه وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه الى أن أدخل يده فى فيها وأخذ بلحييها (السؤال الرابع) ما معنى سيرتها الاولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة (السؤال الخامس) علام انتصب سيرتها (الجواب فيه وجهان أحدهما) بنزع الخافض يعنى الى سيرتها (وثانيهما) أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى انها كانت أولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أى تسير سيرتها الاولى يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الاولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التى عرفتها * قوله تعالى (واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى) اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل (المسألة الاولى) يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر لانه يجنحهما عند الطيران

أى أدخلها تحت عضدك فان جناحى الانسان جنباه كما أن جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لانه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى (تخرج) جواب الامر وقوله تعالى (بيضاء) حال من الضمير فيه وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوأة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه روى انه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تعشى البصر (آية أخرى) أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية اما من الضمير فى تخرج على انها بدل من الحال الاولى واما من الضمير فى بيضاء وقيل من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أودونك

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما الى جناحك الى صدرك والاول أولى لان يدى الانسان يشبهان جناحى الطائر لانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى واعلم ان معنى ضم اليد الى الجناح ما قال فى آية أخرى وأدخل يدك فى جيبك لانه اذا أدخل يده فى جيبه كان قد ضم يده الى جناحه والله أعلم (المسئلة الثانية) السوء الرداءة والقبح فى كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شئ الى العرب فكان جديرا بأن يكنى عنه يروى أنه عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده اليمنى فى جيبه وادخلها تحت ابطه الايسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول بلا نور (المسئلة الثالثة) بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفى نصب آية وجه آخر وهو أن يكون باضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أى خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم يقل الكبر قلنا بل هى نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا فى قوله مآرب اخرى والاسماء الحسنى (المسئلة الرابعة) قال الحسن اليد أعظم فى الاعجاز من العصا لانه تعالى ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لانه ليس فى اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة فى الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم عاد عصا بعد ذلك فقد وقع التغير مرة اخرى فى كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله لنريك من آياتنا الكبرى فقد بينا انه عائد الى الكل وانه غير مختص باليد (المسئلة الخامسة) انه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الاية عقبها بأن أمره بالذهاب الى فرعون وبين العلة فى ذلك وهى أنه طغى وانما خص فرعون بالذكر مع ان موسى عليه السلام كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره أولى قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فانك بعينى وسمعى وان معك يدى وبصرى وانى ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى أبعثك الى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وانى أقسم بعزتى لولا الحجة والعذر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه عنى رسالتى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمى فى كلام طويل قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك بعبده

من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ما هى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا وأما تعلقه بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى الى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر (اذهب الى فرعون) تخلص الى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا بأصالته أى اذهب اليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى (انه طغى) تعليل للامر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية

﴿ قوله تعالى (قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى اشدد به ازرى واشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا) اعلم ان الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون وكان ذلك تكليفا شاقا فلا جرم سأل ربه أمورا ثمانية ثم ختمها بما يجرى مجرى العلة لسؤال تلك الاشياء (المطلوب الاول) قوله رب اشرح لى صدرى واعلم انه يقال شرحت الكلام أى بينته وشرحت صدره أى وسعته والاول يقرب منه لان شرح الكلام لا يحصل الا ببسطه والسبب فى هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه فى موضع آخر وهو قوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة وقال رب اشرح لى صدرى فافهم عنك ما أنزلت على من الوحى وقيل شجعنى لاجترئ به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بامور (أحدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ما السبب فى ان الانسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى الا الرب (وثالثها) ما معنى شرح الصدر (ورابعها) بماذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر فى حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا أولم يكن منشرحا فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال وان لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الاول) انه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالاديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر فى باب الدين فقد حصل ثم انه سبحانه تلطف له بقوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله وما تلك بيمينك ياموسى ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة ثم أعطاه منصب الرسالة بعد ان كان فقيرا وكل ما يتعلق به الاعزاز والاكرام فقد حصل ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لادون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل أن لا يصير منشرح الصدر (والثانى) انه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الاشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة اليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام لا يقضى القاضى وهو غضبان فكيف يصلح للنبوة التى أقل مراتبها القضاء فهذا مجموع الامور التى لا بد من البحث عنها فى هذه الآية (أما البحث الاول) وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم فى تفسير قوله ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الا أنه نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول اعلم ان للكمال مراتب ودرجات واعلاها أن يكون كاملا فى ذاته مكملا لغيره أما كونه كاملا فى ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته وكل ما كان كذلك كان كاملا فى الازل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا فى الازل لان التكميل عبارة عن جعل الشئ كاملا وذلك لا يتحقق الا عند عدم الكمال فانه لو كان حاصلا فى الازل لاستحال التأثير فيه

(قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الامر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع الى ربه عز وجل وأظهر عجزه بقوله

فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلاجرم انه سبحانه وان كان كاملا في الازل الا أنه يصير مكملا فيما لا يزال فان قيل اذا كان التكاميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملا في الازل فقد كان عاريا عن صفات الكمال فيكون ناقصا وهو محال قلنا النقصان انما يلزم لو كان ذلك ممكنا في الازل لكنا بينا ان الفعل الازلي محال فالتكميل الازلي محال فعدمه لايكون نقصانا كما أن قولنا انه لايقدر على تكوين مثل نفسه لايكون نقصانا لانه غير ممكن الوجود في نفسه وكقولنا انه لايعلم عددا مفصلا لحركات أهل الجنة لان كل ماله عدد مفصل فهو متناه وحركات اهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل فامتنع ذلك لا لقصور في العلم بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول اذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه وتعالى لما قصد الى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لان الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فاجلس على هذه المائدة بعض المعدومات دون البعض لاسباب (أحدها) أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لانهاية له في الوجود (وثانيها) انه لو أوجد الكل لما بقي بعد ذلك قادرا على الايجاد لان ايجاد الموجود محال فكان ذلك وان كان كمالا للناقص لكنه يقتضي نقصان الكامل فانه ينقلب القادر من القدرة الى العجز (وثالثها) انه لو ادخل الكل في الوجود لما بقي فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والايجاب بالطبع نقصان فلهذه الاسباب أخرج بعض الممكنات الى الوجود فان قيل عليه سؤالان (أحدهما) ان الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي فتكون أيضا الضيافة ضيافة للاقل وأما الحرمان فانه عدم لما لانهاية له وهذا لايكون وجودا (الثاني) ان البعض الذي خصه بهذه الضيافة ان كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل وان كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثا وهو محال كما قيل * يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما * وانه لايليق بأكرم الاكرمين والجواب عن الكل ان هذه الشبهات انما تدور في العقول والخيالات لان الانسان يحاول قياس فعله على فعلنا وذلك باطل لانه لايسئل عما يفعل وهم يسئلون اذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله ورحمتي وسعت كل شئ ثم ان الموجودات انقسمت الى الجمادات والى الحيوانات ولاشك ان الجماد بالنسبة الى الحيوان كالعدم بالنسبة الى الوجود لان الجماد لاخبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود وأما الحيوان فهو الذي يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولان الجماد بالنسبة الى الحيوان آلة لان الحيوانات تستعمل الجمادات في اغراض أنفسها ومصالحها وهي كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولي فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن احسان

ويضيق صدري ولاينطلق لساني وسأله تعالى أن يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤون الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجاش رابط

الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض والحياة بالنسبة الى الجمادية كالنور بالنسبة الى الظلمة والبصر بالنسبة الى العمى والوجود بالنسبة الى العدم فعند ذلك صار بعض الموجودات حيا مدركا للمنافى والملائم واللذة والالم والخير والشر فحن ثم قالت الاحياء عند ذلك يارب الارباب انا وان وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك لكن ازدادت الحاجة لانا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج الى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافى والمؤذى ولما حصل الوجود والحياة احتجنا الى طلب الملائم ودفع المنافى فان لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التى بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الاحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود فقال القادرون عند ذلك الهنا الجواد الكريم ان الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون الا احد القسمين اما للمجانين المقيدين بالسلاسل والاغلال واما للبهائم المستعملة فى حمل الاثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان الى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذى هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذى شرفته بقولك بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب حتى نفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم العقل وبث فى أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الاربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل ألا ترى ان رسولنا صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين كان أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام والانسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذى الجلال كان أفضل الخلع وأكملها ثم نظر العقل فى نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوأة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوأة من الكواكب الزاهرة وهى العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بدائه العقول وصرائح الاذهان وكما ان الكواكب المركوزة فى السموات علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فكذلك الجواهر المركوزة فى سماء العقل كواكب زاهرة يهتدى بها السائرون فى ظلمات عالم الاجسام الى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها فلما نظر العقل الى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الارقام على راقم وبتلك النقوش على ناقش وعند ذلك عرف ان النقاش بخلاف النقش والبانى بخلاف البناء فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن الى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الازلية

وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذى هو أجل الامور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الاسباب ورفع الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمها وتكريرها اظهار مزيد اعتناء

والجلال وكان العقل انما نظر الى أضواء عالم الازلية من ظلمات عالم الحدوث والامكان فغلبته دهشة أنوار الازلية فعميت عيناه فبقى متحيرا فالتجأ بطبعه الى مفيض الانوار فقال رب اشرح لى صدرى فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة وفى الطريق قطاع من الاعداء الداخلة والخارجة وشياطين الانس والجن كثيرة فان لم تشرح لى صدرى ولم تكن لى عونا فى كل الامور انقطعت وصارت هذه الخلع سببا لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات فهذا هو المراد من قوله رب اشرح لى صدرى ثم قال و يسر لى أمرى وذلك لان كل مايصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالم يصر العبد مريدا له استحال أن يصير فاعلا له فهذه الارادة صفة محدثة ولابد لها من فاعل وفاعلها ان كان هو العبد افتقر فى تحصيل تلك الارادة الى ارادة أخرى ولزم التسلسل بل لابد من الانتهاء الى ارادة يخلقها مدبر العالم فيكون فى الحقيقة هو الميسر للامور وهو المتمم لجميع الاشياء وتماما لتحقيق ان حدوث الصفة لابد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله رب اشرح لى صدرى وعبر عن حصول الفاعل بقوله و يسر لى أمرى وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى القابل قابليته والفاعل فاعليته ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يقولون يامبتدئا بالنعم قبل استحقاقها ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على ان جميع الحوادث فى هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته و يمكن أن يقال أيضا كأن موسى عليه السلام قال الهى لا أكتفى بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الامر وتحصيل الغرض فلهذا قال و يسر لى أمرى أو يقال انه سبحانه وتعالى أعطاه الخلع الاربع وهى الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له ياموسى أعطيتك هذه الخلع الاربع فلابد فى مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة فقال موسى عليه السلام ما تلك الخدمات فقال وأقم الصلاة لذكرى فان فيها أنواعا أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود فاذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة ثم انه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهى خلعة الرسالة قال رب اشرح لى صدرى حتى أعرف أنى بأى خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد فى أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يارب ان هذا لا يتأتى منى مع عجزى وضعفى وقلة آلاتى وقوة خصمى فاشرح لى صدرى و يسر لى أمرى (الفصل الثانى) فى قوله رب اشرح لى صدرى اعلم ان الدعاء سبب القرب من الله تعالى وانما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلبا للقرب فنفتقر الى بيان أمرين الى بيان ان الدعاء بسبب القرب ثم الى بيان ان موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء أما بيان ان الدعاء بسبب القرب فيدل عليه وجوه (الاول) ان الله تعالى ذكر السؤال والجواب فى كتابه فى عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية أما الاصولية فاولها فى البقرة يسئلونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج (وثانيها) فى بنى اسرائيل و يسئلونك عن الروح

بشأن كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما واختصاصهما به (واحلل عقدة من لسانى) روى انه كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فاخذ لحيته فنتفها لما كان فيها من الجواهر

قل الروح من أمر ربى (وثالثها) ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا (ورابعها) يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وأما الفرعية فستة منها فى البقرة على التوالى (أحدها) يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين (وثانيها) يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير (وثالثها) يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير (ورابعها) و يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو (وخامسها) و يسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير (وسادسها) و يسئلونك عن المحيض قل هو أذى (وسابعها) يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول (وثامنها) ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (وتاسعها) ويستنبؤنك أحق هو قل اى وربى انه لحق (وعاشرها) يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة (والحادية عشر) واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الاسئلة والاجوبة على صور مختلفة فالاغلب فيها انه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفى صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفى صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وفى صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ولابد لهذه الاشياء من الفائدة فنقول أما الاجوبة الواردة بلفظ قل فلا اشكال فيها لان قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد فى ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد فى كونه مخاطبا من الله تعالى باداء الوحى والتبليغ وأما الصورة الثانية وهى قوله فقل ينسفها ربى نسفا فالسبب ان قولهم و يسئلونك عن الجبال سؤال اما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسئلة من أمهات مسائل أصول الدين فلاجرم أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال فى الحال ولا تقتصر فان الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الامر لئلا يقعوا فى الشك والشبهة ثم كيفية الجواب انه قال فقل ينسفها ربى نسفا ولاشك ان النسف ممكن لانه ممكن فى حق كل جزء من اجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكنا فى حق كل الجبل وذلك يدل على انه ليس بقديم ولا واجب الوجود لان القديم لا يجوز عليه التغير والنسف فان قيل انهم قالوا اخبرنا عن الهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال قل هو الله أحد ولم يقل فقل هو الله أحد مع ان هذه المسئلة من المهمات قلنا انه تعالى لم يحك فى هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعى سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء (وأما الصورة الثالثة) فانه تعالى لم يذكر الجواب فى قوله يسئلونك عن الساعة أيان مرساها فالحكمة فيه ان معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التى شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على ان من الاسئلة ما لا يجاب عنها

فغضب وأمر بقتله فقالت آسية انه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها فى فيه قيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال الى أى رب تدعونى قال الى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى قد أوتيت سؤلك

(وأما الصورة الرابعة) وهي قوله فاني قريب ولم يذكر في جوابه قل ففيه وجوه (أحدها) ان ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وانه من اعظم العبادات فكانه سبحانه قال ياعبدي أنت انما تحتاج الى الواسطة في غير الدعاء أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك يدل عليه ان كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها واذكر في الكتاب موسى واذكر في الكتاب اسمعيل واذكر في الكتاب ادريس ونبئهم عن ضيف ابراهيم ثم قال في قصة يوسف نحن نقص عليك أحسن القصص وفي أصحاب الكهف نحن نقص عليك نبأهم بالحق وماذاك الالما في هاتين القصتين من العجائب والغرائب والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال يامحمد اذا سئلت عن غيري فكن أنت المجيب واذا سئلت عني فاسكت أنت حتى أكون انا القائل (وثانيها) ان قوله واذا سألك عبادي عني يدل على ان العبد له وقوله فاني قريب يدل على ان الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل فالعبد مني قريب بل قال انا منه قريب وهذا فيه سر نفيس فان العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو هو في مركز العدم وحضيض الفناء فكيف يكون قريبا بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فانه بفضله واحسانه جعله موجودا وقربه من نفسه فالقرب منه لامن العبد فلهذا قال فاني قريب (ورابعها) ان الداعي مادام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فانه لايكون داعيا لله تعالى فاذا فني عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الاحد الحق امتنع أن يبقى في مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات الى غير الله تعالى فلاجرم رفعت الواسطة من البين فما قال فقل اني قريب بل قال فاني قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وانه من اعظم القربات ثم من شأن العبد اذا اراد أن يتحف مولاه ان لايتحفه الا بأحسن التحف والهدايا فلاجرم أول ما اراد موسى ان يتحف الحضرة الالهية بتحف الطاعات والعبادات اتحفها بالدعاء فلاجرم قال رب اشرح لي صدري (والوجه الثاني) في بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام الدعاء مخ العبادة ثم ان أول شئ أمر الله تعالى به موسى عليه السلام العبادة لان قوله انني انا الله اخبار وليس بأمر انما الامر قوله فاعبدني فلما كان أول ما أورد على موسى من الاوامر هو الامر بالعبادة لاجرم أول ما اتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال رب اشرح لي صدري (والوجه الثالث) وهو ان الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما انه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك امر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب وقال ربكم ادعوني استجب لكم وادعوه خوفا وطمعا ادعوا ربكم تضرعا وخفية هو الحي لااله الاهو فادعوه مخلصين له الدين قل ادعوا أو ادعوا الرحمن واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة وقال صلى الله عليه وسلم ادعوا بياذا الجلال والاكرام فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه

ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى هو أفصح مني وقوله تعالى ولا يكاد يبين وأجاب عن الاول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الافهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله من لساني أي عقدة كائنة من عقد لساني وجعل قوله تعالى (يفقهوا قولي) جواب الامر وغرضا من الدعاء فبحلها في الجملة يتحقق ايتاء سؤله عليه الصلاة السلام

(أحدها) انه علام الغيوب يعلم مافى الانفس وماتخفى الصدورفأى حاجة بنا الى الدعاء (وثانيها) ان المطلوب ان كان معلوم الوقوع فلا حاجة الى الدعاء وان كان معلوم اللاوقوع فلافائدة فيه (وثالثها) الدعاءيشبه الامر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى سوءأدب (ورابعها) المطلوب بالدعاءان كان من المصالح فالحكيم لايهمله وان لم يكن من المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقدجاء ان اعظم مقامات الصديقين الرضابقضاء الله تعالى وقدندب اليه والدعاء ينافى ذلك لانه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال عليه السلام رواية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته افضل ماأعطى السائلين فدل على ان الاولى ترك الدعاء والآيات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء (وسابعها) ان ابراهيم عليه السلام لماترك الدعاء واكتفى بقوله حسبى من سؤالى علمه بحالى استحق المدح العظيم فدل على أن الاولى ترك الدعاء والجواب عن الاول انه ليس الغرض من الدعاء الاعلام بل هونوع تضرع كسائر التضرعات (وعن الثانى) انه يجرى مجرى أن نقول للجائع والعطشان ان كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة الى الاكل والشرب وان كان معلوم اللاوقوع فلافائدة فيه (وعن الثالث) ان الصيغة وان كانت صيغة الامر الاأن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوزأن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء (وعن الخامس) انه اذادعا اظهارا للتضرع ثم رضى بماقدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية اذاثبت انه من العبادات ثم انه تعالى أمره بالعبادة و بالصلاة أمرا ورد مجملا لاجرم شرع فى أجل العبادات وهو الدعاء (الوجه الرابع) فى فضل الدعاءانه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الامر به بل بين فى آية أخرى انه يغضب اذالم يسئل فقال فلولا اذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون وقال عليه السلام لايقولن أحدكم اللهم اغفرلى ان شئت ولكن يجزم فيقول اللهم اغفرلى فلهذا السرجزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لى صدرى (الوجه الخامس) فى فضل الدعاء قوله تعالى وقال ربكم ادعونى استجب لكم وفيه كرامة عظيمة لامتنا لان بنى اسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم وأنى فضلتكم على العالمين وقال أيضا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يبين لنا ماهى وان الحواريين مع جلالتهم فى قولهم نحن انصار الله سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم انه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة فى امتنا فقال مخاطبا لهم من غير واسطة ادعونى استجب لكم وقال واسألوا الله من فضله فلهذا السبب لماحصلت هذه الفضيلة لهذه الامة وكان موسى عليه السلام قدعرفها لاجرم قال اللهم اجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلاجرم رفع يديه ابتداء فقال رب اشرح لى صدرى واعلم انه تعالى قال واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ثم انه تعالى جعل العباد على سبعة اقسام (أحدها) عبد العصمة ان عبادى

والحق أن ماذكر لايدل على بقائها فى الجملة أما قوله تعالى هو أفصح منى فلانه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه على ان أفصحيته منه عليهما الصلاة والسلام لاتستدعى بقاءها أصلا بل تستدعى عدم البقاء لما أن الافصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة فى المفضول أيضا وذلك مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى

ليس لك عليهم سلطان وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد العصمة واصطنعتك لنفسى فلاجرم طلب زوائد العصمة فقال رب اشرح لى صدرى (وثانيها) عبد الصفوة وسلام على عباده الذين اصطفى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد الصفوة ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى و بكلامى فلاجرم اراد مزيد الصفوة فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) عبد البشارة فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى فاراد مزيد البشارة فقال رب اشرح لى صدرى (ورابعها) عبد الكرامة ياعبادى لاخوف عليكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك لاتخافا اننى معكما فاراد الزيادة عليها فقال رب اشرح لى صدرى (وخامسها) عبد المغفرة نبئ عبادى أنى انا الغفور الرحيم وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك رب اغفرلى فغفرله فاراد الزيادة فقال رب اشرح لى صدرى (وسادسها) عبد الخدمة اعبدوا ربكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك واصطنعتك لنفسى فطلب الزيادة فيها فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) عبد القربة واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعانى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بالقرب وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا فاراد كمال القرب فقال رب اشرح لى صدرى (الفصل الثالث) فى قوله رب اشرح لى صدرى وفيه وجوه (أحدها) انه تعالى لما خاطبه بالاشياء الستة (أحدها) معرفة التوحيد اننى انا الله لااله الا انا (وثانيها) أمره بالعبادة والصلاة فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى (وثالثها) معرفة الآخرة ان الساعة آتية (ورابعها) حكمة أفعاله فى الدنيا وماتلك بيمينك ياموسى (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه لنريك من آياتنا الكبرى (وسادسها) ارساله الى اعظم الناس كفرا وعتوا فكانت هذه التكاليف الشاقة سببا للقهر فاراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرف ان كل من سأله قرب منه فقال رب اشرح لى صدرى فاراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال رب اشرح لى صدرى أو يقال خاف شياطين الانس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء الى مقام القرب فيصير مأمونا من غوائل شياطين الجن والانس (وثانيها) ان المراد انه أراد الذهاب الى فرعون وقومه فاراد ان يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف ان من دعا ربه قربه له وقربه لديه فحينئذ تنقطع الاطماع بالكلية فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ماسوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شئ هالك الا وجهه فالكل كانهم فى ظلمات العدم واظلال عالم الاجسام والامكان فقال رب اشرح لى صدرى حتى يجلس قلبى فى نهار ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر والجالس فى الضوء لايرى من كان جالسا فى الظلمة فحين جلس فى ضوء شرح الصدر لايرى أحدا فى الوجود فلهذا عقبه بقوله ويسرلى أمرى فان العبد فى مقام الاستغراق لايتفرغ لشئ من

ولايكاد يبين فن باب غلو اللعين فى العتو والطغيان والادل على عدم زوالها أصلا وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها لاقلتها باعتبار كونها بعضها من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقا بشئ ومتصلا به

المهمات (ورابعها) رب اشرح لى صدرى فان عين العقل ضعيفة فأطلع يا الهى شمس التوفيق حتى أرى كل شئ كما هو وهذا فى معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم ارنا الاشياء كما هى واعلم ان شرح الصدر مقدمة لسطوع الانوار الالهية فى القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهى قوله فاستمع لما يوحى فلاجرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الاخرى فقال رب اشرح لى صدرى ولما آل الامر الى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له وقل رب زدنى علما والعلم هو المقصود فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم أعطى المقدمة ولما كان محمد كالمقصود لاجرم أعطى المقصود فسبحانه ما أدق حكمته فى كل شئ (وسادسها) الداعى له صفتان (احداهما) أن يكون عبد الرب واذا سألك عبادى عنى فانى قريب (وثانيتهما) أن يكون الرب له وقال ربكم ادعونى استجب لكم أضاف نفسه الينا وما اضافنا الى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فاراد موسى عليه السلام أن يرتع فى هذا البستان فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) ان موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله وقربناه نجيا فكان موسى عليه السلام قال الهى لما قلت وقربناه نجيا صرت قريبا منك ولكن اريد قربك منى فقال ياموسى أما سمعت قولى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب فاشتغل بالدعاء حتى اصير قريبا منك فعند ذلك قال رب اشرح لى صدرى (وثامنها) قال موسى عليه السلام رب اشرح لى صدرى وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ألم نشرح لك صدرك ثم انه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال وسراجا منيرا فانظر الى التفاوت فان شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطى ثم نقول الهنا ان ديننا وهو كلمة لا اله الا الله نور والوضوء نور والصلاة نور والقبر نور والجنة نور فبحق أنوارك التى أعطيتنا فى الدنيا لا تحرمنا أنوار فضلك واحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع) فى قوله رب اشرح لى صدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف فى القلب فقيل وما أمارته فقال التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول ويدل على ان شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم ان الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور (أحدها) وصف ذاته بالنور الله نور السموات والارض (وثانيها) الرسول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (وثالثها) القرآن واتبعوا النور الذى انزل معه (ورابعها) الايمان يريدون ان يطفؤا نور الله بأفواههم (وخامسها) عدل الله وأشرقت الارض بنور ربها (وسادسها) ضياء القمر وجعل القمر فيهن نورا (وسابعها) النهار وجعل الظلمات والنور (وثامنها) البينات انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور (وتاسعها) الانبياء نور على نور (وعاشرها)

فكلما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشئ أيضا باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون اخى) أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل أو ملجأ أعتصم برأيه على انه من الوزر وهو الملجأ وقيل أصله أزير من الازر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس

المعرفة مثل نوره كمشكاة فيها مصباح اذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك (وثانيها) رب اشرح لى صدرى بالتخلق بأخلاق رسلك وانبيائك (وثالثها) رب اشرح لى صدرى باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لى صدرى بنور الايمان والايقان بالهيتك (وخامسها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على اسرار عدلك فى قضائك وحكمك (وسادسها) رب اشرح لى صدرى بالانتقال من نور شمسك وقمرك الى انوار جلال عزتك كما فعله ابراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس الى حضرة العزة (وسابعها) رب اشرح لى صدرى من مطالعة نهارك وليلك الى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك (وثامنها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى أرضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لى صدرى فى ان أكون خلف صور الانبياء المتقدمين ومتشبها بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لى صدرى بان تجعل سراج الايمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح واعلم ان شرح الصدر عبارة عن ايقاد النور فى القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار ومعلوم ان من أراد ان يستوقد سراجا احتاج الى سبعة اشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن فالعبد اذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر الى هذه السبعة (فاولها) لابد من زند المجاهدة والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وثانيها) حجر التضرع ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وثالثها) حراق منع الهوى ونهى النفس عن الهوى (ورابعها) كبريت الانابة وانيبوا الى ربكم ملطخا رؤس تلك الخشبات بكبريت توبوا الى الله (وخامسها) مسرجة الصبر واستعينوا بالصبر والصلاة (وسادسها) فتيلة الشكر لئن شكرتم لازيدنكم (وسابعها) دهن الرضا واصبر لحكم ربك أى ارض بقضاء ربك فاذا صلحت هذه الادوات فلا تعول عليها بل ينبغى ان لا تطلب المقصود الا من حضرته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ثم اطلبها بالخشوع والخضوع وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول رب اشرح لى صدرى فهنالك تسمع قد أوتيت سؤلك ياموسى ثم نقول هذا النور الروحانى المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس يحجبها غمامة وشمس المعرفة لا يحجبها السموات السبع اليه يصعد الكلم الطيب (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهارا قال ابراهيم عليه السلام لا احب الآفلين اما شمس المعرفة فلا تغيب ليلا ان ناشئة الليل هى أشد وطأ والمستغفرين بالاسحار بل أكمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل سبحان الذى اسرى بعبده ليلا (وثالثها) الشمس تفنى اذا الشمس كورت وشمس المعرفة لا تفنى سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) الشمس اذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة وهى معرفة أشهد ان لا اله الا الله مالم يقابلها قمر أشهد ان محمدا رسول الله لم يصل نوره الى

قلبت همزته واوا كقلبها فى موازر ونصبه على انه مفعول ثان لاجعل قدم على الاول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة ولى صلة لاجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيرا اذ هو صفة له فى الاصل ومن أهلى اما صفة لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل مفعولاه لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كامر من الوجهين

عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجى من الحرق جزيامؤمن فان نورك قد اطفأ لهبى (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد اليه يصعد الكلم الطيب (وثامنها) الشمس منفعتها فى الدنيا والمعرفة منفعتها فى العقبى والباقيات الصالحات خير (وتاسعها) الشمس فى السماء زينة لاهل الارض والمعرفة فى الارض زينة لاهل السماء (وعاشرها) الشمس فوقانى الصورة تحتانى المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر والمعارف الالهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى وذلك يدل على التواضع مع الشرف (وحادى عشرها) الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب الى الخالق (وثانى عشرها) الشمس تقع على الولى والعدو والمعرفة لاتحصل الا للولى فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لاجرم قال موسى رب اشرح لى صدرى وأما النكت (فاحداها) الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء كل من عليها فان والمعرفة استوقدها للبقاء فالذى خلقها للفناء لوقرب الشيطان منها الاحترق شهابا رصدا والمعرفة التى خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان رب اشرح لى صدرى (وثانيتها) استوقد الله الشمس فى السماء وانها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك واوقد شمس المعرفة فى قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثتها) من استوقد سراجا فانه لايزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة ولكن الله حبب اليكم الايمان فلايمده وهو معنى قوله رب اشرح لى صدرى (ورابعتها) اللص اذا رأى السراج يوقد فى البيت لايقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة فى قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال رب اشرح لى صدرى (وخامستها) المجوس أوقدوا نارا فلا يريدون اطفاءها والملك القدوس أوقد سراج الايمان فى قلبك فكيف يرضى باطفائه واعلم انه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات (أحدها) الحياة أومن كان ميتا فاحييناه فلما رغب موسى عليه السلام فى الحياة الروحانية قال رب اشرح لى صدرى ثم النكتة انه عليه السلام قال من أحيا أرضا ميتة فهى له فالعبد لما أحيا أرضا فهى له فارب لما خلق القلب واحياه بنور الايمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب قل الله ثم ذرهم وكما أن الايمان حياة القلب فالكفر موته أموات غير أحياء ومايشعرون (وثانيها) الشفاء ويشف صدور قوم مؤمنين فلما رغب موسى فى الشفاء رفع الايدى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة انه تعالى لما جعل الشفاء فى العسل بقى شفاء أبدا فههنا لما وضع الشفاء فى الصدر فكيف لايبقى شفاء أبدا (وثالثها) الطهارة أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى فلما رغب موسى عليه السلام فى تحصيل طهارة التقوى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان الصائغ اذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لايدخله فى النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانيا ولكن الله يدخل فى النار قلب الكافر ليميز الله الخبيث من الطيب

وأخى فى الوجهين بدل من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من أهل ولى تبيين كما فى قوله تعالى ولم يكن له كفوا أحد ورد بأن شرط المفعولين فى باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ و يخبر عنه بما بعده (اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) كلاهما على صيغة الدعاء

(ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة أن الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لاتحصل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فانها لاتزول لان الهادى لايزول ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم (وخامسها) الكتابة أولئك كتب فى قلوبهم الايمان فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال رب اشرح لى صدرى وفيه نكت (الاولى) ان الكاغدة ليس لها خطر عظيم واذا كتب فيها القرآن لم يجز احراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم احراقه (الثانية) بشر الحافى اكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فاكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط اذا كتب فيه اسم الله الاعظم عظم قدره حتى انه لايجوز للجنب والحائض ان يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له ان يمس جلد المصحف وقال الله تعالى لايمسه الا المطهرون فالقلب الذى فيه اكرم المخلوقات ولقد كرمنا بنى آدم كيف يجوز للشيطان الخبيث ان يمسه والله اعلم (وسادسها) السكينة هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان أبابكر رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خائفا فلما نزلت السكينة عليه قال لاتحزن فلما نزلت سكينة الايمان فرحوا أن يسمعوا خطاب ان لاتخافوا ولا تحزنوا وأيضا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض أى ان يصير واخلفاء الله فى ارضه (وسابعها) المحبة والزينة ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والنكتة ان من ألقى حبة فى أرض فانه لايفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) وألف بين قلوبكم والنكتة ان محمدا صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم انه ماتركهم غيبة ولا حضورا سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فالرحيم كيف يتركهم (وتاسعها) الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب وموسى طلب الطمأنينة فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان حاجة العبد لانهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما فى العالم من الاجسام فانه لايكفيه لان حاجته غير متناهية والاجسام متناهية والمتناهى لايصير مقابلا للغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لانهاية له وماذاك الا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (أحدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم

أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف

(وثالثها) فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) انا جعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم الهنا وسيدنا بفضلك واحسانك اغلق هذه الابواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا باحسانك وافتح لنا تلك الابواب التسعة من احسانك بفضلك ورحمتك انك على ماتشاء قدير

(الفصل الخامس) فى حقيقة شرح الصدر ذكر العلماء فيه وجهين (الاول) أن لايبقى للقلب التفات الى الدنيا لابالرغبة ولابالرهبة أما الرغبة فهى أن يكون متعلق القلب بالاهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم وأما الرهبة فهى أن يكون خائفا من الاعداء والمنازعين فاذا شرح الله صدره صغر كل مايتعلق بالدنيا فى عين همته فيصير كالذباب والبق والبعوض لاتدعوه رغبة اليها ولاتمنعه رهبة عنها فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى فان القلب فى المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فاذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فامااذا انصب الكل فى موضع واحد قوى فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فاذا حصلت النفرة توجه الى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثانى) ان موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج الى تكاليف شاقة منها ضبط الوحى والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها اصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين والالتفات الى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ألاترى ان المشتغل بالابصار يصير ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الابصار والخيال فهذه القوى متجاذبة متنازعة وان موسى عليه السلام كان محتاجا الى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة (المثال الاول) اعلم ان البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب النعم الى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبدا والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم ان الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الاخلاق الذميمة جنوده فأول ماأخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو الى الله تعالى والهوى يدعو الى الشيطان ثم ان الروح أخرج الفطنة اعانة للعقل فأخرج الشيطان فى مقابلة الفطنة الشهوة فالفطنة توقفك على

أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) غاية للادعية الثلاثة الاخيرة فان فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا

معائب الدنيا والشهوة تجرك الى لذات الدنيا ثم ان الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعايب على ما قال عليه السلام تفكر ساعة خير من عبادة سنة فاخرج الشيطان فى مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فان العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فاخرج الشيطان فى مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام ما دخل الرفق فى شئ الا زانه ولا الخرق فى شئ الا شانه ولهذا خلق السموات والارض فى ستة ايام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هى الخصومة الواقعة بين الصنفين وقلبك وصدرك هو القلعة ثم ان لهذا الصدر الذى هو القلعة خندقا وهو الزهد فى الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة فى الآخرة ومحبة الله تعالى فان كان الخندق عظيما والسور قويا عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وان كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فينحصر الملك فى القصر ويضيق الامر عليه فاذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الامر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله رب اشرح لى صدرى (المثال الثانى) اعلم ان معدن النور هو القلب واشتغال الانسان بالزوجة والولد والرغبة فى مصاحبة الناس والخوف من الاعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب الى فضاء الصدر فاذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم فى الدارين صغروا فى عينه ولا شك فى أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه فلا يزال العبد يتامل فيما سوى الله تعالى الى أن يشاهد انهم عدم محض فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى واذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر (الفصل السادس) فى الصدر اعلم أنه يجئ والمراد منه القلب أفمن شرح الله صدره للاسلام رب اشرح لى صدرى وحصل ما فى الصدور يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وقد يجئ والمراد الفضاء الذى فيه الصدر فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور واختلف الناس فى ان محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على انه القلب وقد شرحنا هذه المسئلة فى سورة الشعراء فى تفسير قوله نزل به الروح الامين على قلبك وقال بعضهم المواد أربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الاسلام أفمن شرح الله صدره للاسلام والقلب مقر الايمان ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والفؤاد مقر المعرفة ما كذب الفؤاد ما رأى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا واللب مقر التوحيد انما يتذكر أولوا الالباب واعلم أن القلب اول ما بعث الى هذا العالم بعث خاليا عن النقوش كاللوح

بسبب تقويته وتاييده اذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة

الساذج وهو فى عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم انه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد الى آخر قيام القيامة لهذا العالم الاصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ثم ان العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها فى بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الادبار أخرى فربما وصلت سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الالهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات وربما توغلت السفينة فى جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة فى ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة الى التماس الانوار والهدايات فيقول هناك رب اشرح لى صدرى واعلم ان العقل اذا أخذ فى الترقى من سفل الامكان الى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات والمفارقات ومعلوم ان كل ماهية فهى اما هى معه أو هى له فان كانت هى معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الالهية فلا يبقى هناك مستطلع لمطالعة سائر الانوار فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة وان وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة وهى انه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع الى موضع معين فذلك الموضع الذى اليه تنعكس الشعاعات يحترق فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافى الموضوع فى مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال فاذا وقع للقلب التفات اليها حاصت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الالهية عن كل واحد منها الى القلب فيحترق القلب ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر كان الاحتراق أتم فقال رب اشرح لى صدرى حتى أقوى على ادراك درجات الممكنات فاصل الى مقام الاحتراق بأنوار الجلال وهذا هو المراد بقوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هى فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال لا أحصى ثناء عليك (الفصل السابع) فى بقية الابحاث انما قال رب اشرح لى صدرى ولم يقل رب اشرح صدرى ليظهر ان منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا الى الله وأما كيفية شرح صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره ان شاء الله فى تفسير قوله ألم نشرح لك صدرك والله أعلم بالصواب (المطلوب الثانى) قوله ويسر لى امرى والمراد منه عند أهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعى والبواعث بفعل الالطاف المسهلة فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأى فائدة فى هذا السؤال قلنا يحتمل أن يكون هناك من الالطاف ما لا يحسن فعلها الا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الالطاف (المطلوب الثالث) قوله واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه البيان لانه

المردة العتاة الى الحق وذلك مما لاريب فى اختلاف حاله فى حالتى العدد والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من اظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد وكثيرا فى الموضعين

او عطفه عليه لكان مغايراله أما اذاترك الحرف العاطف صار قوله علمه البيان كالتفسير
لقوله خلق الانسان كانه انما يكون خالقا للانسان اذا علمه البيان وذلك يرجع الى الكلام
المشهور من ان ماهية الانسان هى الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم
أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ❊ فلم يبق الاصورة اللحم والدم

وقال على ما الانسان لولا اللسان الابهيمة مهملة أوصورة ممثلة والمعنى انالو أزلنا الادراك
الذهنى والنطق اللسانى لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء بأصغريه
قلبه ولسانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء مخبوء تحت لسانه (وثالثها) ان فى مناظرة آدم
مع الملائكة ماظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم
بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض (ورابعها) ان الانسان
جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد ابدا صور
المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الاجسام و واسطته
فى تلك الاستفادة هى الفكر الذهنى وواسطته فى هذه الافادة هى النطق اللسانى فكما ان
تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فكذلك الواسطة
فى الافادة يجب أن تكون أشرف الاعضاء فقوله رب اشرح لى صدرى اشارة الى طلب
النور الواقع فى الروح وقوله و يسرلى أمرى اشارة الى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل
وعندذلك يحصل الكمال فى تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعدهذا الا المقام البيانى
وهو افاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لايكون الا باللسان فلهذا قال واحلل عقدة من
لسانى (وخامسها) وهو ان العلم أفضل المخلوقات على ماثبت والجود والاعطاء أفضل
الطاعات وليس فى الاعطاء أفضل من اليد فاليد لما كانت آلة فى العطية الجسمانية قيل
اليد العليا خير من اليد السفلى فالعلم الذى هو خير من المال لما كانت آلة اعطائه اللسان
وجب أن يكون أشرف الاعضاء ولاشك ان اللسان هو الآلة فى اعطاء المعارف فوجب
أن يكون أشرف الاعضاء ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (احدها) قوله عليه
السلام الصمت حكمة وقليل فاعله ويروى ان الانسان تفكر أعضاؤه اللسان و يقلن اتق
الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (وثانيها) ان الكلام على
أربعة أقسام منه ماضرره خالص أوراجح ومنه مايستوى الضرر والنفع فيه ومنه مانفعه
راجح ومنه ماهو خالص النفع أما الذى ضرره خالص أوراجح فواجب الترك والذى يستوى
الامران فيه فهو عبث فبقى القسمان الاخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر
فالاولى ترك الكلام (وثالثها) ان مامن موجود أومعدوم خالق أومخلوق معلوم
أوموهوم الا واللسان يتناوله و يتعرض له باثبات أونفى فان كل مايتناوله الضمير يعبر عنه
اللسان بحق أو باطل وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الاعضاء فان العين لاتصل الى غير

نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أى ننزهك عما لايليق بك من الصفات والافعال التى من جملتها مايدعيه فرعون الطاغية و يقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الالوهية ونصفك بما

الالوان والصور والاذان لاتصل الا الى الاصوات والحروف واليد لاتصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد فله فى الخير مجال رحب وله فى الشر سحب وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصى فانه يحتاج فيها الى موئن كثيرة لايتيسر تحصيلها فى الاكثر فلذلك كان الاولى ترك الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والانصات والاصاخة فأما الصمت فهو أعمها لانه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لايقوى عليه ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لايقال له انصات قال تعالى فاستمعوا له وأنصتوا والاصاخة استماع الى مايصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد واعلم ان الصمت عدم ولا فضيلة فيه بل النطق فى نفسه فضيلة والرذيلة فى محاورته ولولاه لما سال كليم الله ذلك فى قوله تعالى واحلل عقدة من لسانى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى تلك العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام على قولين (الاول) كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى ازالته (الثانى) السبب فيه انه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذى يزول ملكى على يده فقالت آسية انه صبى لايعقل وعلامته ان تقرب منه التمرة والجمرة فقربا اليه فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لان اليد آلة أخذ العصا وهى الحجة واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولان ابراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمرود وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقى فى التنور فكيف يحترق هناك ومنهم من قال احترق اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة (الثالث) احترق اللسان دون اليد لان الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله ياأبت (والرابع) احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى انه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع فى أداء الرسالة خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير لان العقدة فى اللسان قد تفضى الى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات اليه (وثالثها) اظهارا للمعجزة فكما ان حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا فى حقه فكذا اطلاق لسان موسى عليه السلام معجز فى حقه (ورابعها) طلب السهولة لان ايراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون فى جبروته وكبره عسر جدا فاذا انضم اليه تعقد اللسان بلغ العسر الى النهاية فسأل ربه ازالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا (المسئلة الرابعة) قال الحسن رحمه الله ان تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى قد أوتيت سؤلك ياموسى وهو ضعيف لانه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لسانى بل قال واحلل عقدة من لسانى فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله والحق انه انحل أكثر العقد و بقى منها شئ قليل لقوله حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين أى يقارب

يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجلال والجلال تنزيها كثيرا أو زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان الحاجة معه وأما ماقيل من أن المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك فلا يساعده المقام (انك كنت بنا

أن لايبين وفى ذلك دلالة على انه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه وأجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أى لايأتى ببيان ولا حجة (والثانى) ان كاد بمعنى قرب ولوكان المراد هو البيان اللسانى لكان معناه أنه لايقارب البيان فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل لانه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان أصلا بل انما قال ذلك تمويها ليصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة انما قال واحلل عقدة من لسانى لان حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن فلما كان ذلك حقا ليتيم أبى طالب لاجرم مادار حوله والله أعلم (المطلوب الرابع) قوله واجعل لى وزيرا من أهلى واعلم ان طلب الوزير اما أن يكون لانه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الامر فطلب المعين أولانه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة فى امر الدعاء الى الله ولذلك قال عيسى بن مريم من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال عليه السلام ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الوزير من الوزر لانه يحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أومن الوزر وهو الجبل الذى يتحصن به لان الملك يعتصم برأيه فى رعيته ويفوض اليه أموره أومن الموازرة وهى المعاونة والموازرة مأخوذة من ازار الرجل وهو الموضع الذى يشده الرجل اذا استعد لعمل أمر صعب قاله الاصمعى وكان القياس أزيرا فقلبت الهمزة الى الواو (المسئلة الثانية) قال عليه السلام اذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وكان أنوشروان يقول لايستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير (المسئلة الثالثة) ان قيل الاستعانة بالوزير انما يحتاج اليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحى من الله تعالى الى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير وأيضا فانه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكا له فى النبوة فقال وأشركه فى أمرى فكيف يكون وزيرا والجواب عن الاول ان التعاون على الامر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة فى تأثير الدعاء الى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقا بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل فى الابلاغ (المطلوب الخامس) أن يكون ذلك الوزير من أهله أى من أقاربه (المطلوب السادس) أن يكون الوزير الذى من أهله هو أخوه هرون وانما سأل ذلك لوجهين (احدهما) ان التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لاتحصل هذه الدرجة الا لاهله أولان كل واحد منهما كان فى غاية المحبة لصاحبه والموافقة له وقوله هرون فى انتصابه وجهان (أحدهما) انه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخى

بصيرا) أى عالما باحوالنا وبأن مادعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا فى تحقيق ما كلفته من اقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الردء فى اداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل

وزيرا لى (والثانى) على البدل من وزيرا وأخى نعت لهرون أو بدل واعلم ان هرون عليه السلام كان مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ومنها انه كان فيه رفق قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها انه كان أكبر سنا منه (المطلوب السابع) قوله اشدد به أزرى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة العامة اشدد به وأشركه على الدعاء وقرأ ابن عامر وحده اشدد وأشركه على الجزاء والجواب حكاية عن موسى عليه السلام أى أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الامر ان يجعل أخى مرفوعا على الابتداء واشدد به خبره ويوقف على هرون (المسئلة الثانية) الازر القوة وآزره قواه قال تعالى فآزره أى أعانه قال أبو عبيدة أزرى أى ظهرى وفى كتاب الخليل الازر الظهر (المسئلة الثالثة) انه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه أن يشدد به أزره ويجعله ناصرا له لانه لا اعتماد على القرابة (المطلوب الثامن) قوله وأشركه فى أمرى والامر ههنا النبوة وانما قال ذلك لانه عليه السلام علم انه يشد به عضده وهو أكبر منه سنا وأفصح منه لسانا ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وان يكون بالاعتقاد وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك ان النفى مقدم على الاثبات أما قوله تعالى انك كنت بنا بصيرا ففيه وجوه (أحدها) انك عالم بانا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحدا سواك (وثانيها) كنت بنا بصيرا ان هذه الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوة اليها (وثالثها) انك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا وانما قيد الدعاء بهذا اجلالا له عن أن يتحكم عليه وتفويضا للامر بالكلية اليه ❊ قوله تعالى (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى واصطنعتك لنفسى اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) اعلم ان السؤال هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز واكل بمعنى مأكول واعلم ان موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الامور الثمانية وكان من المعلوم ان قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل الا باجابته اليها لا جرم أجابه الله تعالى اليها ليكون أقدر على الابلاغ على الحد الذى كلف فقال قد أوتيت سؤلك ياموسى وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال ولقد مننا عليك مرة أخرى فنبه بذلك على أمور (أحدها) كأنه تعالى قال انى راعيت

والايتاء عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الامر وشد الازر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى (ولقد مننا عليك) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان انه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد أنعمنا (مرة أخرى) أى فى وقت غير هذا الوقت لأن ذلك مؤخر عن هذا فان أخرى تأنيث آخر

بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من افراد ماله أفراد متجددة متعددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا

لما فى معناه من سائر الاشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها هنا الوقت الممتد

مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) انى كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى (وثالثها) انا لما أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه و رقيناك من حالة نازلة الى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب وههنا سؤالان (السؤال الاول) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع ان هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف (والجواب) انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصلت اليه ما كان مستحقا لشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والاحسان (السؤال الثانى) لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة والجواب لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير واعلم ان المنن المذكورة ههنا ثمانية (المنة الاولى) قوله اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له أما قوله اذ أوحينا فقد اتفق الاكثرون على ان أم موسى عليه السلام ما كانت من الانبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحى هو الوحى الواصل الى الانبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعى رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم وهذا صريح فى الباب وأيضا فالوحى قد جاء فى القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى وأوحى ربك الى النحل وقال واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه (أحدها) المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده اليها (وثانيها) ان المراد عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع اليه ظهر له الرأى الذى هو أقرب الى الخلاص ويقال لذلك الخاطر انه وحى (وثالثها) المراد منه الالهام لكنا متى بحثنا عن الالهام كان معناه خطور رأى بالبال وغلبة على القلب فيصير هذا هو الوجه الثانى وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى والجواب لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان افضاء الالقاء فى البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون (ورابعها) لعله أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض عليه بأن الامر لو كان كذلك لما لحقها من أنواع الخوف ما لحقها والجواب ان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مرارا (وخامسها) لعل الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا

الذى وقع فيه ما سيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) ظرف لمننا والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى واذ أوحيت الى الحواريين الآية واما الايحاء بواسطة الملك لا على وجه النبوة كما أوحى الى مريم واما الالهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل وأما الاراءة فى المنام والمراد بما يوحى ما سيأتى من الامر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم اولا تهويلا له وتفخيما لشانه ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيل ما لا يعلم الا بالوحى وفيه انه لا يلائم المعنيين الاخيرين للوحى اذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما لا يعلم الا بالالهام أو بالاراءة فى المنام وأن فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت) مفسرة لان الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بأن اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى (فاقذفيه فى اليم) فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت (فليلقه اليم بالساحل) لما كان القاء البحر اياه بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعل البحر

﴿بذلك﴾

كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الامر والاستعارة لما أن موسى عليه السلام والمقذوف فى البحر

بالساحل وان كان هو التابوت اصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك

بذلك وانتهى ذلك الخبر الى تلك المرأة (وسادسها) لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله ما يوحى فمعناه وأوحينا الى أمك ما يجب أن يوحى وانما وجب ذلك الوحى لان الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل الى معرفة المصلحة فيها الا بالوحى فكان الوحى واجبا أما قوله تعالى أن اقذفيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) أن هى المفسرة لان الوحى بمعنى القول (المسئلة الثانية) القذف مستعمل فى معنى الالقاء والوضع ومنه قوله تعالى وقذف فى قلوبهم الرعب (المسئلة الثالثة) روى أنها اتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية اذ بتابوت يجىء به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجوارى باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه وسيأتى تمام القصة فى سورة القصص قال مقاتل ان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون (المسئلة الرابعة) اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم (المسئلة الخامسة) قال الكسائى الساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان الماء يسحله أى يقذفه الى أعلاه (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف الضمائر كلها راجعة الى موسى عليه السلام ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يؤدى الى تنافر النظم فان قيل المقذوف فى البحر هو التابوت وكذلك الملقى الى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر (المسئلة السابعة) لما كان تقدير الله تعالى أن يجرى ماء اليم ويلقى بذلك التابوت الى الساحل سلك فى ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الامر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله يأخذه عدو لى وعدو له ففيه أبحاث (البحث الاول) قوله يأخذه جواب الامر أى اقذفيه يأخذه (البحث الثانى) فى كيفية الاخذ قولان (أحدهما) ان امرأة فرعون كانت بحيث تستسقى الجوارى فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قبوله له واستحبابه اياه (الثانى) ان البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر الى بركة فرعون فلما رآه أخذه (البحث الثالث) قوله يأخذه عدو لى وعدو له فيه اشكال وهو ان موسى عليه السلام لم يكن فى ذلك الوقت بحيث يعادى وجوابه اما كونه عدو الله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدوا لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث انه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل انه من حيث يؤل أمره الى ما آل اليه من العداوة (المنة الثانية) قوله وألقيت عليك محبة منى وفيه قولان (الاول) وألقيت عليك محبة هى منى قال الزمخشرى منى لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على انى أحببتك ومن أحبه الله أحبته

(يأخذه عدو لى وعدو له) جواب للامر بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالامر والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوهم وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث يجرى ماؤه الى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته وألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء اليه فأتى به الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فاذا هو صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو

الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هى

متعلقة بألقيت أى أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لامحالة وقوله تعالى (ولتصنع على عينى) متعلق بألقيت معطوف على علة له مضمرة أى ليتعطف ﴿ ٥٠ ﴾ عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى

أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من القاء المحبة والجملة مبتدأة أى ولتصنع على عينى فعلت ذلك وقرئ ولتصنع على صيغة الامر بسكون اللام وكسرها وقرئ بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك على عين منى لئلا تخالف به عن أمرى (اذ تمشى أختك) ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها الى بيت فرعون وماترتب عليه من القول والرجع الى أمها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى اذ لاشفقة أعظم من شفقة الام وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من اذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الاطراف وهو الانسب بما سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولاتعلق لشئ منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولاريب فى أن معظم آثار القائها ظهر عند فتح التابوت (فتقول) أى لفرعون ﴿ من ﴾ وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لايقبل ثديا وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية (هل أدلكم على من يكفله) أى يضمه الى نفسه ويربيه وذلك

القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثانى ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أى وألقيت عليك محبة حاصلة منى واقعة بخلقى فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت قرة عين لى ولك لاتقتلوه يروى انه كانت على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لايكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا قال القاضى هذا الوجه أقرب لانه فى حال صغره لايكاد يوصف بمحبة الله تعالى التى ظاهرها من جهة الدين لان ذلك انما يستعمل فى المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد ان ماذكرنا من كيفيته فى الخلقة يستحلى ويغتبط به فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما فى التربية مالامزيد عليه ويمكن أن يقال بل الاحتمال الاول أرجح لان الاحتمال الثانى يحوج الى الاضمار وهو أن يقال والقيت عليك محبة حاصلة منى وواقعة بتخليق وعلى التقدير الاول لاحاجة الى هذا الاضمار بقى قوله انه حال صباه لايحصل له محبة الله تعالى قلنا لانسلم فان محبة الله تعالى يرجع معناها الى ايصال النفع الى عباده وهذا المعنى كان حاصلا فى حقه فى حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر الى آخر عمره فلاجرم أطلق عليه لفظ المحبة (المنة الثالثة) قوله ولتصنع على عينى قال القفال لتربى على عينى أى على وفق ارادتى ومجازه ان من صنع لانسان شيئا وهو حاضر ينظر اليه صنعه له كما يحب ولايمكنه أن يفعل مايخالف غرضه فكذا ههنا وفى كيفية المجاز قولان (الاول) المراد من العين العلم أى ترى على علم منى ولما كان العالم بالشئ يحرسه عن الآفات كما ان الناظر اليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه (الثانى) المراد من العين الحراسة وذلك لان الناظر الى الشئ يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فاطلق اسم السبب على المسبب مجازا وهو كقوله تعالى انى معكما أسمع وأرى ويقال عين الله عليك اذا دعا لك بالحفظ والحياطة قال القاضى ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله ولتصنع على عينى الحفظ والحياطة كقوله تعالى اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولاتحزن فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له (بقى ههنا بحثان الاول) الواو فى قوله ولتصنع على عينى فيه ثلاثة أوجه (احدها) كأنه قيل ولتصنع على عينى القيت عليك محبة منى ثم يكون قوله اذ تمشى أختك متعلقا بأول الكلام وهو قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك مايوحى واذ تمشى أختك (وثانيها) يجوز أن يكون قوله ولتصنع على عينى متعلقا بما بعده وهو قوله اذ تمشى وذكرنا مثل هذين الوجهين فى قوله وليكون من الموقنين (وثالثها) يجوز أن تكون الواو مقحمة أى وألقيت عليك محبة منى لتصنع وهذا ضعيف (الثانى) قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على انه امر وقرئ ولتصنع بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك وتصرفك على علم منى (المنة الرابعة) قوله اذ تمشى أختك واعلم ان العامل فى اذ تمشى ألقيت أو تصنع يروى انه لما فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل وكان لايرتضع

من ثدى كل امرأة يؤتى بها لان الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه اضطروا الى تتبع النساء فلما رأت ذلك اخت موسى جاءت اليهم متنكرة فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ثم جاءت بالام فقبل ثديها فرجع الى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى فرجعناك الى أمك أى رددناك وقال فى موضع آخر فرددناه الى أمه وهو كقوله قال رب ارجعون أى ردونى الى الدنيا أما قوله كى تقر عينها ولا تحزن فالمراد ان المقصود من ردك اليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها فان قيل لو قال كى لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيدا لانه لا يلزم من نفى الحزن حصول السرور لها وأما لما قال أولا كى تقر عينها كان قوله بعد ذلك ولا تحزن فضلا لانه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة قلنا المراد انه تقر عينها بسبب وصولك اليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها الى باطنك (والمنة الخامسة) قوله وقتلت نفسا فنجيناك من الغم فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفسا وهو الرجل الذى قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلى عليه وكان قبطيا فحصل له الغم من وجهين (أحدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه على ما حكى الله تعالى عنه فأصبح فى المدينة خائفا يترقب والآخر من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين أما من فرعون فحين وفق له المهاجرة الى مدين وأما من عقاب الآخرة فلانه سبحانه وتعالى غفر له ذلك (المنة السادسة) قوله وفتناك فتونا وفيه ابحاث (البحث الاول) فى قوله فتونا وجهان (أحدهما) انه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقا وذلك على مذهبهم فى تأكيد الاخبار بالمصادر كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما (والثانى) انه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور فى حجزة وبدرة أى فتناك ضروبا من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الاول) أن الله تعالى عدد أنواع منته على موسى عليه السلام فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله وفتناك فتونا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله فالزلزلة المذكورة فى الآية ومس البأساء والضراء هى الفتنة والفتون ولما كان التشديد فى المحنة مما يوجب كثرة الثواب لا جرم عده الله تعالى من جملة النعم (وثانيها) فتناك فتونا أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب من الفضة اذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال نستأنف له نهارا يا ابن جبير ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الواردة فى شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الالاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى أن سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق

يكون بقبوله ثديها يروى انه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرضع امرأة واضطروا الى تتبع النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم

متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بأمه فقبل ثديها فالفاء فى قوله تعالى (فرجعناك الى أمك) فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا دلينا عليها فجاءت بامك فرجعناك اليها (كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك والا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد اشفاقها (وقتلت نفسا) هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه (فنجيناك من الغم) أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجاء منه بالمهاجرة الى مدين (وفتناك فتونا) أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو اجمال ما ناله

وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد اجارة نفسه ومابعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ماوقع قبل وصوله عليه السلام الى مدين بقضية الفاء في قوله تعالى (فلبثت سنين في أهل مدين) اذ لاريب في أن الاجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله اليهم الى جميع ماقاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التي كل واحد منها فتنة وأي فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثماني مراحل من مصر (ثم جئت الى المكان الذي أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفي كلمة التراخي ايذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتي من ضلال الطريق وتفرق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك (على قدر) أي تقدير قدرته لان أكلمك وأستنبئك في وقت قد عينته لذلك فاجئت الاعلى ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء عليهم السلام وهو رأس اربعين سنة وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الاخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله تعالى ✻واصطنعتك✻ (واصطنعتك لنفسي) تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون

فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بني اسرائيل ثم قصة القاء موسى عليه السلام في اليم والتقاط آل فرعون اياه وامتناعه من الارتضاع من الاجانب ثم قصة ان موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة في فيه ثم قصة قتل القبطي ثم هربه الى مدين وصيرورته أجير الشعيب عليه السلام ثم عوده الى مصر وأنه أخطأ الطريق في الليلة المظلمة واستئناسه بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير (السؤال الثاني) هل يصح اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله وفتناك فتونا والجواب لا لانه صفة ذم في العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالا ينبغي (المنة السابعة) قوله تعالى فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى واعلم ان التقدير وفتناك فتونا فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم أما مدة اللبث فقال ابو مسلم انها مشروحة في قوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين الى قوله فلما قضى موسى الاجل وهي اما عشرة واما ثمان لقوله تعالى على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته والآية تدل على انه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر واعلم ان قوله فلبثت سنين في أهل مدين بعد قوله وفتناك فتونا كالدلالة على ان لبثه في مدين من الفتون وكذلك كان فانه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة واحتاج الى ان آجر نفسه أما قوله تعالى ثم جئت على قدر ياموسى فلابد من حذف في الكلام لانه على قدر أمر من الامور وذكروا في ذلك المحذوف وجوها (أحدها) انه سبق في قضائي وقدري أن أجعلك رسولا لي في وقت معين عينته لذلك فما جئت الاعلى ذلك القدر لاقبله ولا بعده ومنه قوله انا كل شئ خلقناه بقدر (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) ان القدر هو الموعد فان ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيبا عليه السلام أو غيره من الانبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد فان قيل كيف ذكر الله تعالى مجيء موسى عليه السلام في ذلك الوقت من جملة مننه عليه قلنا لانه لولا توفيقه له لما تهيأ له شئ من ذلك (المنة الثامنة) قوله تعالى واصطنعتك لنفسي والاصطناع اتخاذ الصنعة وهي افتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلانا أي اتخذه صنيعة فان قيل انه تعالى غني عن الكل فما معنى قوله لنفسي والجواب عنه من وجوه (الاول) ان هذا تمثيل لانه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه أهلا لان يكون أقرب الناس منزلة اليه وأشدهم قربا منه (وثانيها) قالت المعتزلة انه سبحانه وتعالى اذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الالطاف ما لا يعلم الاسمعا فلولم يصطنعه بالرسالة لبقي في عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه في اداء ما وجب على الله تعالى فصح أن يقول

مؤيدا باخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابقة السابغة تأكيد الوثوق عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب

الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظيريه السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك برسالاتى وبكلامى وقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك) أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع (بآياتى) أى بمعجزاتى التى أريتكها من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لا يقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها الى حالتها الاولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى اجراء أحكام الرسالة واكمال أمر الدعوة لا مجرد اذهابها وايصالها اليه (ولا تنيا) لا تفترا ولا تقصرا وقرئ لا تنيا بكسر التاء للاتباع (فى ذكرى) أى بما يليق بى

واصطنعتك لنفسى قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلانا اذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسى أى لاصرفك فى أوامرى لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو اقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية فى مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمرا ونهيا أما الامر فهو انه سبحانه وتعالى أعاد الامر بالاول فقال اذهب أنت وأخوك بآياتى واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال واصطنعتك لنفسى عقبه بذكر ما له اصطنعه وهو الابلاغ والاداء ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الباء ههنا بمعنى مع وذلك لانهما لو ذهبا اليه بدون آية معهما لم يلزمه الايمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد (المسئلة الثانية) اختلفوا فى الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال (أحدها) انها اليد والعصا لانهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع وفى سائر المواضع التى اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فانه تعالى لم يذكر فى شئ منها انه عليه السلام قد أوتى قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى عنه قال فأت بآية ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وقال فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه فاذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه (الاول) ان العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فان انقلاب العصا حيوانا آية ثم انها فى أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم ان موسى عليه السلام كان يدخل يده فى فيها فما كانت تضر موسى عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى فصح انهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان (الثانى) هب ان العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لان انقلابها حية يدل على وجود اله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيوانا فهذه آيات كثيرة ولذلك قال ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا الى قوله فيه آيات بينات مقام ابراهيم فاذا وصف الشئ الواحد بان فيه آيات فالشيئان أولى بذلك (الثالث) من الناس من قال أقل الجمع اثنان على ما عرفت فى أصول الفقه (القول الثانى) ان قوله اذهبا بآياتى معناه انى أمدكما بآياتى وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فان آياتى معكما كما يقال اذهب فان جندى معك أى انى أمدك بهم متى احتجت (القول الثالث) ان الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضا معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الامر أما النهى فهو قوله تعالى ولا تنيا فى ذكرى الونى الفتور والتقصير وقرئ ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع

أمرا من الامور لايتأتى ولا يتسنى الا بذكري (اذهبا الى فرعون) جمعهما في صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون اذ ذاك للتغليب وكذا الحال في صيغة النهي روى انه أوحى الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه (انه طغى) تعليل لموجب الامر والفاء في قوله تعالى (فقولا له قولا لينا) لترتيب مابعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضي الله عنهما لاتعنفا في قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فانها دعوة في صورة عرض ومشورة ويرده ماسيجيء من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لايهرم ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لايزول الا بالموت وقرئ لينا (لعله يتذكر) بما بلغناه من ذكري ✿ ايضا ✿ ويرغب فيما رغبناه فيه (أو يخشى) عقابي ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أي فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أي باشرا الامر مباشرة من يرجو ويطمع في أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو

ثم قيل فيه أقوال (أحدها) المعنى لاتنيا بل اتخذا ذكري آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا ان أمرا من الامور لا يتمشى لاحد الا بذكري والحكمة فيه ان من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا ولان من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود ولان ذكر الله تعالى لابد وأن يكون ذاكر الاحسانه وذاكر احسانه لايفتر في اداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديرا بان يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله ولا تنيا في ذكري عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه ان الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) ان يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع احسانه اليه ثم قال بعد ذلك اذهبا الى فرعون انه طغى وفيه سؤالان (الاول) ما الفائدة في ذلك بعد قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي قال القفال فيه وجهان (أحدهما) ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا ان المراد منه ان يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به هرون دون موسى (والثاني) ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده (السؤال الثاني) قوله اذهبا الى فرعون خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لان هرون عليه السلام لم يكن حاضرا هناك وكذا في قوله تعالى قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو ان يطغى أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب في تلك الحالة وان كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما في قوله واذ قتلتم نفسا وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وحكى ان القائل هو عبد الله بن أبي وحده (وثانيها) يحتمل ان الله تعالى لما قال قد أوتيت سؤلك ياموسى سكت حتى لقى أخاه ثم ان الله تعالى خاطبهما بقوله اذهبا الى فرعون (وثالثها) انه حكى انه في مصحف ابن مسعود وحفصة قال ربنا اننا نخاف أي قال موسى أنا وأخي نخاف فرعون أما قوله تعالى فقولا له قولا لينا ففيه سؤالان (الاول) لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد الجواب لوجهين (الاول) انه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الابوين (الثاني) ان من عادة الجبابرة اذا غلظ لهم في الوعظ ان يزدادوا عتوا وتكبرا والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق (السؤال الثاني) كيف كان ذلك الكلام اللين الجواب ذكروا فيه وجوها (أحدها) ماحكى الله تعالى بعضه فقال هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وذكر

يجتهد بطوقه ويحتشد باقصى وسعه وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بحاله الزام الحجة وقطع المعذرة (قالا ربنا)
أسند القول اليهما مع ان القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب ايذانا

أيضا في هذه السورة بعض ذلك فقال فاتياه فقولا انا رسولا ربك الى قوله والسلام على من
اتبع الهدى (وثانيها) ان تعداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه الا بالموت وان يبقى
له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوى الكنى
الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغني ان
فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام ان أطعتني عمرت مثل
ما عمرت فاذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الاخيرة (أما الاول) فقيل
لو حصلت له هذه الامور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالالجاء الى معرفة الله
تعالى وذلك لا يصح مع التكليف (وأما الثاني) فلان خطابه بالكنية أمر سهل فلا
يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله فقولا له قولا لينا بل يجوز أن يكون ذلك من جملة
المراد (وأما الثالث) فلا اعتراض عليه كما في الاول أما قوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى
فاعلم انه ليس المراد أنه تعالى كان شاكا في ذلك لان ذلك محال عليه تعالى وانما المراد فقولا
له قولا لينا على أن تكونا راجيين لان يتذكر هو أو يخشى واعلم ان أحوال القلب ثلاثة
(أحدها) الاصرار على الحق (وثانيها) الاصرار على الباطل (وثالثها) التوقف في
الامرين وان فرعون كان مصرا على الباطل وهذا القسم أردأ الاقسام فقال تعالى فقولا
له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى فيرجع من انكاره الى الاقرار بالحق وان لم ينتقل من
الانكار الى الاقرار لكنه يحصل في قلبه الخوف فيترك الانكار وان كان لا ينتقل الى
الاقرار فان هذا خير من الاصرار على الانكار واعلم ان هذا التكليف لا يعلم سره الا الله
تعالى لانه تعالى لما علم انه لا يؤمن قط كان ايمانه ضد الذلك العلم الذي يمتنع زواله فيكون
سبحانه عالما بامتناع ذلك الايمان واذا كان عالما بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام
بذلك الرفق وكيف بالغ في ذلك الامر بتلطيف دعوته الى الله تعالى مع علمه استحالة حصول
ذلك منه ثم هب ان المعتزلة ينازعون في هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة في
هذا السؤال ولكنهما سلموا انه كان عالما بانه لا يحصل ذلك الايمان وسلموا ان فرعون
لا يستفيد ببعثة موسى عليه السلام الا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن
يدفع سكينا الى من علم قطعا انه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول اني ما أردت بدفع السكين اليه
الا الاحسان اليه يا أخي العقول قاصرة عن معرفة هذه الاسرار ولا سبيل فيها الا التسليم
وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان ويروى عن كعب انه قال والذي يحلف به
كعب انه لمكتوب في التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسي قلبه فلا يؤمن ✱ قوله تعالى
(قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى فاتياه
فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام
على من اتبع الهدى انا قد أوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى) اعلم ان قوله قالا
ربنا اننا نخاف فيه أسئلة (السؤال الاول) قوله قالا ربنا يدل على ان المتكلم بذلك موسى

باصالته في كل قول وفعل
وتبعية هرون عليه السلام
له في كل ما ياتي ويذر
ويجوز أن يكون هرون
قد قال ذلك بعد تلاقيهما
فحكى ذلك مع قول موسى
عليه السلام عند نزول
الآية كما في قوله تعالى
يا أيها الرسل كلوا
من الطيبات فان هذا
الخطاب قد حكى لنا بصيغة
الجمع مع أن كلا من المخاطبين
لم يخاطب الا بطريق
الانفراد ضرورة استحالة
اجتماعهم في الوجود
فكيف باجتماعهم
في الخطاب (اننا نخاف
أن يفرط علينا) أي يعجل
علينا بالعقوبة ولا يصبر
الى اتمام الدعوة واظهار
المعجزة من فرط اذا تقدم
ومنه الفارط وفرس فارط
يسبق الخيل وقرئ يفرط
من افرطه اذا حمله
على العجلة أي نخاف
أن يحمله حامل
من الاستكبار أو الخوف
على الملك أو غيرهما
على المعاجلة بالعقاب
(أو أن يطغى) أي يزداد
طغيانا الى أن يقول في
شأنك ما لا ينبغي لكمال
اءته وقساوته واطلاقه من حسن الادب واظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار
قق الخوف من كل منهما (قال) استئناف مبني على السؤال الناشئ من النظم الكريم ولعل اسناد الفعل الى ضمير
بة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى مساق آخر فان ما قبله من الافعال

وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضرا هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم (السؤال الثانى) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى فأجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك ياموسى وهذا يدل على انه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر والجواب ان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق اليه السهو والتحريف وذلك شئ آخر غير زوال الخوف (السؤال الثالث) اما علم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة انه تعالى يؤمنهما من القتل الذى هو مقطعة عن الاداء (الجواب) قد أمنا ذلك وان جوزنا أن ينالهما السوء من قبل تمام الاداء أو بعده وأيضا فانهما استظهرا بان سألا ربهما مايزيد فى ثبات قلبهما على دعائه وذلك بان ينضاف الدليل النقلى الى العقلى زيادة فى الطمأنينة كما قال ولكن ليطمئن قلبى (السؤال الرابع) لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية (الجواب) لو اقتضى الامر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لاسيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وازالة الغم ولكن ليس الامر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على ان الامر لا يقتضى الفور اذا ضممت اليه مايدل على ان المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى أن يفرط علينا أو أن يطغى فاعلم ان فى أن يفرط وجوها (احدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذى يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف ان يعجل علينا بالعقوبة (وثانيها) انه مأخوذ من أفرط غيره اذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو اما الشيطان أو ادعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم قال الملأ من قومه (وثالثها) يفرط من الافراط فى الاذية أما قوله أو أن يطغى فالمعنى يطغى بالتخطى الى أن يقول فيك مالا ينبغى لجراءته عليك واعلم ان من أمر بشئ فحاول دفعه باعذار يذكرها فلابد وأن يختم كلامه بما هو الاقوى وهذا كما ان الهدهد ختم عذره بقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فكذا ههنا بدأ موسى بقوله ان يفرط علينا وختم بقوله أو أن يطغى لأن طغيانه فى حق الله تعالى أعظم من افراطه فى حق موسى وهرون عليهما السلام أما قوله قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى فالمراد لا تخافا مما عرض فى قلبكما من الافراط والطغيان لان ذلك هو المفهوم من الكلام يبين ذلك انه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله اننى معكما فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله أسمع وأرى فان من يكون مع الغير وناصرا له وحافظا يجوز أن لا يعلم كل ماينال وانما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى انه معهما بالحفظ والعلم فى جميع ماينالهما وذلك

الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ماسيأتى من قوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى فان ماقبله أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فاذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال (لا تخافا) ما توهمتما من الامرين وقوله تعالى (اننى معكما) تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبئ عنه قوله تعالى (أسمع وأرى) أى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل فافعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز أن لا يقدر شئ على معنى اننى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر اذا كان كذلك فقد تم وبلغت النصرة غايتها (فأتياه) أمرا باتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعدما أمرا بالذهاب اليه فلا تكرار وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده (فقولا انا رسولا ربك) أمر بذلك تحقيقا للحق من أول الامر ليعرف الطاغية شأنهما ويبنى جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى (فأرسل معنا بنى اسرائيل) لترتيب مابعدها على ماقبلها فان كونهما رسولى ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الاسر والقسر ﴿هو﴾ واخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا معهما الى الشأم كما ينبئ عنه قوله تعالى (ولا تعذبهم) أى بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الاعمال

الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار وغيرهما من الامور الشاقة و يقتلون ذكورا اولادهم عاما دون عام و يستخدمون

نساءهم وتوسيط حكم الارسال بين بيان رسالتهما و بين ذكر المجيء بآية دالة على صحتها لاظهار

الاعتناء به مع ما فيه من
تهوين الامر على فرعون
فان ارسالهم معهما من
غير تعرض لنفسه وقومه
بفنون التكاليف الشاقة
كما هو حكم الرسالة عادة
ليس مما يشق عليه كل
المشقة ولان في بيان مجيء
الآية نوع طول كما ترى
فتأخير ذلك عنه مخل
بتجاوب أطراف النظم
الكريم وأما ما قيل من
أن ذلك دليل على أن
تخليص المؤمنين من
الكفرة أهم من دعوتهم
الى الايمان فكلا (قد
جئناك بآية من ربك)
تقرير لما تضمنه الكلام
السابق من دعوى
الرسالة وتعليل لوجوب
الارسال فان مجيئهما
بالآية من جهته تعالى
مما يحقق رسالتهما
و يقررها و يوجب
الامتثال بأمرهما
واظهار اسم الرب في
موضع الاضمار مع
الاضافة الى ضمير المخاطب
لتأكيد ما ذكر من التقرير
والتعليل وتوحيد الآية
مع تعددها لان المراد
اثبات الدعوى ببرهانها

لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة وقوله تعالى أولو جئتك بشيء مبين وأما قوله تعالى
فأت بآية ان كنت من الصادقين فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات (والسلام) المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى
والملائكة وغيرهم من المسلمين (على من اتبع الهدى) بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق

هو النهاية في ازالة الخوف قال القفال قوله أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله ان
يفرط علينا او ان يطغى والمعنى يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بان يقتلنا فقال الله
تعالى انني معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا اتركه حتى يفعل
بكما ما تكرهانه واعلم ان هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعا وبصيرا صفتان زائدتان
على العلم لان قوله انني معكما دل على العلم فقوله أسمع وارى لو دل على العلم لكان ذلك تكريرا
وهو خلاف الاصل ثم انه سبحانه اعاد ذلك التكليف فقال فأتياه لانه سبحانه وتعالى قال
في المرة الاولى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون وفي الثانية اذهب أنت واخوك
وفي الثالثة قال اذهبا الى فرعون وفي الرابعة قال ههنا فأتياه فان قيل انه قيل انه تعالى أمرهما
في المرة الثانية بأن يقولا له قولا لينا وفي هذه المرة الرابعة أمرهما أن يقولا انا رسولا ربك
فأرسل معنا بني اسرائيل وفيه تغليظ من وجوه (أحدها) ان قوله انا رسولا ربك فيه
ابحاث (البحث الاول) انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع
(البحث الثاني) قوله فأرسل معنا بني اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا
اليهم فيما يريده من الاعمال من بناء أو غيره (البحث الثالث) قوله ولا تعذبهم (البحث
الرابع) قوله قد جئناك بآية من ربك فما الفائدة في التليين أولا والتغليظ ثانيا قلنا لان
الانسان اذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب أن يقولا
انا رسولا ربك قد جئناك بآية فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا
بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه قلنا بل هذا أولى من تأخيره عنه لانهم ذكروا مجموع
الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة أما قوله قد جئناك بآية من ربك ففيه
سؤال وهو انه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال اذهب أنت وأخوك بآياتي
وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا جئناك بآية وهذا يدل على انها كانت واحدة
فكيف الجمع أجاب القفال بأن معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنه قال قد
جئناك ببيان من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججا كثيرة وأما قوله
والسلام على من اتبع الهدى فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال فقولا
انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى وقال آخرون بل كلام الله تعالى
قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك فقوله بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى
وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة والسلام بمعنى
السلامة كما يقال رضاع و رضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال لهم اللعنة ولهم
سوء الدار على معنى عليهم وقال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وفي موضع
آخر ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها أما قوله انا قد أوحي الينا ان العذاب
على من كذب وتولى فاعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ان عقاب المؤمن لا يدوم
وذلك لان الالف واللام في قوله العذاب تفيد الاستغراق أو تفيد الماهية وعلى

التقديرين يقتضى انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى فوجب فى غير المكذب المتولى ان لا يحصل هذا الجنس اصلا وظاهر هذه الآية يقتضى القطع بأنه لا يعاقب أحدا من المؤمنين بترك العمل به فى بعض الاوقات فوجب ان يبقى على أصله فى نفى الدوام لان العقاب المتناهى اذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال انه لا عقاب وأيضا فقوله والسلام على من اتبع الهدى وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضى حصول السلامة لكل من اتبع الهدى والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة

☼ قوله تعالى (قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) اعلم انهما عليهما السلام لما قالا انا رسولا ربك قال لهما فمن ربكما يا موسى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم ان موسى عليه السلام لما دعاه الى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل خرج معه فى المناظرة لما أنه لو شرع أولا فى الايذاء لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير الحجة شئ ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الاسلام والعلم ثم ان فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الاله من قول الرسول لان موسى عليه السلام اعترف ههنا بان معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة (المسئلة الثانية) تدل الآية على انه يجوز حكاية كلام المبطل لانه تعالى حكى كلام فرعون فى انكاره الاله وحكى شبهات منكرى النبوة وشبهات منكرى الحشر الا أنه يجب انك متى اوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى فى هذه المواضع (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير ايذاء ولا ايحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله فى قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقال وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى ان فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل انه كان عارفا الا انه كان يظهر الانكار تكبرا وتجبرا وزورا وبهتانا واحتجوا عليه بستة أوجه (أحدها) قوله لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض فمتى نصبت التاء فى علمت

وفيه من ترغيبه فى اتباعهما على ألطف وجه ما لا يخفى (انا قد اوحى الينا) من جهة ربنا (ان العذاب) الدنيوى والأخروى (على من كذب) أى بآياته تعالى (وتولى) أى أعرض عن قبولها وفيه من التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه (قال) أى فرعون بعد ما أتياه ما أمرا به وانطوى ذكره للايجاز والاشعار بانهما كما أمرا بذلك سارعا الى الامتثال به من غير تلعثم وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة الى التصريح به (فمن ربكما يا موسى) لم يضف الرب الى نفسه ولو بطريق حكاية ما فى قوله تعالى انا رسولا ربك وقوله تعالى قد جئناك بآية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه اليهما لما أن المرسل لا بد أن يكون ربا للرسول ولانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا انا رسول رب العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولى ربهما أى اذا كنتما رسولى ربكما فأخبرا من ربكما الذى أرسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب اليهما لما أنه الاصل فى الرسالة وهرون وزيره ☼ كان ☼ واما ما قيل من أن ذلك لانه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رتة فأراد أن يفحمه فيرده ما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله ولا يكاد يبين فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر

كان ذلك خطابا من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على ان فرعون كان عالما بذلك وكذا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا (وثانيها) انه كان عاقلا والا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلا قد علم بالضرورة انه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر الى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى عليه السلام ههنا ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وكلمة الذى تقتضى وصف المعرفة بجملة معلومة فلا بد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله فى سورة القصص فى صفة فرعون وقومه وظنوا انهم الينا لا يرجعون فذلك يدل على انهم كانوا عالمين بالمبدا الا أنهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) ان ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام الى مدين قال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين فمع هذا كيف يعتقد انه اله العالم (وسادسها) انه لما قال وما رب العالمين قال موسى عليه السلام رب السموات والارض وما بينهما قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنى انا اطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف فهو لم ينازع موسى فى الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه باصل الوجود ومن الناس من قال انه كان جاهلا بربه واتفقوا على ان العاقل لا يجوز أن يعتقد فى نفسه انه خالق هذه السموات والارضين والشمس والقمر وانه خالق نفسه لانه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة انها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضرورى بأنه ليس موجدا لها ولا خالقا لها واختلفوا فى كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل انه كان دهريا نافيا للمؤثر أصلا ويحتمل انه كان فلسفيا قائلا بالعلة الموجبة ويحتمل انه كان من عبدة الكواكب ويحتمل انه كان من الحلولية المجسمة وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى انه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره (المسئلة الخامسة) انه سبحانه حكى عنه فى هذه السورة انه قال فمن ربكما يا موسى وقال فى سورة الشعراء وما رب العالمين فالسؤال ههنا بمن وهو عن الكيفية وفى سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول انى أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف انه لا يمكنه أن يقاومه فى هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى المقام الثانى وهو طلب الماهية وهذا أيضا مما ينبه على انه كان عالما بالله لانه ترك المنازعة فى هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع فى المقام الصعب لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (المسئلة السادسة) انما قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما لانه أثبت نفسه ربا فى قوله ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له انا ربك فلم تدعى ربا آخر وهذا الكلام شبيه بكلام نمروذ لان ابراهيم عليه السلام لما قال ربى الذى يحيى ويميت قال نمروذ له أنا أحيى وأميت ولم يكن الاحياء والاماتة التى ذكرهما ابراهيم عليه السلام هما الذى عارضه بهما نمروذ

(قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له (ربنا) اما مبتدا وقوله تعالى (الذى أعطى كل شئ خلقه) خبره أو هو خبر لمبتدا محذوف والموصول صفته وأياما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما اراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه كما يفصح عنه ما فى حيز الصلة اى هو ربنا الذى اعطى كل شئ من الاشياء خلقه أى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شئ تحتاج هى اليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيئا من ذلك بخلاف جنسه وقرئ خلقه على صيغة الماضى على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه وحذف المفعول الثانى اما للاقتصار على الاول أى كل شئ خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وانعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال أى أعطى كل شئ خلقه الله تعالى ما يحتاج اليه (ثم هدى) أى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما اعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله اما اختيارا كما فى الحيوانات او طبعا كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الاجزاء وتسوية الاجسام مقدما على الهداية التى هى عبارة عن ايداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الاجسام وسط

الا فى اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده انى انا الرب لانى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية فى المعنى وانه لا مشاركة بينهما الا فى اللفظ (المسئلة السابعة) اعلم ان موسى عليه السلام استدل على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وهذه الدلالة هى التى ذكرها الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قوله سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقال ابراهيم عليه السلام فانهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين وان موسى عليه السلام فى أكثر الامور يعول على دلائل ابراهيم عليه السلام وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الشعراء انشاء الله تعالى واعلم انه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والابدان والهداية عبارة عن ابداع القوى المدركة والمحركة فى تلك الاجسام وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية ولذلك قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فالتسوية راجعة الى القالب ونفخ الروح اشارة الى ابداع القوى وقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى أن قال ثم انشأناه خلقا آخر فظهر ان الخلق مقدم على الهداية والشروع فى بيان عجائب حكمة الله تعالى فى الخلق والهداية شروع فى بحر لا ساحل له ولنذكر منه أمثلة قريبة الى الافهام (أحدها) ان الطبيعى يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الاشياء ثقلا الارض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والارض أسفلها ثم انه سبحانه قلب هذا الترتيب فى خلقة الانسان فجعل اعلى الاشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما فى البدن وهما بمنزلة الارض ثم جعل تحته الدماغ الذى هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذى هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التى فى القلب التى هى بمنزلة النار فجعل مكان الارض من البدن الاعلى وجعل مكان النار من البدن الاسفل ليعرف ان ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك اذا نظرت الى عجائب النحل فى تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض فى اهتدائها الى مصالح أنفسها لعرفت ان ذلك لا يمكن الا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) انه تعالى هو الذى أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلى من البحار ويركبون الادوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات الاطعمة فثبت انه سبحانه هو الذى خلق كل الاشياء ثم أعطاهم العقول التى بها يتوصلون الى كيفية الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام فى جميع الحيوانات فأعطى الانسان انسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الاولاد لثدى الامهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل فى اعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الاخذ وخلق الرجل على

عليه الصلاة والسلام وجوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين انه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الاشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه أن ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد أن هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة (قال فما بال القرون الاولى) لما شاهد اللعين ما نظمه عليه الصلاة والسلام فى ذلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته عليه الصلاة والسلام وبطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه الى ما لا يعنيه من الامور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك الى أن يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والامم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وانما علمها عند الله عز وجل وأما ما قيل من انه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى (قال علمها عند ربى) فان معناه انه من الغيوب التى لا يعلمها الا الله تعالى وانما انا عبد لا اعلم منها الا ما علمنيه من الامور المتعلقة

﴿ تركيب ﴾

بما أرسلت به ولو كان المسؤل عنه ماذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان ان من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى ﴿ ٦١ ﴾ والسلام الآتيين (في كتاب) أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله

تركيب خاص وأودع فيها قوة المشي وكذا العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان وانما دلت هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لان اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة اعني التركيب والقوة والهداية اما ان يكون واجبا أو جائزا والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على ان ذلك جائز والجائز لابد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا أبواه لان فعل ذلك يستدعي قدرة عليه وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد والامران نائيان عن الانسان لانه بعد كمال عقله يعجز عن تغير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الاعضاء ومصالحها الا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولى لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لان الاجسام متساوية في الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وأن يكون جائزا وان كان جائزا افتقر الى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلا بد من الانتهاء في سلسلة الحاجة الى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسماني ثم تأثير ذلك المؤثر اما أن يكون بالذات أو بالاختيار والاول محال لان الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه الاجسام متساوية في الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية فثبت ان المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الا اذا كان عالما ثم ان هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لا بد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وفي صفاته والا افتقر الى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب أن يكون عالما بكل ما صح أن يكون معلوما وقادرا على كل ما صح أن يكون مقدورا فظهر بهذه الدلالة التي تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استناد العالم الى مدبر ليس بجسم ولا جسماني وهو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى (المسئلة الثامنة) ان فرعون خاطب الاثنين بقوله فمن ربكما ثم وجه النداء الى أحدهما وهو موسى عليه السلام لانه الاصل في النبوة وهرون وزيره وتابعه واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي في لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التي في لسان موسى عليه السلام ويدل عليه قوله أم انا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (المسئلة التاسعة) في قوله الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير أي اعطى خلقه كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيهما) أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال أعطى كل شئ الشكل الذي يطابق منفعته ومصلحته وقرئ خلقه صفة للمضاف او المضاف اليه والمعنى أن كل شئ خلقه الله

ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره في علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى (لا يضل ربي ولا ينسى) أي لا يخطئ ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل هو ثابت ابدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الاول لبيان أن اثباته في اللوح ليس لحاجته تعالى اليه في العلم به ابتداء أو بقاء واظهار ربي في موقع الاضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضي عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقري بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع انه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤنه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتي من الالتفات (الذي جعل لكم الارض مهدا) على أن الموصول اما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدأ محذوف أي جعلها لكم كالمهد تتمهدونها او ذات مهد وهو مصدر سمي به المفعول وقرئ مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أي جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم (وسلك لكم فيها سبلا) اي حصل لكم طرقا ووسطها

لم يخله من اعطائه وانعامه وأما قوله تعالى قال فما بال القرون الاولى فاعلم ان فى ارتباط
هذا الكلام بما قبله وجوها (أحدها) ان موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر
المبدا والمعاد قال فرعون ان كان اثبات المبدا فى هذا الحد من الظهور فما بال القرون
الاولى ما اثبتوه وتركوه فكأن موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على اثبات
الصانع قدح فرعون فى تلك الدلالة بقوله ان كان الامر فى قوة هذه الدلالة على ماذكرت
وجب على أهل القرون الماضية أن لايكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها)
ان موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولا فى قوله انا قد أوحى الينا ان العذاب على من
كذب وتولى فقال فرعون فما بال القرون الاولى فانها كذبت ثم انهم ماعذبوا (وثالثها)
وهو الاظهر ان فرعون لما قال فمن ربكما يا موسى فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهرا
و برهانا باهرا على هذا المطلوب فقال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى فخاف فرعون
ان يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فاراد أن يصرفه
عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال فما بال القرون الاولى فلم يلتفت موسى عليه
السلام الى ذلك الحديث بل قال علمها عند ربى فى كتاب ولا يتعلق غرضى بأحوالهم فلا
اشتغل بها ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وايراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال الذى
جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وهذا الوجه هو المعتمد فى صحة هذا النظم ثم
ههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله علمها عند ربى فى كتاب فان العلم الذى
يكون عند الرب كيف يكون فى الكتاب وتحقيقه هو ان علم الله تعالى صفته وصفة الشئ
قائمة به فاما أن تكون صفة الشئ حاصلة فى كتاب فذاك غير معقول فذكروا فيه وجهين
(الاول) معناه انه سبحانه أثبت تلك الاحكام فى كتاب عنده لكون ماكتبه فيه يظهر
للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم فى الاستدلال على انه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن
السهو والغفلة ولقائل أن يقول قوله فى كتاب يوهم احتياجه سبحانه وتعالى فى ذلك العلم
الى ذلك الكتاب وهذا وان كان غير واجب لامحالة ولكنه لاأقل من انه يوهمه فى أول
الامر لاسيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون فى وقت الدعوة (الوجه
الثانى) ان تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات فى علمه سبحانه كبقاء المكتوب فى الكتاب
فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن اسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول
شئ منها عن علمه وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك لايضل ربى ولا ينسى (المسئلة الثانية)
اختلفوا فى قوله لايضل ربى ولا ينسى فقال بعضهم معنى اللفظين واحد اى لايذهب عليه
شئ ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والاكثرون على الفرق بينهما ثم ذكروا وجوها
(أحدها) وهو الاحسن ماقاله القفال لايضل عن الاشياء ومعرفتها وماعلم من ذلك لم ينسه
فاللفظ الاول اشارة الى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثانى وهو قوله ولا ينسى دليل
على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو اشارة الى نفى التغير (وثانيها) قال مقاتل لا يخطئ ذلك

بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها (وأنزل
من السماء ماء) هو المطر (فأخرجنا به) اى بذلك الماء وهو عطف ﴿ ٦٢ ﴾ على أنزل داخل تحت الحكاية وانما
التفت الى التكلم للتنبيه على ظهور مافيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بأنه لايتأتى الامن قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لامره وتذعن لمشيئته الاشياء المختلفة كما فى قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وقوله تعالى ام من خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة خلا ان ماقبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فأخرجنا به هو المحكى مع كون ماقبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم (ازواجا) أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض (من نبات)
بيان أو صفة لازواجا أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى (شتى) أى متفرقة جمع شتيت ويجوز أن
يكون صفة لنبات لما انه فى الاصل

﴿ الكتاب ﴾

الكتاب ربى ولا ينسى ما فيه (وثالثها) قال الحسن لا يخطئ وقت البعث ولا ينساه (ورابعها) قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لا يغيب عن شئ ولا يغيب عنه شئ (وخامسها) قال ابن جرير لا يخطئ فى التدبير فيعتقد فى غير الصواب كونه صوابا واذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الاول (المسئلة الثالثة) انه لما سأله عن الاله وقال فمن ربكما ياموسى وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى ولما سأله عن شأن القرون الاولى وكان ذلك مما سبيله الاخبار ولم يأته فى ذلك خبر وكله الى عالم الغيوب واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الاولى وهى دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الانسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهى ثلاثة (اولها) قوله تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا وفيه ابحاث (البحث الاول) قرأ أهل الكوفة ههنا وفى الزخرف مهدا والباقون قرؤا مهادا فيهما قال أبو عبيدة الذى اختاره مهادا وهو اسم والمهد اسم الفعل وقال غيره المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش اجاب أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل وقال المفضل هما مصدران لمهد اذا وطأه فراشا يقال مهد مهدا ومهادا وفرش فرشا وفراشا (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف الذى جعل مرفوع لانه خبر مبتدا محذوف أولانه صفة لربى أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه واعلم انه يجب الجزم بكونه خبر المبتدا المحذوف اذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى على ماسيأتى بيانه ان شاء الله تعالى (البحث الثالث) المراد من كون الارض مهدا انه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء (وثانيها) قوله تعالى وسلك لكم فيها سبلا قال صاحب الكشاف سلك من قوله ما سلككم فى سقر كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين أى جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والاودية والبرارى (وثالثها) قوله وأنزل من السماء ماء والكلام فيه قدمر فى سورة البقرة أما قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فأخرجنا فيه وجوه (أحدها) أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربى الذى جعل لكم كذا وكذا فاخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى (وثانيها) ان عند قوله وأنزل من السماء ماء تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الاول بقوله فاخرجنا به ثم يدل على هذا الاحتمال قوله كلوا وارعوا أنعامكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للايذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لامره ومثله قوله تعالى وهو الذى أنزل من

مصدري يستوى فيه الواحد والجمع يعنى انها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الانعام جعل علفها مما فضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) حال من ضمير فأخرجنا على ارادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك (ان فى ذلك) اشارة الى ما ذكر من شئونه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى (لآيات) للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شئون الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام (لاولى النهى) جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الاباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها آيات

السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شئ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا
ألوانها أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات
بهجة واعلم ان قوله فاخرجنا اما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله
تعالى والاول باطل لان قوله بعد ذلك كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى
منها خلقناكم وفيها نعيدكم لا يليق بموسى عليه السلام وأيضا فقوله فاخرجنا به أزواجا
من نبات شتى لا يليق بموسى لان أكثر ما فى قدرة موسى عليه السلام صرف المياه الى سقى
الاراضى وأما اخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه
السلام فثبت ان هذا كلام الله تعالى ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله
فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى لان الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله
تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق الا أن يقال ان كلام موسى عليه
السلام تم عند قوله لا يضل ربى ولا ينسى ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله الذى جعل لكم
الارض مهدا ويكون التقدير هو الذى جعل لكم الارض مهدا فيكون الذى خبر مبتدا
محذوف ويكون الانتقال من الغيبة الى الخطاب التفاتا (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل
على أنه سبحانه انما يخرج النبات من الارض بواسطة انزال الماء فيكون للماء فيه اثر وهذا
بتقدير ثبوته لا يقدح فى شئ من أصول الاسلام لانه سبحانه وتعالى هو الذى أعطاه هذه
الخصواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه البتة
(المسئلة الثالثة) قوله تعالى أزواجا أى أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقرونة بعضها
مع بعض شتى صفة للازواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات
والنبات مصدر سمى به النابت كما يسمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعنى انها
شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله كلوا
وارعوا أنعامكم فهو حال من الضمير فى أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين
فى الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها وقد تضمن قوله كلوا سائر
وجوه المنافع فهو كقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وقوله ان الذين يأكلون اموال
اليتامى ظلما وقوله كلوا أمر اباحة ان فى ذلك أى فيما ذكرت من هذه النعم لآيات اى
لدلالات لذوى النهى أى العقول والنهية العقل قال أبو على الفارسى النهى يجوز أن
يكون مصدرا كالهدى ويجوز أن يكون جمعا أما قوله منها خلقناكم فاعلم أنه سبحانه لما
ذكر منافع الارض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل
الى منافع الآخرة فقال منها خلقناكم وفيه سؤالان (السؤال الاول) مامعنى قوله منها
خلقناكم مع انه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بين ذلك فى سائر الآيات والجواب من
وجهين (الاول) انه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ماقال كمثل آدم
خلقه من تراب لا جرم أطلق ذلك علينا (الثانى) ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم

بهم مع انها آيات للعالمين باعتبار انهم المنتفعون بها (منها خلقناكم) اى فى ضمن خلق أبيكم آدم عليه الصلاة
والسلام منها فان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام اذ لم تكن فطرته
البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الارض بوسايط وقيل ان الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة (وفيها نعيدكم) بالاماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (ومنها نخرجكم تارة اخرى) بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها وكون هذا الاخراج تارة اخرى باعتبار أن خلقهم من الارض اخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الاصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم اطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة

الطمث وهما يتولدان من الاغذية والغذاء اما حيواني أو نباتي والحيواني ينتهي الى
النبات والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لاينافي
كوننا مخلوقين من النطفة (والثالث) ذكرنا في قوله تعالى هو الذي يصوركم في الارحام خبر
ابن مسعود ان الله يأمر ملك الارحام أن يكتب الاجل والرزق والارض التي يدفن فيها وانه
يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم (السؤال الثاني) ظاهر
الآية يدل على أن الشئ قد يكون مخلوقا من الشئ وظاهر قول المتكلمين يأباه والجواب
ان كان المراد من خلق الشئ من الشئ ازالة صفة الشئ الاول عن الذات واحداث صفة
الشئ الثاني فيه فذلك جائز لأنه لامنافاة فيه أما قوله تعالى وفيها نعيدكم فلا شبهة في ان
المراد الاعادة الى القبور حتى تكون الارض مكانا وظرفا لكل من مات الامن رفعه الله
الى السماء ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد اليها أيضا بعد ذلك أما قوله تعالى ومنها نخرجكم تارة
أخرى ففيه وجوه (أحدها) وهو الاقرب ومنها نخرجكم يوم الحشر والبعث (وثانيها)
ومنها نخرجكم ترابا وطينا ثم نحييكم بعد الاخراج وهذا مذكور في بعض الاخبار
(وثالثها) المراد عذاب القبر عن البراء قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة
رجل من الانصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وانه ترد روحه في جسده
ويرد الى الارض وأنه تعالى يقول عند اعادتهم الى الارض اني وعدتهم اني منها خلقتهم وفيها
أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى واعلم ان الله تعالى عدد في هذه الآيات منافع الارض
وهي انه تعالى جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها
كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلف دوابهم وهي أصلهم
الذي منه يتفرعون ثم هي كفاتهم اذا ماتوا ومن ثم قال عليه السلام بروا بالارض فانها بكم
برة * قوله تعالى (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا
بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت
مكانا سوى) اعلم انه تعالى بين انه أرى فرعون الآيات كلها ثم انه لم يقبلها واختلفوا في
المراد بالآيات فقال بعضهم أراد كل الادلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة أما
التوحيد فما ذكر في هذه السورة من قوله ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله
الذي جعل لكم الارض مهدا الآية وما ذكر في سورة الشعراء قال فرعون ومارب العالمين
قال رب السموات والارض الآيات وأما النبوة فهي الآيات التسع التي خص الله بها
موسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم
ونتق الجبل وعلى هذا التقرير معنى أريناه عرفناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها ومنهم
من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهي هذه المعجزات وانما أضاف الآيات الى نفسه سبحانه
وتعالى مع ان المظهر لها موسى عليه السلام لانه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح
الى نفسه فقال فنفخنا فيها من روحنا مع ان النفخ كان من جبريل عليه السلام فان قيل

(ولقد أريناه) حكاية اجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون اثر حكاية ماذكره عليه الصلاة
والسلام بجلائل نعمائه الداعية له الى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية
بمضمونها واسناد الاراءة
الى نون العظمة نظرا
الى الحقيقة لا الى موسى
نظرا الى الظاهر لتهويل
أمر الآيات وتفخيم
شأنها واظهار كمال
شناعة اللعين وتماديه
في المكابرة والعناد أي
وبالله لقد بصرنا فرعون
أو عرفناه (آياتنا) حين
قال لموسى عليه الصلاة
والسلام ان كنت جئت
بآية فأت بها ان كنت
من الصادقين فألقى
عصاه فاذا هي ثعبان
مبين ونزع يده فاذا هي
بيضاء للناظرين وصيغة
الجمع مع كونهما اثنين
باعتبار ما في تضاعيفهما
من بدائع الامور التي
كل منها آية بينة
لقوم يعقلون حسبما بين
في تفسير قوله تعالى
اذهب أنت وأخوك
بآياتي وقد ظهر عند
فرعون أمور أخر كل
واحد منها داهية دهياء
فانه روى انه عليه الصلاة
والسلام لما ألقاها انقلبت
ثعبانا اشعر فاغرا فاه بين
لحييه ثمانون ذراعا وضع
لحيه الاسفل على الارض
والاعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات
منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذي أرسلك الا أخذته

فاخذه فعاد عصا وروى انها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدرميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بماشئت و يقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده ﴿ ٦٦ ﴾ من جيبه فاذاهى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قدغلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنهما لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى (كلها) كأنه قيل أريناه آيتينا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا الى بيان انه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما انها انما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ماغلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولاريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ماجعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وماظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا ان يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها ﴿ لهم ﴾

قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لان من جملة الآيات ما أظهرها على الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وان كان للعموم لكن قديستعمل فى الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه انه كذب وأبى قال القاضى الاباء الامتناع وانه لا يوصف به الامن يتمكن من الفعل والترك ولان الله تعالى ذمه بأنه كذب و بأنه أبى ولو لم يقدر على ماهو فيه لم يصح واعلم ان هذا السؤال مر فى سورة البقرة فى قوله الا ابليس أبى واستكبر والجواب مذكور هناك ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهى قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لانه ألقى فى مسامعهم مايصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا وذلك لان هذا مما يشق على الانسان فى النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل فى قوله ان اقتلوا أنفسكم او اخرجوا من دياركم ثم لما صاروا فى نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام وهى ان ماجئتنا به سحر لامعجز ولما علم ان المعجز انما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال فلنأتينك بسحر مثله أما قوله تعالى فاجعل بيننا و بينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت فاعلم ان الموعد يجوز أن يكون مصدرا و يجوز أن يكون اسما لمكان الوعد كقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين وأن يكون اسما لزمان الوعد كقوله ان موعدهم الصبح والذى فى هذه الآية بمعنى المصدر أى اجعل بيننا و بينك وعدا لانخلفه لان الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ومما يؤكد ذلك ان الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان و الزمان وانما نصب مكانا لانه هو المفعول الثانى للجعل و التقدير اجعل مكان موعد لانخلفه مكانا سوى اما قوله سوى فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر سوى بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى وقرئ أيضا منونا وغير منون وذكروا فى معناه وجوها (أحدها) قال أبو على مكانا تستوى مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفا بيننا (وثانيها) قال ابن زيد سوى أى مستويا لا يحجب العين مافيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الاول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود أنهم طلبوا موضعا مستويا لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل مايجرى (وثالثها) مكانا يستوى حالنا فى الرضاء به (ورابعها) قال الكلبى مكانا سوى هذا المكان الذى نحن فيه الآن ﴿ قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال

لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على
أن ماسيأتي من حمل ماظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه اباء

لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم واسروا النجوى) اعلم أن فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل أن قوله تعالى قال موعدكم أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام قال القاضى والاول أظهر لانه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام وعندى الاظهر انه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا (وثانيها) وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضى اطلاع الكل على ماسيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذى يعرف ان اليد له لا بالمبطل الذى يعرف أنه ليس معه الا التلبيس (وثالثها) ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون الى موسى وهرون لزم اما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على ان أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام الى فرعون وقومه استقام الكلام (المسئلة الثانية) يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج اذا رفع فعلى خبر المبتدأ والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله وأن يحشر الناس ضحى معناه موعدكم حشر الناس ضحى فموضع أن يكون رفعا ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل ألستم قلتم فى تفسير قوله اجعل بيننا وبينك موعدا ان التقدير اجعل مكان موعد لانخلفه مكانا سوى فهذا كيف يطابقه الجوب بذكر الزمان قلنا هو مطابق معنى وان لم يطابق لفظا لانهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة فى مكان معين مشهور باجتماع الناس فى ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان (المسئلة الثالثة) ذكر المفسرون فى يوم الزينة وجوها (احدها) انه يوم عيد لهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء وانما قال يحشر فانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم وقرئ وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يافرعون وأن يحشر اليوم ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة اما على العادة التى تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله موعدكم وجعل ضمير يحشر لفرعون وانما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤس الاشهاد فى المجمع العالم ليكثر المحدث بذلك الامر العجيب فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع اهل الوبر والمدر قال القاضى انه عين اليوم بقوله يوم الزينة ثم عين من اليوم وقتا معينا بقوله وأن يحشر الناس ضحى أما قوله فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى فاعلم ان التولى قد يكون اعراضا وقد يكون انصرافا والظاهر ههنا انه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذى تواعدوا للاجتماع قال مقاتل فتولى أى أعرض وثبت على اعراضه عن الحق ودخل

بيننا وينطق بأن المراد بها ماذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل مافصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فكذب) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ماشاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا (وأبى) الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيئا منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قال أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك ياموسى) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجئ اما على حقيقته او بمعنى الاقبال على الامر والتصدى له أى اجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما اظهرته من السحر فان ذلك

مما لايصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام

بابرازان مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بنى اسرائيل من ايديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة اموالهم
وأملاكهم بالكلية حتى لايتوجه الى اتباعه أحد ويبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ماظهره عليه
الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى انه يعارضه بمثل ماأتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فلنأتينك بسحر مثله) الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها واللام جواب قسم محذوف كأنه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أى وعدا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى (لانخلفه) فانه المناسب لاالمكان والزمان أى لانخلف ذلك الوعد (نحن ولاانت) وانما فوض اللعين امر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الامد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للايذان بمسارعته
الى عدم الاخلاف وأن عدم اخلافه لايوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب

تحت قوله فجمع كيده السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر
ماأوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس
كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر
من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر اليهم وكان طول القبة سبعين ذراعا ثم بين
تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شئ الوعيد والتحذير بماقالوه وأقدموا عليه
فقال ويلكم لاتفتروا على الله كذبا بأن تزعموا بأن الذى جئت به ليس بحق وأنه سحر
فيمكنكم معارضتى قال الزجاج يجوز فى انتصاب ويلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلا
ان افتروا على الله كذبا ويجوز على النداء كقوله ياويلتا أألد وأنا عجوز ياويلنا من بعثنا
من مرقدنا وقوله فيسحتكم بعذاب أى يعذبكم عذابا مهلكا مستأصلا وقرأ حمزة وعاصم
والكسائى برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل
نجد وبنى تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال من افترى على الله كذبا حصل له
أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال فى الدنيا أو العذاب الشديد فى الآخرة وهو المراد
من قوله فيسحتكم بعذاب (والثانى) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله وقد
خاب من افترى ثم بين سبحانه وتعالى انه لماقال موسى عليه السلام ذلك اعرضوا عن قوله
وتنازعوا أمرهم بينهم وفى تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا واستقروا على
شئ واحد (والثانى) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل فى التنازع فرعون
وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس فى الظاهر مايدل على
الترجيح وذكروا فى قوله وأسروا النجوى وجوها (أحدها) انهم أسروها من فرعون
وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان نجواهم قالوا ان
غلبنا موسى اتبعناه (والثانى) قال قتادة ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله
امر (الثالث) قال وهب لما قال ويلكم الآية قالوا ماهذا بقول ساحر (القول الثانى)
انهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم ان هذان لساحران يريدان
أن يخرجاكم من أرضكم وهو قول السدى (الوجه الثالث) انهم أسروا النجوى من
موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضا وكان نجواهم انهم كيف يجب تدبير أمر الحبال
والعصى وعلى أى وجه يجب اظهارها فيكون أوقع فى القلوب وأظهر للعيوب وهو قول
الضحاك * قوله تعالى (قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم
بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من
استعلى) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المشهورة ان هذان لساحران ومنهم
من ترك هذه القراءة وذكروا وجوها أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمران هذين
لساحران وقالوا هى قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضى الله
عنهم واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بماروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله

عنها انها سئلت عن قوله ان هذان لساحران وعن قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى فى المائدة وعن قوله لكن الراسخون فى العلم منهم الى قوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة فقالت يا ابن أخى هذا خطأ من الكاتب وروى عن عثمان انه نظر فى المصحف فقال أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بالسنتها وعن أبى عمرو انه قال انى لاستحى ان أقرأ ان هذان لساحران (وثانيها) قرأ ابن كثير ان هذان بتخفيف ان وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص عن عاصم ان هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود وأسروا النجوى أن هذان ساحران بفتح الالف وجزم نونه ساحران بغير لام (وخامسها) عن الاخفش ان هذان لساحران خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما (وسادسها) روى عن أبى بن كعب ما هذان الا ساحران وروى عنه أيضا ان هذان الا ساحران وعن الخليل مثل ذلك وعن أبى أيضا ان ذان الا ساحران فهذه هى القرآت الشاذة المذكورة فى هذه الآية واعلم ان المحققين قالوا هذه القرآت لا يجوز تصحيحها لانها منقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر اذ لو جوزنا اثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن لانه لما جاز فى هذه القرآت انها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك فثبت أن تجويز كون هذه القرآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير الى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو اسوأ مما تقدم من وجوه (أحدها) انه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى الى القدح فى التواتر والى القدح فى كل القرآن وانه باطل واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) ان المسلمين أجمعوا على ان ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما ان فيه لحنا وغلطا (وثالثها) قال ابن الانبارى ان الصحابة هم الأئمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم فى الاتباع حتى قال بعضهم اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم فثبت انه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها (الوجه الاول) وهو الاقوى ان هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هى لغة بلحارث بن كعب والزجاج نسبها الى كنانة وقطرب نسبها الى بلحارث ابن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ونسبها ابن جنى الى بعض بنى ربيعة أيضا وأنشد الفراء على هذه اللغة

فاطرق اطراق الشجاع ولو يرى * مساغا لناباه الشجاع لصمما

(مكانا سوى) بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف أو بانه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قال موعدكم يوم ٦٩ الزينة) من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الاول أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرئ يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرئ بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وأن يحشر الناس ضحى) عطف على يوم أو الزينة وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم (فتولى فرعون) أى انصرف عن المجلس (فجمع كيده) أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم (ثم أتى) أى الموعد ومعه

وأنشد غيره   تزود منا بين أذناه ضربة ✻ دعته الى هابى التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بنى أسد انه قال هذا خط يدا أخى اعرفه وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بنى ضبة جاهلى

أعرف منه الجيد والعينانا ✻ ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء وقال آخر

طاروا علاهن فطر علاها ✻ واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر   كأن صريف ناباه اذا ما ✻ أمرهما صرير الاخطبان

قال بعضهم الاخطبان ذكر الصردان فصيرهما واحدا فبقى الاستدلال بقوله صريف ناباه قال وانشدنى يونس لبعض بنى الحرث

كأن بمينا سحبل ومصيفه ✻ مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضا ان أباها وأبا أباها ✻ قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى روينا عن قطرب

هنـاك أن تبكى بشعشعان ✻ رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وان كان قليلا أقيس لان ما قبل حرف التثنية مفتوح فينبغى أن يكون ما بعده ألفا ولو كان ما بعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفا لانفتاح ماقبلها وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فرارا الى الالف التى هى أخف حروف المد هذا أقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن أن يقال أيضا الالف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لا يجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لان مابالذات لايزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى أن لا يجوز أن يقال ان هذين فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال ان هذان (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال ان ههنا بمعنى نعم قال الشاعر

ويقلن شيب قد علا ✻ ك وقد كبرت فقلت انه

أى فقلت نعم فالهاء فى انه هاء السكت كما فى قوله تعالى هلك عنى سلطانيه وقال أبو ذؤيب

شاب المفارق ان ان من البلى ✻ شيب القذال مع العذار الواصل

أى نعم ان من البلى فصار كأنه قال نعم هذان لساحران واعترضوا عليه فقالوا اللام لا تدخل فى الخبر على الاستحسان الا اذا كانت ان داخلة فى المبتدا فاما اذا لم تدخل ان على المبتدا فمحل اللام المبتدا اذ يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الاول) لانسلم ان اللام لايحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله

أم الحليس لعجوز شهر به ✻ ترضى من اللحم بعظم الرقبه

وقال آخر خالى لانت ومن جرير خاله ✻ ينل العلاء ويكرم الاخوالا

وأنشد قطرب ألم تكن حلفت بالله العلى ✻ ان مطاياك لمن خير المطى

ماجمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء الى أنه لم يسارع اليه بل اتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى (قال لهم موسى) الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الا ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام وأما اتيانه أولا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فاذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بما جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا) بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون (فيسحتكم) أى يستأصلكم بسببه (بعذاب) هائل لايقادر قدره وقرئ يسحتكم من الثلاثى على لغة أهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد (وقد خاب من افترى) أى على الله كائنا من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا أوليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها (فتنازعوا) أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا (امرهم) الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا (بينهم) فى كيفية المعارضة

وان رويت ان بالكسر لم يبق الاستدلال الا ان قطربا قال سمعناه مفتوح الهمزة وأيضا فقد أدخلت اللام في خبر امسى قال ابن جني أنشدنا أبو علي

مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم * فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول أراك لمسالمي واني رأيته لشيخا وزيد والله لواثق بك وقال كثير

ومازلت من ليلى لدن أن عرفتها * لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر * ولكنني من حبها لعميد * وقال المعترض هذه الاشعار من الشواذ وانما جاءت كذا لضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى من الضرورة وانما تقرر هذا الكلام اذا بينا ان المبتدأ اذا لم يدخل عليه ان وجب ادخال اللام عليه لا على الخبر وتحقيقه ان اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدا بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدا وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدا لان العلة الموجبة لحكم في محل لابد وأن تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما اذا دخلت ان على المبتدا فان ههنا يجب ادخال اللام على الخبر مع ان ماذكرتموه حاصل فيه لانا نقول ذلك لاجل الضرورة وذلك لان كلمة ان للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا ان لزيدا قائم لكنا قد أدخلنا حرف التاكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر ادخالها على المبتدا لاجرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة وأما اذا لم يدخل حرف ان على المبتدا كانت هذه الضرورة زائلة فوجب ادخال اللام على المبتدا لا يقال اذا جاز ادخال حرف النفي على حرف النفي في قوله

ما ان رأيت ولا سمعت به * كاليوم طالبي أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفي فلم لا يجوز ادخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الاثبات لانا نقول الفرق بين البابين ان قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فاذا قلت ان زيدا قائم فكلمة ان تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كلمة ان صار عبثا أما لو قلت رأيت فلانا فهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفي أفاد حرف النفي معنى النفي ولا يفيد التاكيد لانه مستقل بافادة الاصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت اليه حرف نفي آخر صار الحرف الثاني مؤكدا للاول فلا يكون عبثا فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندي ضعيف لان الكل اتفقوا على انه اذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ولان هذه العلل في نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر (الوجه الثاني) في الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر الا اذا دخلت كلمة ان على المبتدا كما ذكره الزجاج فقال ان وقعت موقع نعم واللام في موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدا لا على الخبر قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى اسمعيل ابن اسحق فارتضياه وذكر أنه أجود ما سمعناه في هذا قال ابن جني هذا القول غير صحيح

وتجاذبوا أهداب القول في ذلك (وأسروا النجوى) أي من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى (قالوا) أي بطريق التناجي والاسرار (ان هذان لساحران) الخ فانه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وان مخففة من ان قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هي نافية واللام بمعنى الا أي ما هذان الا ساحران وقرئ ان بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث ابن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدا وخبر وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدا وقيل أصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهي قراءة واضحة (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) أي ارض مصر بالاستيلاء عليها (بسحرهما) الذي أظهراه من قبل (ويذهبا بطريقتكم المثلى) أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلها باظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل

أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى ﴿٧٢﴾ عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بني اسرائيل

وكانوا أرباب علم فيما بينهم
ويأباه أن اخراجهم
من أرضهم انما يكون
بالاستيلاء عليها تمكنا
وتصرفا فكيف يتصور
حينئذ نقل بني اسرائيل
الى الشأم وحمل الاخراج
على اخراج بني اسرائيل
منها مع بقاء قوم فرعون
على حالهم مما يجب تنزيه
التنزيل عن أمثاله
على أن هذه المقالة منهم
للاغراء بالمبالغة في المغالبة
والاهتمام بالمناصبة فلا بد
أن يكون الانذار والتحذير
باشد المكاره وأشقها عليهم
ولا ريب في أن اخراج
بني اسرائيل من بينهم
والذهاب بهم الى الشأم
وهم آمنون في ديارهم ليس
فيه كثير محذور وقيل
الطريقة اسم لوجوه القوم
وأشرافهم لما أنهم قدوة
لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص
الاذهاب بهم مما لا مزية
فيه وقوله تعالى (فاجمعوا
كيدكم) تصريح بالمطلوب
اثر تمهيد المقدمات والفاء
فصيحة أي اذا كان الامر
كما ذكر من كونهما ساحرين
يريدان بكم ماذكر
من الاخراج والاذهاب

فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرئ ﴿ لما
فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده أي فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغي (ثم ائتوا صفا)

لوجوه (الوجه الاول) ان الاصل ان المبتدا انما يجوز حذفه لو كان أمرا معلوما جليا ولولا
ذلك لكان في حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب واذا كان معروفا
فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لان التأكيد انما يحتاج اليه حيث لم يكن العلم به
حاصلا (الوجه الثاني) ان الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الاطناب فالجمع
بينهما غير جائز ولان ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن في العقول من العكس (الوجه
الثالث) امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدا في
نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توكيدا للهاء
المؤكدة المقدرة في ضربت أي ضربته لان الحذف لا يكون الا بعد التحقيق والعلم به
واذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) ان جميع
النحويين حملوا قول الشاعر أم الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر أدخل اللام على
الخبر ضرورة ولو كان ماذهب اليه الزجاج جائزا لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام
عليه على الاضطرار اذا وجدوا له وجها ظاهرا ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جني
أنه انما حسن حذف المبتدا لان في اللفظ ما يدل عليه وهو قوله هذان أما لو حذف
التأكيد فليس في اللفظ ما يدل عليه فلا جرم كان حذف المبتدا أولى من حذف
التأكيد وأما امتناعهم من تأكيد الضمير في قولهم زيد ضربت نفسه فذلك انما كان
لان اسناد الفعل الى المظهر أولى من اسناده الى المضمر فاذا قال زيد ضربت نفسه كان
قوله نفسه مفعولا فلا يمكن جعله تاكيدا للضمير فتأكيد المحذوف انما امتنع ههنا لهذه
العلة لا لان تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع وأما قوله النحويون حملوا قول الشاعر أم
الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج
لما عدل عنه النحويون فهذا اعتراض في نهاية السقوط لان ذهول المتقدمين عن هذا
الوجه لا يقتضي كونه باطلا فما أكثر ما ذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام
الكلام في شرح هذا (الوجه الثالث) في الجواب ان كلمة ان ضعيفة في العمل لانها تعمل
بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة في العمل واذا ضعفت جاز بقاء المبتدا على
اعرابه الاصلي وهو الرفع (المقدمة الاولى) انها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة في
اللفظ والمعنى أما اللفظ فلانها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الاسماء
كالافعال وأما المعنى فلانها تفيد حصول معنى في الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما
أنك اذا قلت قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى في الاسم (المقدمة الثانية) انها لما
أشبهت الافعال وجب ان تشبهها في العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران (المقدمة
الثالثة) انها لم تنصب الاسم وترفع الخبر فتقريره ان يقال انها لما صارت عاملة فاما ان ترفع
المبتدا والخبر معا أو تنصبهما معا أو ترفع المبتدا وتنصب الخبر أو بالعكس والاول باطل لان
المبتدأ والخبر كانا قبل دخول ان عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما

أى مصطفين أمروا بذلك لانه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه ﴿ ٧٣ ﴾ اقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من من الاسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله اعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطار وتنازعوا امرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الاعياد والصلوات ووجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما ارادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى (وقد أفلح اليوم من استعلى) اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لما قبله من الامرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ماوعدهم فرعون من الاجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال

لما ظهر له اثر البتة ولانها أعطيت عمل الفعل والفعل لا يرفع الاسمين فلا معنى للاشتراك (والقسم الثانى) أيضا باطل لان هذا أيضا مخالف لعمل الفعل لان الفعل لا ينصب شيئا مع خلوه عما يرفعه (والقسم الثالث) أيضا باطل لانه يؤدى الى التسوية بين الاصل والفرع فان الفعل يكون عمله فى الفاعل أولا بالرفع وفى المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الاصل والفرع ولما بطلت الاقسام الثلاثة تعين القسم الرابع وهو انها تنصب الاسم وترفع الخبر وهذا مما ينبه على ان هذه الحروف دخيلة فى العمل لا أصلية لان تقديم المنصوب على المرفوع فى باب العمل عدول عن الاصل فذلك يدل على ان العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الاصالة بل بطريق عارض (المقدمة الرابعة) لما ثبت ان تأثيرها فى نصب الاسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضا وذلك لان كون الاسم مبتدأ يقتضى الرفع ودخول ان على المبتدا لا يزيل عنه وصف كونه مبتدأ لانه يفيد تأكيدا ما كان لا زوال ما كان اذا ثبت هذا فنقول وصف كونه مبتدأ يقتضى الرفع وحرف ان يقتضى النصب ولكن المقتضى الاول أولى بالاقتضاء من وجهين (أحدهما) ان وصف كونه مبتدأ صفة أصلية للمبتدا ودخول ان عليه صفة عرضية والاصل راجح على العارض (والثانى) ان اقتضاء وصف المبتدا للرفع أصلى واقتضاء حرف ان للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الاول أولى فثبت بمجموع ماقررنا ان الرفع أولى من النصب فان لم تحصل الاولوية فلا اقل من أصل الجواز ولهذا السبب اذا جئت بخبران ثم عطفت على الاسم اسما آخر جاز فيه الرفع والنصب معا (الوجه الرابع) فى الجواب قال الفراء هذا اصله ذا زيدت الهاء لان ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت الفا للتثنية فصارت هذاان فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج الى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الاصل لان أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص فحذف ألف التثنية لان النون يدل عليه فلا جرم لم تعمل ان لان عملها فى ألف التثنية وقال آخرون الالف الباقى اما ألف الاصل أو ألف التثنية فان كان الباقى الف الاصل لم يجز حذفها لان العامل الخارجى لا يتصرف فى ذات الكلمة وان كان الباقى ألف التثنية فلا شك انهم أنابوها ألف مناب الاصل وعوض الاصل أصل لا محالة فهذا الالف أصل فلا يجوز حذفه ويرجع حاصل هذا الى الجواب الاول (الوجه الخامس) فى الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين ان الهاء ههنا مضمرة والتقدير انه هذان لساحران وهذه الهاء كناية عن الامر والشان فهذا ما قيل فى هذا الموضع فأما من خفف فقرأ ان هذان لساحران فهو حسن فان ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها فى الخبر لازمة واجبة وان كانت فى ان الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين ان المؤكدة وان النافية قال الشاعر

وان مالك للمرتجى ان تضعضعت * رحا الحرب أو دارت على خطوب

نعم وانكم لمن المقربين ﴿ ١٠ ﴾ س و بمن غلب انفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون او من غلب منهم حثا لهم على بذل

المجهود في المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقدقيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ماهذا بقول ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحتمل قولهم ان هذان لساحران الخ على انهم اختلفوا فيما بينهم على الاقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا الا المناصبة للمعارضة وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على انهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم على الاختلاف وامروهم بالاجماع والازماع واظهار الجلادة بالاتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم (قالوا) استئناف مبني على سؤال ناشئ من حكاية ما جرى بين السحرة من المقاولة كانه قيل فاذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا فقيل قالوا (ياموسى) وانما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا بظهور أمرهما واغنائهما عن البيان (اما أن تلقي) أي ماتلقيه أولا على أن المفعول محذوف لظهوره أوتفعل الالقاء أولا على أن الفعل منزل منزلة اللازم (واما أن نكون

وقال آخر

ان القوم والحي الذي أنا منهم * لاهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ثم من العرب من يعمل ان ناقصة كما يعملها تامة اعتبارا بكان فانها تعمل وان نقصت في قولك لم يكن لبقاء معنى التأكيد وان زال الشبه اللفظي بالفعل لان العبرة للمعنى وهذه اللغة تدل على ان العبرة في باب الاعمال الشبه المعنوي بالفعل وهو اثبات التوكيد دون الشبه اللفظي كما ان التعويل في باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضا وأما اللغة الظاهرة وهي ترك اعمال ان الخفيفة دالة على ان الشبه اللفظي في ان الثقيلة أحد جزأي العلة في حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف الكون فانه عامل بمعناه لكونه فعلا محضا ولاعبرة للفظه (المسئلة الثانية) انه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه (فأحدها) قولهم هذان لساحران وهذا طعن منهم في معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة في التنفير عنه لما ان كل طبع سليم يقتضي النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ومن حيث ان الانسان يعلم ان السحر لابقاء له فاذا اعتقدوا فيه السحر قالوا كيف نتبعه فانه لابقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه (وثانيها) قوله يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهذا في نهاية التنفير لان المفارقة عن المنشا والمولد شديدة على القلوب وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى وكان السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها (وثالثها) قوله ويذهبا بطريقتكم المثلى وهذا أيضا له تأثير شديد في القلب فان العدو اذا جاء واستولى على جميع المناصب والاشياء التي يرغب فيها فذلك يكون في نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة في التنفير عن موسى والترغيب في دفعه وابطال امره وههنا بحثان (البحث الاول) قال الفراء الطريقة الرجال الاشراف الذين هم قدوة لغيرهم يقال هم طريقة قومهم ويقال للواحد أيضا هو طريقة قومه وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف أي ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى وعلى التقديرين فالمراد انهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهرون عليهما السلام يريدان ان يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه السلام أرسل معنا بني اسرائيل وانما سموا بني اسرائيل بذلك لانهم كانوا أكثر القوم يومئذ عددا وأموالا ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالذين سموا دينهم بالطريقة المثلى وكل حزب بما لديهم فرحون ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة (البحث الثاني) المثلى مؤنثة لتأنيث الطريقة واختلفوا في انه لم سمى الافضل بالامثل فقال بعضهم الامثل الاشبه بالحق وقيل الامثل الاوضح والاظهر ثم انه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم في التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب في ابطال أمره حكى عنهم انهم قالوا فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا قرأ أبو عمرو بوصل الالف

﴿وفتح﴾

وفتح الميم من أجمعوا يعنى لاتدعوا شيئا من كيدكم الا جئتم به دليله قوله فجمع كيده وقرأ الباقون بقطع الالف وكسر الميم وله وجهان (أحدهما) قال الفراء الاجماع الاحكام والعزيمة على الشئ يقال أجمعت على الخروج مثل أزمعت (والثانى) بمعنى الجمع وقد مضى الكلام فى هذا عند قوله فأجمعوا أمركم وشركاءكم قال الزجاج ليكن عزمكم كلكم كاليد مجمعا عليه لاتختلفوا ثم ائتوا صفا ذكر أبو عبيدة والزجاج وجهين (احدهما) ان الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم والمعنى ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علما للمصلى بعينه فأمروا بان يأتوه (والثانى) أن يكون الصف مصدرا والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكى يكون أنظم لامركم وأشد لهيبتكم وهذا قول عامة المفسرين وقوله وقد أفلح اليوم من استعلى اعتراض يعنى وقد فاز من غلب فكانوا يغرون بذلك أنفسهم فيما اجتمعوا عليه من اظهار ما يظهرونه من السحر * قوله تعالى (قالوا ياموسى اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف انك أنت الاعلى وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى) اعلم انه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم ايضا قوله ثم ائتوا صفا صار ذلك مغنيا عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا اما أن تلقى لدلالة ما تقدم عليه وقوله اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى معناه اما أن تلقى مامعك قبلنا واما ان نلقى مامعنا قبلك وهذا التخيير مع تقديمه فى الذكر حسن أدب منهم وتواضع له فلاجرم رزقهم الله تعالى الايمان ببركته ثم ان موسى عليه السلام قابل أدبهم بادب فقال بل ألقوا أما قوله بل ألقوا ففيه سؤالان (السؤال الاول) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر وكفر لانهم اذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفرا والجواب من وجوه (أحدها) لانسلم ان نفس الالقاء كفر ومعصية لانهم اذا ألقوا وكان غرضهم ان يظهر الفرق بين ذلك الالقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الالقاء ايمانا وانما الكفر هو القصد الى تكذيب موسى وهو عليه السلام انما أمر بالالقاء لا بالقصد الى التكذيب فزال السؤال (وثانيها) ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا اما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين أى ان كنتم قادرين (وثالثها) انه لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار ذلك جائزا وهذا كالمحق اذا علم ان فى قلب واحد شبهة وانه لولم يطالبه بذكرها وتقريرها باقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة فى قلبه ويخرج بسببها عن الدين فان للمحق ان يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك ان يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه فطالبته بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا (ورابعها) أن لايكون ذلك أمرا بل يكون معناه انكم ان أردتم

أول من ألقى) ما يلقيه أو أول من يفعل الالقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بذلك مراعاة للادب لمارأوا منه عليه الصلاة والسلام مارأوا من مخايل الخير ورزانة الرأى واظهار اللجلادة باراءة انه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير وأن مع مافى حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدا محذوف أى اختر القاءك أولا أو القاءنا أو الامر اما القاؤك أو القاؤنا (قال) استئناف كما سلف ناشئ من حكاية تخيير السحرة اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال (بل ألقوا) أنتم أولا مقابلة للادب بأحسن من ادبهم حيث بت القول بالقائهم أولا واظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما اوهموه من الميل الى البدء وليبرزوا مامعهم ويستفرغوا أقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ما سيظهر بيده سيلقف ما يصنعون من مكايد السحر (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم الى الالقاء كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فالقوا فاذا حبالهم وهى للمفاجأة والتحقيق انها أيضا ظرفية تستدعى

فعله فلا مانع منه حسما لكي ينكشف الحق (وخامسها) ان موسى عليه السلام لاشك انه كان كارها لذلك ولا شك انه نهاهم عن ذلك بقوله ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب واذا كان الامر كذلك استحال أن يكون قوله أمرا لهم بذلك لان الجمع بين كونه ناهيا وآمرا بالفعل الواحد محال فعلمنا ان قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال (السؤال الثانى) لم قدمهم فى الالقاء على نفسه مع ان تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز فكذا تقديم ايراد الشبهة على ايراد الحجة وجب أن لايجوز لاحتمال انه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ فى الكفر والضلال وليس لاحد أن يقول ان ذلك كان بسبب انهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بان قدمهم على نفسه لان أمثال ذلك انما يحسن فيما يرجع الى حظ النفس فأما ما يرجع الى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب انه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة الى اظهارها مرة أخرى والقوم انما جاؤا لمعارضته فقال عليه السلام لو انى بدأت باظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب فى اقدامهم على اظهار السحر وقصد ابطال المعجزة وذلك غير جائز ولكنى أفوض الامر اليهم حتى انهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذى يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببا لازالة الشبهة وأما على التقدير الاول فانه يكون سببا لوقوع الشبهة فيكان ذلك أولى اما قوله فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما ألقوا حبالهم وعصيهم ميلا من هذا الجانب وميلا من هذا الجانب فخيل الى موسى عليه السلام ان الارض كلها حيات وانها تسعى فخاف فلما قيل له ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ألقى موسى عصاه فاذا هى أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادى ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا فى الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فاذا هى عصى كما كانت ونظرت السحرة فاذا هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئا الا أكلته فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا أين حبالنا وعصينا لو لم تكن سحرا لبقيت فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون (المسئلة الثانية) اختلفوا فى عدد السحرة قال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال وهب كانوا خمسة عشر ألفا وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان منهم من القبط وسبعون من بنى اسرائيل أكرههم فرعون على ذلك واعلم ان الاختلاف والتفاوت واقع فى عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شئ منه والاقوال اذا تعارضت تساقطت

متعلقا بنصبها وجملة تضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل اليه سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك انهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه انها تتحرك وقرئ تخيل بالتاء على اسناده الى ضمير الحبال والعصى وابدال انها تسعى منه بدل اشتمال وقرئ يخيل باسناده اليه تعالى وقرئ تخيل بحذف احدى التائين من تتخيل (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى أضمر فيها بعض خوف من مفاجاته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل (قلنا لاتخف) أى ما توهمت (انك أنت الاعلى) تعليل لما يوجبه النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبئ عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل (وألق ما فى يمينك) أى عصاك كما وقع فى سورة الاعراف وانما أوثر الابهام تهويلا لامرها وتفخيما لشانها وايذانا بانها

تساقطت (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يقال في اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق فيها انها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها خصت في بعض المواضع بان تكون ناصبا فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى فاذا حبالهم وعصيهم ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعي اه (المسئلة الرابعة) قرئ عصيهم بالضم وهو الاصل والكسر اتباع نحو دلي ودلي وقسي وقسي وقرئ تخيل بالتاء المنقوطة من فوق باسناد الفعل الى الحبال والعصي وقرئ بالضم بالياء المنقطة من تحت باسناد الفعل الى الكيد والسحر وقال الفراء أي يخيل اليه سعيها (المسئلة الخامسة) الهاء في عليه يخيل اليه كناية عن موسى عليه السلام والمراد انهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي صار يخيل الى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعي ما يكون حيا من الحيات لا أنها كانت حية في الحقيقة و يقال انهم حشوها بما اذا وقعت الشمس عليه يضطرب و يتحرك ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن انها تسعى فأما ماروى عن وهب انهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس و بقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فهذا غير جائز لان ذلك الوقت وقت اظهار المعجزة والادلة وازالة الشبهة فلو صار بحيث لا يميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من اظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود فاذن المراد انه شاهد شيئا لولا علمه بانه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها انها تسعى أما قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة موسى فالايجاس استشعار الخوف أي وجد في نفسه خوفا فان قيل انه لا مزيد في ازالة الخوف على ما فعله الله تعالى في حق موسى عليه السلام فانه كلمه أولا وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ثم انه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كاعظم ثعبان ثم انه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما اعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله انني معكما أسمع وارى فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف في قلبه والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان ذلك الخوف انما كان لما طبع الآدمي عليه من ضعف القلب وان كان قد علم موسى عليه السلام انهم لا يصلون اليه وان الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) انه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا انهم قد ساووا موسى عليه السلام و يشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله لا تخف انك أنت الاعلى وهذا قول مقاتل (وثالثها) انه خاف حيث بدؤا وتأخر القاؤه ان ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مأمورا بان لا يفعل شيئا الا بالوحي فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف ان لا ينزل عليه الوحي في ذلك الوقت فيبقى في الخجالة (وخامسها) لعله عليه السلام خاف من انه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد اقواما

ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر افراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة

عند حكاية الامر في موضع آخر لا يستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المحكي هذا وحمل الابهام على التحقير بان يراد لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذي في يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهي على هيئتها الاصلية وقد كان منها ما كان وقوله تعالى (تلقف ما صنعوا) بالجزم جوابا للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا أي تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصي التي خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير وقرئ تلقف بتشديد القاف واسقاط احدى التائين من تتلقف وقرئ بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الامرية معطوفة على النهي متممة بما في حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فان ابتلاع عصاه لاباطيلهم التي منها أوجس في نفسه ما أوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح في أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام والا لعلل بما يزيله من الوعد

جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما أضيف اليه للتحقير وقرئ بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرئ كيد سحر على أن الاضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس (حيث أتى) أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع ما فى ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا) كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينساق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالامر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف فألقى السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وانما هى آية من آيات الله عزوجل روى أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فاين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر العالم و بظهور ذلك على يد موسى عليه

آخرين فيأتيه بهم فيحتاج مرة أخرى الى ابطال سحرهم وهكذا من غير أن يظهر له مقطع وحينئذ لايتم الامر ولايحصل المقصود ثم انه تعالى أزال ذلك الخوف بالاجمال أولا و بالتفصيل ثانيا أما الاجمال فقوله تعالى قلنا لاتخف انك أنت الاعلى ودلالته على ان خوفه كان لامر يرجع الى ان أمره لايظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله انك انت الاعلى وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلمة التأكيد وهى ان (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل فقوله وألق مافى يمينك وفيه سؤال وهو انه لم يقل وألق عصاك والجواب جاز أن يكون تصغيرا لها أى لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذى بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجاز أن يكون تعظيما لها أى لايحتفل بهذه الاجرام الكثيرة فان فى يمينك شيئا أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شئ عندها فألقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها أما قوله تلقف أى فانك اذا ألقيتها فانها تلقف ماصنعوا وقراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أى فالقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أى ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف أى تأخذ بفيها ابتلاعا بسرعة واللقف والتلقف جميعا يرجعان الى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلفوا وزوروا والعرب تقول فى الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله تلقف انه اذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت ماصنعوا وفى قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ماصنعوه وفى التلقف دلالة على ان جميع ماألقوه تلقفته وذلك لايكون الا مع عظم جسدها وشدة قوتها وقد حكى عن السحرة انهم عند التلقف أيقنوا بان ماجاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه (أحدها) ظهور حركة العصا على وجه لايكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمه على وجه لايتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الاعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها ولايتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ماألقوه على كثرته وذلك لايتم بالحيلة (وخامسها) عوده خشبة صغيرة كما كانت وشئ من ذلك لايتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى ان ماصنعوا كيد ساحر والمعنى ان الذى معك ياموسى معجزة الهية والذى معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى ان ماموصولة ومن نصب فعلى انها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذى سحر أوذوى سحر أوهم لتوغلهم فى سحرهم كانهم السحر بعينه و بذاته أو بين الكيد لانه يكون سحرا وغير سحر كما بين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو وبقى سؤالات (السؤال الاول) لم وحد الساحر ولم يجمع الجواب لان القصد فى هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع تخيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى أى هذا الجنس (السؤال الثانى) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا ﴿ الجواب

الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم ألقاهم ماشاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بماهو غاية الخضوع
قيل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لماخروا سجدا أراهم

الجواب كأنه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر
لافائدة فيه ولاشك ان هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ (السؤال الثالث) قوله ولايفلح
الساحر حيث أتى يدل على ان الساحر لايحصل له مقصوده بالسحر خيرا كان أو شرا وذلك
يقتضى نفى السحر بالكلية الجواب الكلام فى السحر وحقيقته قد تقدم فى سورة البقرة
فلا وجه للاعادة والله أعلم * قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون
وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم
وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) اعلم ان
فى قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على انه ألقى مافى يمينه وصارحية وتلقف ماصنعوا وظهر
الامر فخروا عند ذلك سجدا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا
مافعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال
رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لوغلبنا فلو كان هذا سحرا
فأين ما ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على
يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى فلاجرم تابوا وآمنوا
وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود أما قوله تعالى فألقى السحرة سجدا فليس
المراد منه انهم أجبروا على السجود والا لما كانوا محمودين بل التأويل فيه ماقال
الاخفش وهو أنهم من سرعة ماسجدوا كأنهم ألقوا وقال صاحب الكشاف ما أعجب
أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر
والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وروى انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار
ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون
اليها فى الجنة قال القاضى هذا بعيد لانه تعالى لو أراهم عيانا لصاروا ملجئين وذلك لايليق
به قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وجوابه لما جاز لابراهيم عليه السلام مع قطعه
بكونه مغفورا له أن يقول والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى فلم لايجوز مثله فى حق السحرة
واعلم ان هذه القصة تنبه على اسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الالهى وقدره
فى جملة المحدثات وذلك لان ظهور تلك الادلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه
الاستدلال فيها جليا ظاهرا وهو انه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضرورى
وذلك المؤثر اما الخلق واما غيرهم والاول بديهى البطلان لان كل عاقل يعلم بالضرورة من
نفسه انه لايقدر على ايجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم تصغيرها مرة أخرى
كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل أفادت القطع بانه لابد من
مدبر لهذا العالم فماذا يقول ألا ترى ان أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا
فى نهاية البعد لانا بينا ان كل واحد منها بحيث لايمكن ارتياب العاقل فيه واذا عرفوا صحتها
لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لانفسهم وأحبوا تحصيل الجهل

الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لان كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم (قالوا) استئناف كما مر غير مرة (آمنا برب هرون وموسى) تأخير موسى عند حكايته كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضا هكذا اما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام واما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الامر أن مرادهم فرعون (قال) أى فرعون للسحرة (آمنتم له) أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرئ
على الاستفهام التوبيخى (قبل أن آذن لكم) أى من غير أن آذن لكم فى الايمان له كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد
كلمات ربى لأن اذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع (انه) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام (لكبيركم) أى فى فنكم وأعلمكم
به وأستاذكم (الذى علمكم السحر) فتواطأتم على مافعلتم أو فعلكم شيئا دون شىء فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين

[illegible] عليه الصلاة
والسلام فلاعبرة بما أظهره كما لاعبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الايمان بالله تعالى
ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال (فلاقطعن) أى فوالله ✻ ٨٠ ✻ لاقطعن (أيديكم وأرجلكم من خلاف)
أى اليد اليمنى والرجل
اليسرى ومن ابتدائية
كأن القطع ابتدأ
من مخالفة العضو العضو
فان المبتدئ من المعروض
مبتدئ من العارض
أيضا وهى مع مجرورها
فى حيز النصب على
الحالية أى لاقطعنها
مختلفات وتعيين تلك
الحال للايذان بتحقيق
الامر وايقاعه لامحالة
بتعيين كيفيته المعهودة
فى باب السياسة لالانها
أفظع من غيرها
(ولاصلبنكم فى جذوع
النخل) أى عليها
وايثار كلمة فى للدلالة
على ابقائهم عليها
زمانا مديدا تشبيها
لاستقرارهم عليها
باستقرار المظروف
فى الظرف المشتمل
عليه قالوا وهو أول
من صلب وصيغة
التفعيل فى الفعلين
للتكثير وقد قرئا بالتخفيف
(ولتعلمن أينا) يريد به
نفسه وموسى عليه
الصلاة والسلام لقوله
آمنتم له قبل أن آذن لكم
واللام مع الايمان
فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا اما القصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لانه لم يكن ✻ وموسى ✻
من التعذيب فى شئ واما الاراءة أن ايمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى
عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد

والشقاوة لانفسهم ماأرى ان عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق الا أن يقال العقل
والدليل لايكفى بل لابد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ويخلق الشعور بكيفية
ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى انه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب وذلك
يدل على ان الكل بقضائه وقدره فانه لااعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها
وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر الى أحوال نفسه فى مجارى افكاره
وانظاره ازداد وثوقا بماذكرناه أما قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى فاعلم ان التعليمية
احتجوا بهذه الآية وقالوا انهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قبل هرون وموسى فدل ذلك
على ان معرفة الله لاتستفاد الا من الامام وهذا القول ضعيف بل فى قولهم آمنا برب
هرون وموسى فائدتان سوى ماذكروه (الفائدة الاولى) وهى ان فرعون ادعى الربوبية
فى قوله أنا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ماعلمت لكم من اله غيرى فلو أنهم قالوا آمنا برب
العالمين لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لابغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه
العبارة والدليل عليه انهم قدموا ذكر هرون على موسى لان فرعون كان يدعى ربوبيته
لموسى بناء على أنه رباه فى قوله ألم نربك فينا وليدا فالقوم لما احترزوا عن ايهامات فرعون
لاجرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعا لهذا الخيال (الفائدة الثانية) وهى انهم لما
شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لاجرم قالوا
رب هرون وموسى لاجل ذلك ثم ان فرعون لما شاهد منهم السجود والاقرار خاف أن
يصير ذلك سببا لاقتداء سائر الناس بهم فى الايمان بالله تعالى وبرسوله ففى الحال ألقى شبهة
أخرى فى النبى فقال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا
الكلام مشتمل على شبهتين (احداهما) قوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وتقريره ان
الاعتماد على الخاطر الاول غير جائز بل لابد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر
فلما لم تفعلوا شيئا من ذلك بل فى الحال آمنتم له دل ذلك على ان ايمانكم ليس عن البصيرة
بل عن سبب آخر (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر يعنى انكم تلامذته فى
السحر فاصطلحتم على ان تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لامره وتفخيما لشأنه ثم بعد
ايراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الايمان وتنفيرا لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك
فقال لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف قرئ لاقطعن ولاصلبن بالتخفيف والقطع من
خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين خلاف الآخر
فان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله من خلاف فى محل النصب على الحال
أى لاقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال
ولاصلبنكم فى جذوع النخل فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشئ الموعى فى وعائه
فلذلك قال فى جذوع النخل والذى يقال فى المشهور ان فى بمعنى على فضعيف ثم قال ولتعلمن
أينا أشد عذابا وأبقى أراد بقوله اينا نفسه لعنه الله لان قوله أينا يشعر بانه أراد نفسه

به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى (أشد عذابا وأبقى) أى أدوم (قالوا) غير مكترثين بوعيده (لن نؤثرك
ان نختارك بالايمان والاتباع (على ماجاءنا) من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام (من البينات)
من المعجزات الظاهرة فان ماظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كمامر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها (والذى فطرنا) أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ماجاءنا وتأخيره لان مافى ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وايراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لانؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضا لما أن القسم لايجاب بلن الاعلى شذوذ وقوله تعالى
(فاقض ما أنت قاض) جواب عن تهديده بقوله لاقطعن الخ أى فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى (انما تقضى هذه الحياة الدنيا) مع مابعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الامر بالقضاء أى انما تصنع ماتهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب ومالنا

وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له وفيه تصلف باقتداره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به لان موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب فى شئ فان قيل ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية تلك العظمة التى شرحتموها وذكرتم انها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الامر الى ان استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل ان يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام فى قوله أينا اشد عذابا وأبقى قلنا لم لايجوز أن يقال انه كان فى اشد الخوف فى قلبه الا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره ومن استقرى أحوال أهل العالم علم ان العاجز قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على صحة ذلك ان كل عاقل يعلم بالضرورة ان عذاب الله أشد من عذاب البشر ثم انه أنكر ذلك وأيضا فقد كان عالما بكذبه فى قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه علم ان موسى عليه السلام ماخالطهم البتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته ان أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه مع ذلك كان يقول هذه الاشياء فثبت ان سبيله فى كل ذلك ماذكرناه وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى اول النهار سحرة وفى آخره شهداء ❊ قوله تعالى (قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) اعلم انه تعالى لما حكى تهديد فرعون لاولئك المؤمنين حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم فى أصول الدين فقالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات وذلك يدل على ان فرعون طلب منهم الرجوع عن الايمان والافعل بهم ما أوعدهم فقالوا لن نؤثرك جوابا لما قاله وبينوا العلة وهى ان الذى جاءهم بينات وأدلة والذى يذكره فرعون محض الدنيا ومنافع الدنيا ومضارها لاتعارض منافع الآخرة ومضارها أما قوله والذى فطرنا ففيه وجهان (الاول) ان التقدير لن نؤثرك يافرعون على ماجاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا أى وعلى طاعة الذى فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثانى) يجوز أن يكون خفضا على القسم واعلم انهم لما علموا انهم متى اصروا على الايمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا اقض ما أنت قاض لا على معنى انهم أمروه بذلك لكن أظهروا ان ذلك الوعيد لايزيلهم البتة عن ايمانهم وعما عرفوه من الحق علما وعملا ثم بينوا ما لاجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا انما تقضى هذه الحياة الدنيا وقرئ تقضى هذه حياة الدنيا ووجهها ان الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة صيم يوم الجمعة والمعنى ان

قضاءك وحكمك انما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية وانما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى التوصل به الى السعادة الباقية ثم قالوا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ولما كان أقرب خطاياهم عهدا ما أظهروه من السحر قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وذكروا فى ذلك الاكراه وجوها (أحدها) ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم و يكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لاجل ذلك أى كنا فى التعلم أولا والتعليم ثانيا مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فأروه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بسحر الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه (وثالثها) قال الحسن ان السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين فى الحضور و ربما كانوا مكرهين أيضا فى اظهار السحر (ورابعها) قال عمر بن عبيد دعوة السلطان اكراه وهذا ضعيف لان دعوة السلطان اذا لم يكن معها خوف لم تكن اكراها ثم قالوا والله خير ثوابا لمن أطاعه وأبقى عقابا لمن عصاه وهذا جواب لقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قال الحسن سبحان الله القوم كفار وهم أشد الكافرين كفرا ثبت فى قلوبهم الايمان فى طرفة عين فلم يتعاظم عندهم ان قالوا اقض ما أنت قاض فى ذات الله تعالى والله ان أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاما ثم انه يبيع دينه بثمن حقير ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة فقالوا فى المجرمين انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الهاء فى قوله انه ضمير الشأن يعنى ان الامر والشأن كذا وكذا (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقوله انه من يأت ربه مجرما وكلمة من فى معرض الشرط تفيد العموم بدليل انه يجوز استثناء كل واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام فقال لانسلم ان صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه انه تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فانه قال فى هذه الآية ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات وقال ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وأيضا فانه قال فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى والمؤمن صاحب الكبيرة وان عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف وفى الخبر الصحيح يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان واعلم ان هذه الاعتراضات ضعيفة اما قوله ان الله تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا انما ينفع لو ثبت ان صاحب الكبيرة مؤمن ومذهب المعتزلة انه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط قوله ثانيا انه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال فى حقه ان له جهنم

من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التى اقترفنا فيها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى (وما أكرهتنا عليه من السحر) عطف على خطايانا أى و يغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام باكراهك وحشرك ايانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى ان رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل انه اكرههم على المعارضة حيث روى انهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون (والله خير) أى فى حد ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا (وأبقى) أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى (انه) ﴿ لايموت ﴾

لايموت فيها ولايحيى قلنا لانسلم فان عذاب جهنم فى غاية الشدة قال تعالى ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيتـه وأما الحديث فيقال القرآن متواتر فلايعارضه خبر الواحد ويمكن أن يقال ثبت فى أصول الفقه انه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد وللخصم أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع اليه فى العمليات وهذه المسئلة ليست من العمليات بل من الاعتقادات فلايجوز المصير اليها ههنا فان اعترض انسان آخر وقال أجمعنا على ان هذه الآية مشروطة بنفى التوبة وبأن لايكون عقابه محبطا بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو ان لايوجد مايحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب وعندنا ان المجرم الذى لايوجد فى حقه العفو لابد وان يدخل جهنم واعلم ان هذا الاعتراض أيضا ضعيف أما شرط نفى التوبة فلاحاجة اليه لانه قال من يأت ربه مجرما أى حال كونه مجرما والتائب لايصدق عليه انه أتى ربه حال كونه مجرما وأما صاحب الصغيرة فلأنه لايسمى مجرما لان المجرم اسم للذم فلايجوز اطلاقه على صاحب الصغيرة بل الاعتراض الصحيح أن نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى وكلامنا فيمن اتى بالايمان والاعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر فان قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة قلنا لم لايجوز أن يقال ثواب الايمان يدفع عقاب المعصية فان قالوا لوكان كذلك لوجب ان لايجوز لعنه واقامة الحد عليه قلنا أما اللعن فغير جائز عندنا وأما اقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما فى حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله فالله تعالى نص على انه يجب عليه اقامة الحد على سبيل التنكيل وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقا للمدح والتعظيم واذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا فدلنا ذلك على ان عقاب الكبيرة أولى بازالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة هذا منتهى كلامهم فى مسئلة الوعيد قلنا حاصل الكلام يرجع الى ان النص الدال على اقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضا للنصوص الدالة على كونه مستحقا للثواب فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لان المؤمن كان ينقسم الى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم الى المؤمن والى غير المؤمن فلم يكن لاحدهما مزية على الآخر فى العموم والخصوص فاذا تعارضا تساقطا ثم نقول لانسلم ان كلمة من فى افادة العموم قطعية بل ظنية ومسئلتنا قطعية فلايجوز التعويل على ماذكرته وتمام الكلام فيه مذكور فى كتاب المحصول فى الاصول (المسـئلة الثالثة) تمسكت المجسمة بقوله انه من يأت ربه مجرما فقالوا الجسم انما يأتى ربه لوكان الرب فى المكان وجوابه ان الله تعالى جعل اتيانهم موضع الوعد اتيانا الى الله مجازا كقول ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين (المسئلة الرابعة) الجسم الحى لابد وان يبقى اما حيا

الى اخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشـان للتنبيه على فخامة مضمونهما لان مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع مافيه من زيادة التقرير فان الضمير لايفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى (من يأت ربه مجرما) بأن مات على الكفر والمعاصى (فان له جهنم لايموت فيها) فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى (ولايحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ماشاهدناه (قد عمل الصالحات) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لاتذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل (فأولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات (لهم) بسبب ايمانهم وأعمالهم الصالحة (الدرجات العلى) أى المنازل الرفيعة وليس فيه مايدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لان ما نيط بالايمان المقرون بالاعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لابالثواب مطلقا وهل التشاجر الافيه

(جنات عدن) بدل من الدرجات العلى أو بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لارض الجنة فقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) حال من الجنات وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة (وذلك) اشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جزاء من تزكى) أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والاعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان اشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الاخبار (ولقد أوحينا الى موسى) حكاية اجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ما جرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الاعراف وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى (أن أسر بعبادى) اما مفسرة لان الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباده تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل

أو يصير ميتا فخلوه عن الوصفين محال فمعناه فى الآية انه يكون فى جهنم بأسوأ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ثم ذكر حال المؤمنين فقال ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى واعلم ان قوله قد عمل الصالحات يقتضى أن يكون آتيا بكل الصالحات وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغى أن يحمل ذلك على أداء الواجبات ثم ذكر ان من أتى بالايمان والاعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ثم فسرها فقال جنات عدن تجرى من تحتها الانهار وفى الآية تنبيه على حصول العفو لاصحاب الكبائر لانه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالايمان والاعمال الصالحة فسائر الدرجات التى هى غير عالية لابد وأن تكون لغيرهم وما هم الا العصاة من أهل الايمان أما قوله وذلك جزاء من تزكى فقال ابن عباس يريد من قال لا اله الا الله وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هى جزاء من تزكى أى تطهر عن الذنوب وجب بحكم دليل الخطاب ان الدرجات التى لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى وعفا الله بفضله ورحمته عنهم واعلم انه ليس فى القرآن ان فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك فى الاخبار ﴿ قوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى)

اعلم ان فى قوله ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى دلالة على ان موسى عليه السلام فى تلك الحالة كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تميزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسرى بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله فان قيل ما الحكمة فى أن يسرى بهم ليلا قلنا لوجوه (أحدها) أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم فى ذلك (وثانيها) ليكون عائقا عن طلب فرعون ومتبعيه (وثالثها) ليكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم أما قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ففيه وجهان (الاول) أى فاجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما وضرب اللبن عمله (والثانى) بين لهم طريقا فى البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق فعدى الضرب الى الطريق والحاصل انه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبسا ثم بين تعالى ان جميع أسباب الامن كان حاصلا فى ذلك الطريق (أحدها) انه كان يبسا قرىء يابسا ويبسا بفتح الباء وتسكين الباء فمن قال يابسا جعله بمعنى الطريق ومن قال يبسا بتحريك الباء فاليبس واليابس شىء واحد والمعنى طريقا اذ يبس ومن قال يبسا بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس والمراد انه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء (وثانيها) قوله لا تخاف دركا ولا تخشى أى لا تخاف أن يدركك فرعون فانى أحول بينك وبينه بالتأخير قال سيبويه قوله لا تخاف رفعه على وجهين (أحدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثانى) على الابتداء أى أنت لا تخاف

﴿ وهذا ﴾

وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل أي و بالله لقد أوحينا اليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادي الذين أرسلتك لانقاذهم
من ملكة فرعون أي سر بهم من مصر ليلا (فاضرب لهم) أي فاجعل أو فاتخذ لهم (طريقا في البحر يبسا)

أي يابسا على انه مصدر
وصف به الفاعل مبالغة
وقرئ يبسا وهو اما
مخفف منه أو وصف
كصعب أو جمع يابس
كصحب وصف به الواحد
للمبالغة أو لتعدده حسب
تعدد الاسباط (لاتخاف
دركا) حال من المأمور
أي آمنا من ان يدرككم
العدو أو صفة أخرى
لطريقا والعائد محذوف
وقرئ لاتخف جوابا
للامر (ولاتخشى)
عطف على لاتخاف
داخل في حكمه أي
ولاتخشى الغرق وعلى
قراءة الجزم استئناف أي
وأنت لاتخشى أو عطف
عليه والالف للاطلاق
كما في قوله تعالى وتظنون
بالله الظنونا وتقديم نفي
الخوف المذكور للمسارعة
الى ازاحة ما كانوا عليه
من الخوف العظيم حيث
قالوا انا لمدركون (فاتبعهم
فرعون بجنوده) أي تبعهم
ومعه جنوده حتى لحقوهم
يقال اتبعتهم أي تبعتهم
وذلك اذا كانوا سبقوك
فلحقتهم ويؤيده انه
قرئ فاتبعهم من الافتعال

وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثاني وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده أي ساقهم خلفهم
وأياما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة
والسلام الى الامتثال بالامر أي ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فاتبعهم

وهذا قول الفراء قال الاخفش والزجاج المعنى لاتخاف فيه كقوله واتقوا يوما لاتجزى
نفس عن نفس أي لاتجزى فيه نفس وقرأ حمزة لاتخف وفيه وجهان (أحدهما) انه نهى
(والثاني) قال أبو علي جعله جواب الشرط على معنى ان تضرب لاتخف وعلى هذه القراءة
ذكروا في قوله ولاتخشى ثلاثة أوجه (أحدها) انه يستأنف كأنه قيل وأنت لاتخشى أي
ومن شأنك انك آمن لاتخشى (وثانيها) أن لاتكون الالف هي الالف المنقلبة عن الياء
التي هي لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى وأضلونا السبيلا
وتظنون بالله الظنونا (وثالثها) أن يكون مثل قوله * كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا *
(وثالثها) قوله ولاتخشى والمعنى انك لاتخاف ادراك فرعون ولاتخشى الغرق بالماء أما
قوله فاتبعهم فرعون بجنوده قال ابو مسلم زعم رواة اللغة ان أتبعهم وتبعهم واحد وذلك
جائز ويحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى لاتأخذ
بلحيتي ولابرأسي أسرى بعبده وقال الزجاج قرئ فاتبعهم فرعون وجنوده أي ومعه
جنوده وقرئ بجنوده ومعناه الحق جنوده بهم ويجوز أن يكون بمعنى معهم أما قوله فغشيهم
فالمعنى علاهم وسترهم وماغشيهم تعظيم للامر أي غشيهم مالايعلم كنهه الا الله تعالى
وقرئ فغشاهم من اليم ماغشيهم وفاعل غشاهم اما الله سبحانه وتعالى أو ماغشيهم أو فرعون
لانه الذي ورط جنوده وتسبب في هلاكهم أما قوله وأضل فرعون قومه وماهدى فاحتج
القاضي به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه
بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولان الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقا
للكفر لان من ذم غيره بشئ لابد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل والا لاستحق ذلك الذم
وقوله وماهدى تهكم به في قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد ولنذكر القصة وما فيها من
المباحث قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر
وكان موسى عليه السلام وبنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلي والدواب لعيد
يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن ستين
ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد اليهم عند موته ان يخرجوا بعظامه معهم
من مصر فلم يخرجوا بها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فاخذوها فقال
موسى عليه السلام للعجوز احتكمي فقالت أكون معك في الجنة وذكر ابن عباس أن محمدا
صلى الله عليه وسلم وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم الا عنز فذبحوها
لهما فقال عليه السلام اذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيرا فلما سمع
بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم أتاه مع امرأته فقال أتعرفني قال نعم عرفتك فقال له
احتكم فقال ثمانون ضائنة فأعطاه اياها وقال له أما ان عجوز بني اسرائيل خير منك وخرج
فرعون في طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين
والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر انفرق

فرعون بجنوده برا وبحرا روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فأخبر فرعون
بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف فقص أثرهم ﴿ ٨٦ ﴾ فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك
ضرب عليه الصلاة
والسلام بعصاه البحر
فانفلق على اثنى عشر
فرقا كل فرق كالطود
العظيم فعبر موسى عليه
الصلاة والسلام بمن معه
من الاسباط سالمين وتبعهم
فرعون بجنوده (فغشيهم
من اليم ماغشيهم) أى
علاهم منه وغمرهم ما
غمرهم من الامر الهائل
الذى لا يقادر قدره ولا
يبلغ كنهه وقيل غشيهم
ماسمعت قصته وليس
بذلك فان مدار التهويل
والتفخيم خروجه عن
حدود الفهم والوصف
لا سماع قصته وقرئ
فغشاهم من اليم ماغشاهم
أى غطاهم ماغطاهم
والفاعل هو الله عز وعلا
أو ماغشاهم وقيل فرعون
لانه الذى ورطهم
للهلكة ويأباه الاظهار
فى قوله تعالى (وأضل
فرعون قومه) أى سلك
بهم مسلكا أداهم الى
الخيبة والخسران فى
الدين والدنيا معا حيث
ماتوا على الكفر بالعذاب
الهائل الدنيوى المتصل
بالعذاب الخالد الاخروى
وقوله تعالى (وماهدى) أى ما أرشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية ﴿ عليه
تقرير لاضلاله وتأكيد له اذ رب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل
الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك انما يتصور فى حقه

فأبى فأوحى الله اليه ان اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام
ادخلوا فيه فقالوا كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف
الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر
فاقبل فرعون الى تلك الطرق فقال قومه له ان موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على
فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة
فصار جبريل عليه السلام بين يدى فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجر فاقتحم بفرعون
على أثرها وصاحت الملائكة فى الناس الحقوا الملك حتى اذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن
يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو اسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا ما هذا يا موسى
قال قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا اليهم فقالوا ياموسى ادع الله أن يخرجهم
لنا حتى ننظر اليهم فدعا فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس
ان جبريل عليه السلام قال يا محمد لو رأيتنى وانا ادس فرعون فى الماء والطين مخافة أن
يتوب فهذا معنى قوله فغشيهم من اليم ماغشيهم وفى القصة ابحاث (البحث الاول) روى
فى الاخبار ان موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقا يابسا
يتهيأ طروقه وبقى الماء قائما بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل فأخذ كل
سبط من بنى اسرائيل فى طريق من هذه الطرق ومنهم من قال بل حصل طريق واحد
وحجة القول الاول الاخبار ومن القرآن قوله تعالى فصار كل فرق كالطود العظيم وذلك
لا يحصل الا اذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم
وحجة القول الثانى ظاهر قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا وذلك يتناول الطريق
الواحد وان أمكن حمله على الطرق نظرا الى الجنس (البحث الثانى) روى ان بنى اسرائيل
بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد أن يرى بعضنا
بعضا وهذا كالبعيد وذلك ان القوم لما أبصروا مجىء فرعون صاروا فى نهاية الخوف والخائف
اذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعنت البارد (البحث الثانى) ان فرعون
كان عاقلا بل كان فى نهاية الدهاء فكيف اختار القاء نفسه الى التهلكة فانه كان يعلم من
نفسه ان انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين (أحدهما) أن جبريل عليه
السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ولقائل أن يقول هذا بعيد لانه يبعد أن يكون
خوض الملك فى أمثال هذه المواضع مقدما على خوض جميع العسكر وماذكروه انما يتم
اذا كان الامر كذلك وأيضا فلو كان الامر على ماقالوه لكان فرعون فى ذلك الدخول
كالمجبور وذلك مما يزيده خوفا ويحمله على الامساك فى أن لا يدخل وأيضا فأى حاجة
لجبريل عليه السلام الى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه ويرميه فى الماء
ابتداء بل الاولى أن يقال انه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وماغرقوا فغلب على
ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى (البحث الرابع) ان الذى نقل عن جبريل

بطريق التهكم وحمل الاضلال والهداية على ما يختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده الى مساق الهلاك
الدنيوى وجعلهما عبارة عن الاضلال فى البحر والانجاء منه مما لا يقبله العقل السليم (يابنى اسرائيل)

عليه السلام انه كان يدسه فى الماء والطين خوفا من أن يؤمن فبعيد لان المنع من الايمان لا يليق بالملائكة والانبياء عليهم السلام (البحث الخامس) الذى روى ان موسى عليه السلام كلم البحر وقال له انفلق لى لاعبر عليك فقال البحر لا يمر على رجل عاص فهو غير ممتنع على أصولنا لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة وعند المعتزلة ان ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال والله أعلم * قوله تعالى (يابنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) اعلم انه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم اياها ولاشك ان ازالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على ايصال المنفعة ولاشك أن ايصال المنفعة الدينية أعظم فى كونه نعمة من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ الله تعالى بقوله أنجيناكم من عدوكم وهو اشارة الى ازالة الضرر فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والاخراج والاتعاب فى الاعمال ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهى قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن ووجه المنفعة فيه انه أنزل فى ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهى قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم زجرهم عن العصيان بقوله ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ثم بين ان من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله وانى لغفار لمن تاب وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم وواعدتكم الى قوله من طيبات ما رزقتكم كلها بالتاء الا قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى فانها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائى وواعدتكم (المسئلة الثانية) قال الكلبى لما جاوز موسى عليه السلام ببنى اسرائيل البحر قالوا له أليس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والاحكام قال بلى ثم تعجل موسى الى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم ان يأتيهم الى أربعين ليلة من يوم انطلق وانما قال وواعدناكم لانه انما واعد موسى أن يؤتيه التوراة لاجلهم وقال مقاتل انما قال واعدناكم لان الخطاب له وللسبعين المختارة والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال المفسرون ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد ان طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر الى الشام وقرئ الايمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك اما لان الله تعالى انزل التوراة عليهم وفيها شرح دينهم واما لان الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم (المسئلة الرابعة) قوله كلوا ليس أمر ايجاب بل أمر اباحة كقوله واذا حللتم فاصطادوا (المسئلة الخامسة) فى الطيبات قولان (أحدهما) اللذائذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة (والثانى) وهو قول الكلبى ومقاتل الحلال لانه شئ أنزله الله تعالى اليهم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لان بين المعنيين معنى مشتركا

حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى انه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعا ويرده ما سيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى وقلنا يابنى اسرائيل (قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل و يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نسائكم وقرئ أنجيتكم ونجيتكم (وواعدناكم جانب الطور الايمن) بالنصب على انه صفة للمضاف وقرئ بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان
جانبه الايمن نظرا الى السالك من مصر الى الشام أى اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا الى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وايفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق

والتصوير الى المخاطبين مع ان المخلوق المصور بالذات هو ادم عليه الصلاة والسلام وقرئ واعدتكم ووعدنا كم (ونزلنا عليكم المن والسلوى) أي الترنجبين والسماني حيث كان ينزل عليهم المن وهم في التيه مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السماني فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مرارا (كلوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان اباحة ما ذكر لهم واتماما للنعمة عليهم (من طيبات ما رزقناكم) أي من لذائذه أو حلالاته وقرئ رزقتكم وفي البدء بنعمة الانجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب ما لا يخفى (ولا تطغوا فيه) أي فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدي لما حد لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبي) جواب للنهي أي فتلزمكم عقوبتي وتجب لكم من حل الدين اذا وجب اداؤه (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أي تردى وهلك وقيل وقع في الهاوية وقرئ فيحل بضم الحاء من حل يحل اذا نزل (واني لغفار لمن تاب) من الشرك والمعاصي التي من جملتها الطغيان فيما ذكر (وآمن) بما يجب الايمان به (وعمل صالحا) أي عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل ﴿ فتعين ﴾ وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والايمان وقوله تعالى (ثم اهتدى) أي استقام على الهدى اشارة الى ان من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخي الرتبي

وتمام القول في هذه القصة تقدم في سورة البقرة (المسئلة السادسة) في قوله تعالى ولا تطغوا فيه وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تطغوا أي لا يظلم بعضكم بعضا فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه انفسكم بأن تجاوزوا حد الاباحة (وثالثها) قال الكلبي لا تكفروا النعمة أي لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي ولا تعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال الى الحرام (المسئلة السابعة) قرأ الاعمش والكسائي فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الاعمش عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر في الكلمتين اما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى حتى يبلغ الهدى محله والمضموم في معنى النزول وقوله فقد هوى أي شقي وقيل فقد وقع في الهاوية يقال هوى يهوي هويا اذا سقط من علو الى سفل (المسئلة الثامنة) اعلم ان الله تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والامر أما انه وصف نفسه بكونه غافرا فقوله غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله وربك الغفور ذو الرحمة وأما كونه غفارا فقوله واني لغفار لمن تاب، وأما الغفران فقوله غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضي فقوله في حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك وأما صيغة المستقبل فقوله ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله في حق محمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله وأما لفظ الاستغفار فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وفي حق نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا وفي الملائكة ويستغفرون لمن في الارض واعلم ان الانبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وأما نوح عليه السلام فقال والا تغفر لي وترحمني وأما ابراهيم عليه السلام فقال والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين وطلبها لابيه سأستغفر لك ربي وأما يوسف عليه السلام فقال في اخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وأما موسى عليه السلام ففي قصة القبطي رب اغفر لي ولاخي وأما داود عليه السلام فاستغفر ربه وأما سليمان عليه السلام رب اغفر لي وهب لي ملكا وأما عيسى عليه السلام وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وأما الامة فقوله والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا واعلم ان بسط الكلام ههنا أن نبين أولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم في كونه تعالى غافرا وغفورا وغفارا ثم نتكلم في أن مغفرته عامة ثم نبين ان مغفرته في حق الانبياء عليهم السلام كيف تعقل مع انه لا ذنب لهم ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا في اثبات العفو وتقريره ان الذنب اما أن يكون صغيرا أو كبيرا بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الاولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفرانا

فتعين أن لا يتحقق الغفران الا فى القسم الثالث وهو المطلوب فان قيل هذا يناقض صريح الآية لانه أثبت الغفران فى حق من استجمع أمورا أربعة التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء قلنا ان من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائبا ومؤمنا وآتيا بالعمل الصالح ومهتديا ومع ذلك يكون مذنبا فحينئذ يستقيم كلامنا وههنا نكتة وهى ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام فالظالم فمنهم ظالم لنفسه والظلوم انه كان ظلوما جهولا والظلام اذا كثر ذلك منه ولله فى مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى يقول ان كنت ظالما فانا غافر وان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت ظلاما فانا غفار وانى لغفار لمن تاب وآمن (المسئلة التاسعة) كثر اختلاف المفسرين فى قوله تعالى ثم اهتدى وسبب ذلك ان من تاب وآمن وعمل صالحا فلا بد وأن يكون مهتديا فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الاشياء والوجوه الملخصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة اذ المهتدى فى الحال لا يكفيه ذلك فى الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه فى المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وكلمة ثم للتراخى فى هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال الاتيان بالتوبة والايمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة فى ذلك انما الصعوبة فى المداومة على ذلك والاستمرار عليه (وثانيها) المراد من قوله ثم اهتدى أى علم ان ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقى مستعينا بالله فى ادامة ذلك من غير تقصير عن ابن عباس (وثالثها) المراد من الايمان الاعتقاد المبنى على الدليل والعمل الصالح اشارة الى أعمال الجوارح بقى بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الاخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة فى لسان الصوفية ثم انكشاف حقائق الاشياء له وهو المسمى بالحقيقة فى لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله ثم اهتدى (المسئلة العاشرة) منهم من قال تجب التوبة عن الكفر أولا ثم الاتيان بالايمان ثانيا واحتج عليه بهذه الآية فانه تعالى قدم التوبة على الايمان واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان العمل الصالح غير داخل فى الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه * قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى) اعلم ان فى قوله وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على انه قد تقدم قومه فى المسير الى المكان ويجب أن يكون المراد ما نبه عليه فى قوله تعالى وواعدناكم جانب الطور الايمن فى هذه السورة وفى سائر السور كقوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله وما أعجلك استفهام وهو على الله محال الجواب انه انكار فى صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه (السؤال الثانى) ان موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يقال انه كان ممنوعا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعا عنه فان كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية

سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لانكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل اغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورا باستصحابهم واحضارهم معه لا لانكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفى الانفراد المنافى للاستصحاب والمعية حيث (قال هم أولاء على اثرى) يعنى انهم معى وانما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لا تخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا وبعد ماذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لامر منكر ذكر أنه لامر مرضى حيث قال (وعجلت اليك رب لترضى) عنى بمسارعتى الى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك وزيادة رب لمزيد

الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا لأنه التفات من التكلم الى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم

من الانبياء وان قلنا انه ماكان ممنوعا كان ذلك الانكار غير جائز من الله تعالى (والجواب) لعله عليه السلام ماوجد نصا فى ذلك الا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ فى ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب (السؤال الثالث) قال وعجلت والعجلة مذمومة (والجواب) انها ممدوحة فى الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (السؤال الرابع) قوله لترضى يدل على انه عليه السلام انما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين (أحدهما) انه يلزم تجدد صفة لله تعالى والآخر أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال انه تعالى ماكان راضيا عن موسى لان تحصيل الحاصل محال ولما لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام (الجواب) المراد تحصيل دوام الرضا كما أن قوله ثم اهتدى المراد دوام الاهتداء (السؤال الخامس) قوله وعجلت اليك يدل على انه ذهب الى الميعاد قبل الوقت الذى عينه الله تعالى له والا لم يكن ذلك تعجيلا ثم ظن ان مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله تعالى (والجواب) ماذكرنا ان ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه (السؤال السادس) قوله اليك يقتضى كون الله فى الجهة لان الى لانتهاء الغاية (الجواب) توافقنا على ان الله تعالى لم يكن فى الجبل فالمراد الى مكان وعدك (السؤال السابع) ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلبت زيادة رضاك والشوق الى كلامك وأما قوله هم أولاء على أثرى فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين (الاول) ان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين (أحدهما) انكار نفس العجلة (والثانى) السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الامرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثانى فقال لم يوجد منى الا تقدم يسير لا يحتفل به فى العادة وليس بينى وبين من سبقته الا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال وعجلت اليك رب لترضى (الثانى) انه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ماورد ذهل عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام واعلم ان فى قوله وما أعجلك عن قومك ياموسى دلالة على انه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين واختلفوا فى المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه الى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا الى ربه وقال آخرون القوم جملة بنى اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له الى أن يرجع هو مع السبعين فقال هم أولاء على أثرى يعنى بالقرب منى ينتظرونى وعن أبى عمرو ويعقوب اثرى بالكسر وعن عيسى بن عمر أثرى بالضم وعنه أيضا أولى بالقصر والاثر أفصح من الاثر واما الاثر فمسموع فى فرند السيف وهو بمعنى الاثر غريب * قوله تعالى (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد

... أى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم الذين خلفهم مع هرون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة ألف مانجا منهم من عبادة العجل الا اثنا عشر ألفا والفاء لترتيب الاخبار بما ذكر من الابتلاء على اخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لان الاخبار بها سبب موجب للاخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما الى الآخر من حيث ان مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم فانه روى انهم اقاموا على ماوصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر (وأضلهم السامرى) حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم انما أخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ماكان فاخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام امابا عتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته وامابطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونظائره أولان السامرى كان قد عزم على ايقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مباديها ﴿ ام ﴾

وتمهيد مبادئها فكانت الفتنة واقعة عند ...

لانه ضال ومضل والسامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا

أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا
ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فاخرج لهم عجلا
جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسي افلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا
ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) اعلم انه تعالى لما قال لموسى وما أعجلك عن قومك وقال موسى
في جوابه وعجلت اليك رب لترضى عرفه الله تعالى ماحدث من القوم بعد أن فارقهم مما
كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري
وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لا يجوز أن يكون المراد ان الله تعالى خلق
فيهم الكفر لوجهين (الوجه الاول) الدلائل العقلية الدالة على انه لا يجوز من الله
أن يفعل ذلك (الثاني) انه قال وأضلهم السامري ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن
لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله وأضلهم السامري وأيضا فلان موسى عليه
السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم
غضب من ربكم فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه ان الله
خلقه فينا لا ما ذكرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضا فقال أم أردتم
أن يحل عليكم غضب من ربكم ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو
الخالق له ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله فتنا معنى آخر وذلك لان الفتنة قد تكون
بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار اذا امتحنته بالنار لكي يتميز الجيد من الرديء
فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لان السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا
مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والاجسام على ان لها الها ليس بجسم وحينئذ
يعرفون ان العجل لا يصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديدا في التكليف فكان فتنة
والتشديد في التكليف موجود قال تعالى أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم
لا يفتنون هذا تمام كلام المعتزلة قال الاصحاب ليس في ظهور صوت عن عجل متخذ من
الذهب شبهة أعظم مما في الشمس والقمر والدليل الذي ينفي كون الشمس والقمر الها
أولى بان ينفي كون ذلك العجل الها فحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديدا في
التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم قولهم أضاف
الاضلال الى السامري قلنا أليس ان جميع المسببات العادية تضاف الى أسبابها في
الظاهر وان كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضا قرئ وأضلهم السامري أي
وأشدهم ضلالا السامري وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ثم الذي يحسم مادة
الشغب التمسك بفصل الداعي على ما سبق تقريره في هذا الكتاب مرارا كثيرة (المسئلة
الثانية) المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا
ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفا (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضي الله
عنهما في رواية سعيد بن جبير كان السامري علجا من أهل كرمان وقع الى مصر وكان من

من كرمان وقيل من
أهل باجرما واسمه موسى
بن ظفر وكان منافقا قد
أظهر الاسلام وكان
من قوم يعبدون البقر
(فرجع موسى الى قومه)
عند رجوعه المعهود
أي بعد ما استوفى
الاربعين وأخذ التوراة
لا عقيب الاخبار بالفتنة
فسببية ما قبل الفاء لما
بعدها انما هي باعتبار
قيد الرجوع المستفاد
من قوله تعالى (غضبان
أسفا) لا باعتبار نفسه
وان كانت داخلة
عليه حقيقة فان كون
الرجوع بعد تمام
الاربعين أمر مقرر
مشهور لا يذهب الوهم
الى كونه عند الاخبار
بالفتنة كما اذا قلت
شايعت الحجاج ودعوت
لهم بالسلامة فرجعوا
سالمين فان أحدا لا يرتاب
في أن المراد رجوعهم
المعتاد لا رجوعهم أثر
الدعاء وأن سببية الدعاء
باعتبار وصف السلامة
لا باعتبار نفس الرجوع
والاسف الشديد
الغضب وقيل الحزين
(قال) استئناف مبني على
سؤال ناشئ من حكاية
رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال (ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) بان يعطيكم التوراة فيها ما فيها
من النور والهدى والهمزة لانكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أي وعدكم بحيث لا سبيل لكم الى

... قوله تعالى (أفطال عليكم العهد) أى الزمان للعطف على مقدر والهمزة لانكار المعطوف ونفيه فقط أى أوعدكم ذلك فطال زمان الانجاز فأخطأتم بسببه (أم أردتم أن يحل) أى يجب (عليكم غضب) شديد لا يقادر قدره كائن (من ربكم) أى من مالك أمركم على الاطلاق (فأخلفتم موعدى) أى وعدكم اياى بالثبات على ما امرتكم به الى أن أرجع من الميقات على اضافة المصدر الى مفعوله للقصد الى زيادة تقبيح حالهم فان اخلافهم الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث اضافته اليه عليه السلام أشنع منه من حيث اضافته اليهم والفاء لترتيب مابعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا وأما جعل الموعد مضافا الى فاعله وحمل اخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الاربعين فمما لا يساعده السباق ولا السياق أصلا (قالوا ما أخلفنا موعدك) أى وعدنا اياك الثبات على ما أمرتنا به وايثاره على أن يقال موعدنا على اضافة المصدر الى فاعله لما مر آنفا (بملكنا) أى بأن ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ما سوله مع مساعدة بعض الاحوال لما أخلفنا وقرئ بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشئ

قوم يعبدون البقر والذى عليه الاكثرون انه كان من عظماء بنى اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جارا لموسى عليه السلام وقد آمن به (المسئلة الرابعة) روى فى القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه فانا قد فتنا قومك من بعدك من وجهين (الاول) انه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته (الثانى) ان السامرى شرع فى تدبير الامر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على اضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قدر الفتنة موجودة (المسئلة الخامسة) انما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة (المسئلة السادسة) ذكروا فى الاسف وجوها (أحدها) انه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لان قوله غضبان يفيد أصل الغضب وقوله أسفا يفيد كماله (وثانيها) قال الاكثرون حزنا وجزعا يقال أسف يأسف أسفا اذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب ارادة الاضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح الا على الاجسام كالضحك والبكاء ثم ان الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه عاتبهم بعد رجوعه اليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على انه ليس المراد من قوله فانا قد فتنا قومك من بعدك أنه تعالى خلق الكفر فيهم والا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الاصحاب وقد فعل ذلك بقوله ان هى الا فتنتك ومجموع تلك المعاتبات أمور (أحدها) قوله يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا وفيه سؤالان (السؤال الاول) قوله ألم يعدكم ربكم هذا الكلام انما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين باله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا أنه لا اله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم انهم قالوا هذا الهكم واله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) انهم كانوا معترفين بالاله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذى يذكره عبدة الاصنام (السؤال الثانى) ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوها (أحدها) ان المراد ما وعدهم من انزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والاحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذى ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن (وثانيها) ان الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى الى قوله ثم اهتدى والدليل عليه قوله بعد ذلك أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فكأنه قال أفنسيتم ذلك الذى قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعدا حسنا فى منافع الدين وأن يكون

(ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشا الخطا وقرئ حملنا بالتخفيف أى حملنا
احمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا

استعاروها العيد كان لهم
ثم لم يردوها اليهم عند
الخروج مخافة أن يقفوا
على أمرهم وقيل هى
ما ألقاه البحر على الساحل
بعد اغراقهم فأخذوها
ولعل تسميتهم لها
أوزار الانها تبعات
وآثام حيث لم تكن
الغنائم تحل حينئذ (فقذ
فناها) أى فى النار رجاء
للخلاص عن ذنبها
(فكذلك) أى فمثل
ذلك القذف (ألقى
السامرى) أى ما كان
معه منها وقد كان أراهم
انه أيضا يلقى ما كان معه
من الحلى فقالوا ما قالوا
على زعمهم وانما كان
الذى ألقاه التربة التى
أخذها من أثر الرسول
كما سيأتى روى أنه قال
لهم انما تأخر موسى
عنكم لما معكم من الاوزار
فالرأى أن نحفر حفيرة
ونسجر فيها نارا ونقذف
فيها كل ما معنا ففعلوا
(فأخرج) أى السامرى
(لهم) للقائلين (عجلا)
من تلك الحلى المذابة
وتأخيره مع كونه مفعولا
صريحا عن الجار
والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف
النظم الكريم فان قوله تعالى (جسدا) أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له بدل منه وقوله تعالى
(له خوار) أى صوت عجل نعت له (فقالوا) أى السامرى ومن

فى منافع الدنيا أما منافع الدين فهو الوعد بانزال الكتاب الشريف الهادى الى
الشرائع والاحكام والوعد بحصول الثواب العظيم فى الآخرة وأما منافع الدنيا فهو انه
تعالى قبل اهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم وقد فعل ذلك ثم قال أفطال
عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم
المعصية واعلم ان طول العهد يحتمل أمورا (أحدها) أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى
من انجائه اياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة فى أوائل سورة البقرة
وهذا كقوله فطال عليهم الامد فقست قلوبهم (وثانيها) يروى انهم عرفوا ان الاجل
أربعون ليلة فجعلوا كل يوم بازاء ليلة وردوه الى عشرين قال القاضى هذا ركيك لان
ذلك لا يكاد يشتبه على أحد (وثالثها) ان موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة فلما زاد
الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد وأما قوله أم أردتم أن يحل عليكم غضب
من ربكم فهذا لا يمكن اجراؤه على الظاهر لان أحدا لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت
توجب ذلك ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على
ان الغضب من صفات الافعال لا من صفات الذات لان صفة ذات الله تعالى لا تنزل فى شئ
من الاجسام أما قوله فأخلفتم موعدى فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع
القوم وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجئ على أثره (والثانى)
ما وعدوه من الاقامة على دينه الى أن يرجع اليهم من الطور فعند هذا قالوا ما أخلفنا
موعدك بملكنا وفى ان قائل هذا الجواب من هو وجهان (الاول) انهم الذين لم يعبدوا العجل
فكأنهم قالوا انا ما أخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه
الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم
لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا
على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثانى) ان
هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب
ومخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع
قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة
العجل الذى يعرف فساده بالضرورة ثم ان مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر
فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام
وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس واعلم ان فى بملكنا ثلاث قراآت قرأ
حمزة والكسائى بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر
أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل وأما الضم فهو السلطان ثم ان
القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم قرأ حمزة والكسائى
وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن

افتتن به أولما رآه (هذا الهكم واله موسى فنسى) أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة
السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا الى زيادة تقريرها ثم ترتيب الانكار عليها الا من جهة القائلين
والاقيل فاخرج لنا
والحمل على أن عدولهم
الى ضمير الغيبة لبيان
أن الاخراج والقول
المذكورين للكل لا للعبدة
فقط خلاف الظاهر مع
انه مخل باعتذارهم
فان مخالفة بعضهم
للسامرى وعدم
افتتانهم بتسويله مع
كون الاخراج والخطاب
لهم مما يهون مخالفة
المعتذرين فافتتانهم
بعد ذلك أعظم جناية
وأكثر شناعة وأما ما قيل
من أن المعتذرين هم
الذين لم يعبدوا العجل
وان نسبة الاخلاف
الى أنفسهم وهم برآء
منه من قبيل قولهم بنو
فلان قتلوا فلانا مع
أن القاتل واحد منهم
كأنهم قالوا ما وجد
الاختلاف فيما بيننا بأمر
كنا نملكه بل تمكنت
الشبهة فى قلوب العبدة
حيث فعل السامرى
ما فعل فأخرج لهم
ما أخرج وقال ما قال
فلم نقدر على صرفهم
عن ذلك ولم نفارقهم
مخافة ازدياد الفتنة
فيقضى بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (أفلا يرون) الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى
لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد ﴿ الحوار ﴾
وهو اتخاذه الها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام

عامر حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من القوم ومن
قرأ بالتشديد ففيه وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام حملهم على ذلك أى أمرهم
باستعارة الحلى والخروج بها فكأنه الزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها الى أن
نؤديها الى حيث يأمرنا الله (وثالثها) ان الله تعالى حملهم ذلك على معنى انه الزمهم فيه
حكم المغنم أما الاوزار فهى الاثقال ومن ذلك سمى الذنب وزرا لانه ثقل ثم فيه احتمالات
(أحدها) انه لكثرتها كانت أثقالا (وثانيها) ان المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب
عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالا (وثالثها) المراد بالاوزار الآثام والمعنى حملنا
آثاما روى فى الخبر ان هرون عليه السلام قال انها نجسة فتطهروا منها وقال السامرى
ان موسى عليه السلام انما احتبس عقوبة بالحلى فيجوز أن يكونوا أرادوا هذا القول
وقد يقول الانسان للشئ الذى يلزمه رده هذا كله اثم وذنب (ورابعها) ان ذلك الحلى كان
القبط يتزينون به فى مجامع لهم يجرى فيها الكفر لاجرم انها وصفت بكونها أوزارا كما يقال
مثله فى آلات المعاصى أما قوله فقذفناها فذكروا فيه وجوها فى انهم أين قذفوها (الوجه
الاول) قذفوها فى حفرة كان هرون عليه السلام أمرهم بجمع الحلى فيها انتظار العود
موسى عليه السلام (والوجه الثانى) قذفوها فى موضع أمرهم السامرى بذلك (والوجه
الثالث) فى موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك ألقى السامرى أى فعل السامرى مثل
ما فعلنا أما قوله فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فاختلفوا فى انه هل كان ذلك الجسد حيا
أم لا فالقول الاول لا لانه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد الضال بل السامرى صور
صورة على شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت
يشبه صوت العجل (والقول الثانى) انه صار حيا وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه
(أحدها) قوله فقبضت قبضة من أثر الرسول ولو لم يصر حيا لما بقى لهذا الكلام فائدة
(وثانيها) انه تعالى سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسدا وهو انما يتناول
الحى (وثالثها) أثبت له الخوار وأجابوا عن حجة الاولين بأن ظهور خوارق العادة على
يد مدعى الالهية جائز لانه لا يحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع وروى
عكرمة عن ابن عباس ان هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال
ما تصنع فقال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال اللهم اعطه ما سأل فلما مضى هرون قال
السامرى اللهم انى أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون معجزا للنبى أما قوله
فقالوا هذا الهكم واله موسى ففيه اشكال وهو ان القوم ان كانوا فى الجهالة بحيث
اعتقدوا ان ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والارض فهم مجانين
وليسوا بمكلفين ولان مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك
فكيف قالوا هذا الهكم واله موسى وجوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الاله
أو حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم وان كان ذلك أيضا فى غاية البعد لان ظهور

أى لا يتفكرون ولا يعلمون (أن لا يرجع اليهم قولا) أى انه لا يرجع اليهم الاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه اله
وقرئ يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فان أن الناصبة لاتقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون

الخوار لايناسب الالهية ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة وأما قوله فنسى ففيه وجوه (الاول) انه كلام الله تعالى كأنه أخبر عن السامرى انه نسى الاستدلال على حدوث الاجسام وان الاله لايحل فى شئ ولا يحل فيه شئ ثم انه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أى لم يخطر ببالهم ان من لايتكلم ولا يضر ولا ينفع لا يكون الها ولا يكون للاله تعلق به فى الحالية والمحلية (الوجه الثانى) ان هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى ان هذا الهكم واله موسى فنسى موسى ان هذا هو الاله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الاكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع أما قوله أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فهذا استدلال على عدم الهيتها بانها لاتتكلم ولا تنفع ولا تضر وهذا يدل على ان الاله لابد وأن يكون موصوفا بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا وان موسى عليه السلام فى أكثر الامر لا يعول الاعلى دلائل ابراهيم عليه السلام بقى ههنا بحثان (البحث الاول) قال الزجاج الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لا يرجع وهذا كقوله وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا بمعنى أنه لا تكون وقرئ بالنصب أيضا على أن أن هذه الناصبة للافعال (البحث الثانى) هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية أخرى ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الاصنام ألهم أرجل يمشون بها وليس المقصود من هذا أن العجل لو كان يكلمهم لكان الها لان الشئ يجوز أن يكون مشروطا بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ولكن حصول الواحد فيها لا يقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام مادفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه وأنتم ماجفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا الها كما لهم آلهة * قوله تعالى (ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) اعلم ان هرون عليه السلام انما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى عليه السلام وذلك لايجوز أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون انى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فابال الاخيار فقال انهم لم يغضبوا لغضبى وقال ثابت البنانى قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله فى شئ ومن أصبح لايهتم بالمسلمين فليس منهم وعن الشعبى

فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الاقوال وتعليق الابصار بماذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) عطف على لا يرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون انه لايقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لا يقدر على أن يضرهم ان لم يعبدوه أو ينفعهم ان عبدوه (ولقد قال لهم هرون من قبل) جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول اثر بيان مكابرتهم لقضية العقول اى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الامر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه اياهم بماذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع الى تحذيرهم وقال لهم (ياقوم انما فتنتم به) أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم على توجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا الى قيده المذكور

عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وقال أبو على الحسن الغورى كنت فى بعض المواضع فرأيت زورقا فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاح ايش هذا فقال أنت صوفى فضولى وهذه خمور المعتضد فقلت له اعطنى ذلك المدرى فقال لغلامه اعطه حتى نبصر ايش يعمل فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنا دنا والملاح يصيح حتى بقى واحد فامسكت فجاء صاحب السفينة فأخذنى وحملنى الى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره على قال من أنت قلت المحتسب قال من ولاك الحسبة قلت الذى ولاك الخلافة قال لم كسرت هذه الدنان قلت شفقة عليك اذا لم تصل يدى الى دفع مكروه عنك قال فلم أبقيت هذا الواحد قلت انى لما كسرت هذه الدنان فانى انما كسرتها حمية فى دين الله فلما وصلت الى هذا اعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته فقال اخرج ياشيخ فقد وليتك الحسبة فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطيا وأما الشفقة على المسلمين فلان الانسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقا على أبناء جنسه وأى شفقة أعظم من أن يرى جماعة يتهافتون على النار فيمنعهم منها وعن أبى سعيد الخدرى عنه عليه السلام يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها فى القاسية قلوبهم فان فيهم غضبى وعن عبد الله بن أبى أوفى قال خرجت أريد النبى صلى الله عليه وسلم فاذا أبو بكر وعمر معه فجاء صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبى اليك فانه ضال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادرك المرأة فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكى والصبى فى حجرها فالتفتت فرأت النبى صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يارسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذى نفسى بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها ويروى انه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه اذ نظر الى شاب على باب المسجد فقال من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال الهى وسيدى هذا رسولك يشهد على بأنى من أهل النار وأنا أعلم انه صادق فاذا كان الامر كذلك فأسألك أن تجعلنى فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشعل النار بى حتى تبر يمينه ولا تشعل النار باحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يامحمد بشر الشاب بأنى قد انقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق اذا ثبت ذلك فاعلم ان الامر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب ثم ان هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال ياقوم انما فتنتم به الآية وههنا دقيقة وهى ان الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلى أنت منى بمنزلة هرون من موسى ثم ان هرون مامنعته التقيه فى مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح

(وان ربكم الرحمن) بكسر ان عطفا على انما ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما ان التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لاغير والفاء فى قوله تعالى (فاتبعونى) لترتيب مابعدها على ماقبلها من مضمون الجملتين أى اذا كان الامر كذلك فاتبعونى فى الثبات على الدين (وأطيعوا أمرى) هذا واتركوا عبادة ماعرفتم شأنه (قالوا) فى جواب هرون عليه السلام (لن نبرح عليه) على العجل وعبادته (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك انه عليه السلام لايرجع بشئ مبين تعويلا على مقالة السامرى روى انهم لما قالوا اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ماقال وسمع منهم ماقالوا وقوله تعالى

❁ بالحق ❁

(قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كأنه قيل ...
حين سمع جوابهم له وهل رضى بسكوته بعدما شاهد منهم ما شاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه (يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل و بلغوا من المكابرة الى ان شافهوك بتلك المقالة الشنعاء (ان لاتتبعنى) أى أن تتبعنى على أن لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى اذ أى أى شئ منعك حين رؤيتك اضلالهم من أن تتبعنى

بالحق ودعا الناس الى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطا لكان يجب على على رضى الله عنه أن يفعل ما فعله هرون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول فاتبعونى وأطيعوا أمرى فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الامة كانوا على الصواب واعلم أن هرون عليه السلام سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى معرفة النبوة بقوله فاتبعونى ثم دعاهم الى الشرائع رابعا بقوله وأطيعوا أمرى وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شئ من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هى الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت ان هذا الترتيب على أحسن الوجوه وانما قال وان ربكم الرحمن فخص هذا الموضع باسم الرحمن لانه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو الرحمن الرحيم ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ثم انهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى كأنهم قالوا لانقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى وعادة المقلد ليس الا ذاك * قوله تعالى (قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا أن لاتتبعن أفعصيت أمرى قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى) اعلم ان الطاعنين فى عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام اما أن يكون قد أمر هرون باتباعه أولم يأمره فان أمره به فاما أن يكون هرون قد اتبعه أولم يتبعه فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية وذنبا لان ملامة غير المجرم معصية وان لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية وأما ان قلنا ان موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته اياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم اسناد المعصية اما الى موسى أو الى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام أفعصيت أمرى استفهام على سبيل الانكار فوجب أن يكون هرون قد عصاه وأن يكون ذلك العصيان منكرا والا لكان موسى عليه السلام كاذبا وهو معصية فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى وهذا معصية لان هرون عليه السلام قد فعل ما قدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة و بعد أن علم أن هرون قد فعل ما قدر عليه كان الاخذ برأسه ولحيته معصية وان فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك ايضا معصية (ورابعها) ان هرون عليه السلام قال لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى فان كان الاخذ بلحيته و برأسه جائزا كان قول هرون لاتأخذ منعا له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية وان لم يكن ذلك الاخذ جائزا كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه أسئلة لطيفة فى هذا الباب والجواب عن الكل انا بينا فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى فأزلهما

فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على أن لاتتبعنى فان المنع عن الشئ مستلزم للحمل على مقابله وقيل ما منعك ان تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لاتزجرهم مفارقته اياهم عنه أولى والاعتذار بأنهم اذا علموا أنه يلحقه و يخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام (أفعصيت أمرى) أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للامر بهما حتما فان الخلافة لا تتحقق الا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم تتبعنى أو أخالفتنى فعصيت أمرى (قال يا ابن ام) خص الام بالاضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من انه كان أخاه لام فان الجمهور على انهما كانا شقيقين (لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى ولا بشعر رأسى روى انه عليه

عليه السلام ... رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديدا متصلبا فى كل
شئ فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل مافعل وقوله تعالى (انى خشيت) الخ استئناف سبق لتعليل موجب النهى
ببيان الداعى الى ترك المقاتلة وتحقيق انه غير عاص لامره بل ممتثل به أى انى خشيت لوقاتلت بعضهم ببعض وتفانوا
وتفرقوا (ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل) برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك
العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق مايستتبعه القتال من التفريق الذى لايرجى بعده الاجتماع (ولم ترقب قولى) يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى انى رأيت أن الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى أن ترجع اليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للامر حسبما رأيت لاسيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى (قال) استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ماسلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كانه قيل فاصنع موسى بعد سماع ماحكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا له هذا شأنهم (فاخطبك ياسامرى) أى ماشأنك ومامطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس
بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما صنعه من العقاب مايكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الامم (قال) أى السامرى
مجيبا له عليه السلام (بصرت بما لم يبصروا به) بضم الصاد فيهما وقرئ بكسرها فى الاول وفتحها فى الثانى وقرئ
بالتاء على الوجهين على خطاب ✵ اذ ✵

الشيطان عنها أنواعا من الدلائل الجلية فى أنه لايجوز صدور المعصية من الانبياء وحاصل
هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة مايبعد عن التأويل بما يتسارع اليه
التأويل غير جائز اذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم أن لنا فى الجواب عن هذه الاشكالات
وجوها (أحدها) انا وان اختلفنا فى جواز المعصية على الانبياء لكن اتفقنا على جواز
ترك الاولى عليهم واذا كان كذلك فالفعل الذى يفعله أحدهما ويمنعه الآخر وأعنى بهما
موسى وهرون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الاولى فلذلك
فعله أحدهما وتركه الآخر فان قيل هذا التأويل غير جائز لان كل واحد منهما كان جازما
فيما يأتى به فعلا كان أو تركا وفعل المندوب وتركه لايجزم به قلنا تقييد المطلق بالدليل غير
ممتنع فنحن نحمل ذلك الجزم فى الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أو اتركه ان كنت تريد
الاصلح وقد يترك ذلك الشرط اذا كان تواطؤهما على رعايته معلوما متقررا (وثانيها) ان
موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره اليه كما يفعل
الانسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ويفتل
أصابعه ويقبض على لحيته فاجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لانه كان
أخاه وشريكه فصنع به مايصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب فاما قوله لاتأخذ
بلحيتى ولا برأسى فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنو اسرائيل
من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ثم أخذ فى شرح القصة فقال انى خشيت أن
تقول فرقت بين بنى اسرائيل (وثالثها) ان بنى اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى
عليه السلام حتى ان هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام أنت قتلته فلما
وعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له فى الالواح من كل شئ
ثم رجع فرأى فى قومه مارأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة
فخاف هرون عليه السلام أن يسبق الى قلوبهم مالا أصل له فقال اشفاقا على موسى لاتأخذ
بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم مالا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف كان
موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شئ شديد
الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد
مارأوا من الآيات العظام ان ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة
غضبا لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه اقبال العدو المكاشر
واعلم ان هذا الجواب ساقط لانه يقال هب انه كان شديد الغضب ولكن مع ذلك الغضب
الشديد هل كان يبقى عاقلا مكلفا أم لا فان بقى عاقلا مكلفا فالاسئلة باقية بتمامها أكثر ما فى
الباب انك ذكرت انه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصى فقد زدت اشكالا آخر فان
قلتم بأنه فى ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لايرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة
من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك فى سقوط السؤال والله أعلم أما قوله مامنعك

موسى عليه السلام وقومه أي علمت مالم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت مالم يروه وهو الانسب بما سيأتي من قوله وكذلك سولت لي نفسي لاسيما على القراءة بالخطاب فان ادعاء علم مالم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية مالم يره عليه السلام فانها مما يقع بحسب ما يتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات في الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى (فقبضت قبضة من أثر الرسول) وقرئ من أثر فرس الرسول أي من تربة موطئ فرس الملك الذي أرسل اليك ليذهب بك الى الطور ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار بوقوفه على مالم يقف عليه القوم من الاسرار الالهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت اخذ ما أخذه والقبضة المرة من القبض اطلقت على المقبوض مرة وقرئ بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرئ فقبصت قبصة بالصاد المهملة والاول للاخذ بجميع الكف والثاني بأطراف الاصابع ونحوهما الخضم والقضم (فنبذتها أي في الحلي المذابة فكان ماكان (وكذلك سولت لي نفسي) أي ما فعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل كذلك في الاصل النصب على انه مصدر تشبيهي اي نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لي نفسي تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لافادة تأكيد ما افاده اسم الاشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتاله أي ذلك التزيين البديع زينت لي نفسي ما فعلته لا تزيينا أدنى منه ولذلك

اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني ففيه وجهان (الاول) ان صلة والمراد ما منعك أن تتبعني (والثاني) أن يكون المراد ما دعاك الى ان لا تتبعني فأقام منعك مقام دعاك وفي الاتباع قولان (أحدهما) ما منعك من اتباعي بمن أطاعك واللحوق بي وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء (والثاني) ان تتبعني في وصيتي اذ قلت لك اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال أفعصيت أمري ومعناه ظاهر وهذا يدل على ان تارك المأمور به عاص والعاصي مستحق للعقاب لقوله ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولقوله ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها فمجموع الآيتين يدل على ان الامر للوجوب فأجاب هرون عليه السلام وقال يا ابن أم قيل انما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه وقيل كان أخاه لامه لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي واعلم انه ليس في القرآن دلالة على انه فعل ذلك فان النهي عن الشئ لا يدل على كون المنهي فاعلا للمنهي عنه كقوله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله لئن أشركت ليحبطن عملك والذي فيه انه أخذ برأس أخيه يجره اليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الاغراض على ما بيناه ومن الناس من يقول انه أخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ولقائل أن يقول ان قول موسى عليه السلام ما منعك أن لا تتبعني افعصيت أمري يدل على انه أمره بشئ فكيف يحسن في جوابه ان يقال انما لم أمتثل قولك خوفا من أن تقول ولم ترقب قولي فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل (والجواب) لعل موسى عليه السلام انما أمره بالذهاب اليه بشرط أن لا يؤدي ذلك الى فساد في القوم فلما قال موسى ما منعك أن لا تتبعني قال لانك انما أمرتني باتباعك اذا لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقبا لقولك * قال الامام أبو القاسم الانصاري الهداية أنفع من الدلالة فان السحرة كانوا أجانب عن الايمان وما رأوا الآية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد في الدنيا ولم يرجعوا عن الايمان وأما قومه فانهم رأوا انقلاب العصا ثعبانا والتقم كل ما جمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وانه أمر الهي ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر اثنى عشر طريقا وان الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم ثم ان هؤلاء مع ما شاهدوا من هذه الآيات كما خرجوا من البحر ورأوا قوما يعبدون البقر قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ولما سمعوا صوتا من عجل عكفوا على عبادته وذلك يدل على انه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية قرأ حمزة والكسائي يا ابن أم بكسر الميم والاضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره يا ابن أماه والله أعلم

* قوله تعالى (قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فان لك في الحياة ان تقول لا مساس

فعلته وحاصل جوابه أن مافعله انما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغوائها لابشىء اخر من البرهان العقلى أو الالهام الالهى فعند ذلك (قال) عليه السلام (فاذهب) أى من بين الناس وقوله تعالى (فان لك فى الحياة) الخ تعليل لموجب الامر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك أى ثابت لك فى الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ماهو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى (أن تقول لامساس) لمكان أن أى ثابت لك كائنا فى الحياة أى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجىء اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لايكاد يمس أحدا أو يمسه أحد كائنا من كان الا حم من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجىء الى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال ان قومه باق فيهم تلك الحالة الى اليوم وقرىء لامساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة مابينهما من مناسبة التضاد فانه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من أسباب موت الاحياء (وان لك موعدا) اى فى الآخرة (لن تخلفه) أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرىء بكسر اللام والاظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفا وقرىء بالنون على حكاية قوله ﴿ ذكره ﴾

وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شىء علما) اعلم ان موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له فى التأخير أقبل على السامرى ويجوز أن يكون قد كان حاضرا مع هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون أخذ فى التكلم مع السامرى ويجوز أن يكون بعيدا ثم حضر السامرى من بعد أو ذهب اليه موسى ليخاطبه فقال موسى عليه السلام ما خطبك ياسامرى والخطب مصدر خطب الامر اذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيئا ما خطبك معناه ما طلبك له والغرض منه الانكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامرى عذره فى ذلك فقال بصرت بما لم يبصروا به وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرىء بصرت بما لم يبصروا به بالكسر وقرأ حمزة والكسائى بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أى بما لم يبصر به بنو اسرائيل (المسئلة الثانية) فى الابصار قولان قال أبو عبيدة علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير أى عالم وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال الزجاج فى تقريره أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيرا عالما وقال آخرون رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد انه رأى دابة جبريل عليه السلام فاخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قبصة بضم القاف وهى اسم للمقبوض كالغرفة والمضغة وأما القبضة فالمرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرىء أيضا فقبصت قبصة بالضاد والصاد فالضاد بجميع الكف والصاد باطراف الاصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه قرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول (المسئلة الثانية) عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا انه متى رآه فقال الاكثرون انما رآه يوم فلق البحر وعن على رضى الله عنه ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام الى الطور أبصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى أن السامرى كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رآه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بنى اسرائيل فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لايشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به بمعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم الاصفهانى ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى

ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان و يقبض أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والمسئلة عن الامر الذي دعاه الى اضلال القوم في باب العجل فقال بصرت بما لم يبصروا به أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أي شيئا من سنتك ودينك فقذفته أي طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بماله من العذاب في الدنيا والآخرة انما أورد بلفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له مايقول الامير في كذا وبماذا يأمر الامير وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال واعلم ان هذا القول الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه الا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) انه لابد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والاضمار خلاف الاصل (وثالثها) انه لابد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف ان لتراب حافر فرسه هذا الاثر والذي ذكروه من ان جبريل عليه السلام هو الذي رباه فبعيد لان السامري ان عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى عليه السلام نبي صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ماعرفه حال البلوغ فأي منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياله حال الطفولية في حصول تلك المعرفة (ورابعها) انه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول فلعل موسى عليه السلام اطلع على شئ آخر يشبه ذلك فلاجله اتى بالمعجزات و يرجع حاصله الى سؤال من يطعن في المعجزات و يقول لم لايجوز أن يقال انهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الادوية التي لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية أما قوله وكذلك سولت لي نفسي فالمعنى فعلت مادعتني اليه نفسي وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم يدعني الى مافعلته أحد غيري بل اتبعت هواي فيه ثم ان موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامري أجابه بأن بين حاله في الدنيا والآخرة و بين حال الهه أما حاله في الدنيا فقوله فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لامساس وفيه وجوه (أحدها) ان المراد اني لا أمس ولا أمس قالوا واذا مسه أحد حم الماس والممسوس فكان اذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفا من الحمى وقال لامساس (وثانيها) ان المراد بقوله لامساس المنع من أن يخالط أحدا أو يخالطه أحد وقال مقاتل ان موسى عليه السلام أخرجه من محلة بني اسرائيل و قال له اخرج أنت واهلك فخرج طريدا الى البراري

عز وجل (وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا) أي ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الاولى تخفيفا وقرئ بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها (لنحرقنه) ﴿١٠١﴾ جواب قسم محذوف أي بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الاحراق وقيل بالمبرد على انه مبالغة في حرق اذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه (ثم لننسفنه) أي لنذرينه وقرئ بضم السين (في اليم) رمادا أو مبرودا كأنه هباء (نسفا) بحيث لايبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الامر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف في وعده المؤكد باليمين (انما الهكم الله) استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه الى الكل أي انما معبودكم المستحق للعبادة الله (الذي لا اله) في الوجود لشئ من الاشياء (الا هو) وحده من غير أن يشاركه شئ من الاشيا بوجه من الوجوه التي من جملتها أحكام الالوهية وقرئ الله لا اله الا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى (وسع كل شئ علما) أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل انما الهكم الله الذي وسع كل شئ علما لاغيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أوليا وقرئ وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما على المفعولية لانه على القراءة الاولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل الى التعدية الى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شئ وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير

أمر التوحيد جسبما أنطقت به خاتمته وقوله تعالى (كذلك نقص عليك) كلام مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل امثال مامر من انباء الامم السالفة وذلك اشارة الى اقتصاص حديث موسى عليه السلام ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك (من أنباء ماقد سبق) من الحوادث الماضية الجارية على الامم الخالية قصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من أنباء فى حيز النصب اما على انه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على انه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى ومنادون ذلك أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض انباء ماقد سبق أو بعضا كائنا من انباء ماقد سبق وقدمر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن عليك لمامر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ماذكر من الانباء لاقصاناقصاعنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من امتك (وقدآتيناك من لدناذكرا) اى كتابا منطويا على هذه الاقاصيص والاخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لمامان مرجع

❁ اعترض الواحدى عليه فقال الرجل اذا صار مهجور افلا يقول هو لامساس وانما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لان الرجل اذا بقى طريدا فريدا فاذا قيل له كيف حالك فله أن يقول لامساس اى لايماسنى أحد ولاأماس أحدا والمعنى انى اجعلك ياسامرى فى المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل الا انه لامساس وهذا الوجه أحسن وأقرب الى نظم الكلام من الاول (وثانيها) ماذكره أبومسلم وهو أنه يجوز فى حمله ماأريد مسى النساء فيكون من تعذيب الله اياه انقطاع نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتى الدنيا اللتين ذكرهما بقوله المال والبنون زينة الحياة الدنيا وقرئ لامساس بوزن فجار وهو اسم علم للمرة الواحدة من المس وأماشرح حاله فى الآخرة فهو قوله وان لك موعدا لن تخلفه والموعد بمعنى الوعد أى هذه عقوبتك فى الدنيا ثم لك الوعد بالمصير الى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين قرأ أهل المدينة والكوفة لن تخلفه بفتح اللام أى لن تخلف ذلك الوعد أى سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أى تجئ اليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبى عبيد كأنه قال موعدا حقا لاخلف فيه وعن ابن مسعود لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه فى قوله لأهب لك وأماشرح حال الهه فهو قوله وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا قال المفضل فى ظلت انه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك ظلتم تفكهون وأصله ظللت فحذفت اللام الاولى وذلك انما يكون اذا كانت اللام الثانية ساكنة تستحب العرب طرح الاولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة اليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون فى المضاعف يقولون مسته ومسسته ثم قال لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا وفى قوله لنحرقنه وجهان (أحدهما) المراد احراقه بالنار وهذا أحد ما يدل على انه صار لحما ودما لأن الذهب لايمكن احراقه بالنار وقال السدى أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفى حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه (وثانيهما) لنحرقنه أى لنبردنه بالمبرد يقال حرقه يحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على انه لم ينقلب لحما ولادما فان ذلك لايصح أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال انه صار لحما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعنى لنبردنه واعلم أن موسى عليه السلام لمافرغ من أبطال ماذهب اليه السامرى عاد الى بيان الدين الحق فقال انما الهكم أى المستحق للعبادة والتعظيم الله الذى لااله الاهو وسع كل شئ علما قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لايعبده ❁ قوله تعالى

(كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ فى الصور نحشر المجرمين ❁

المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة أن لبثتم الا يوما) اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا أتبعه بقوله كذلك نقص عليك من سائر اخبار الامم وأحوالهم تكثيرا لشأنك وزيادة فى معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها فى الدين وقد آتيناك من لدنا ذكرا يعنى القرآن كما قال تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وانه لذكر لك والقرآن ذى الذكر ما يأتيهم من ذكر يا أيها الذى نزل عليه الذكر ثم فى تسمية القرآن بالذكر وجوه (أحدها) انه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم (وثانيها) أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال وانه لذكر لك ولقومك واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرا فقال فاسئلوا اهل الذكر وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه (أولها) قوله من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذى يثقل على الحامل وينقض ظهره أولانها جزاء الوزر وهو الاثم وقرئ يحمل ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين (أحدهما) انه يكون مخلدا مؤبدا (والثانى) قوله وساء لهم يوم القيامة حملا أى وما أسوأ هذا الوزر حملا أى محمولا وحملا منصوب على التمييز (وثانيها) يوم ينفخ فى الصور فالمراد بيان ان يوم القيامة هو يوم ينفخ فى الصور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله ونحشر وقرأ الباقون ينفخ على ما لم يسم فاعله ونحشر بالنون لان النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى وقرئ يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لاسرافيل عليه السلام وأما يحشر المجرمين فلم يقرأ به الا الحسن وقرئ فى الصور بفتح الواو وجمع صورة (المسئلة الثانية) فى الصور قولان (أحدهما) انه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس الى المحشر (والثانى) انه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه ويدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والاول أولى لقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور والله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا ومن عادة الناس النفخ فى البوق عند الاسفار وفى العساكر (المسئلة الثالثة) المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لان قوله بعد ذلك ونحشر المجرمين يومئذ زرقا كالدلالة على ان النفخ فى الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا أما قوله ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة قوله المجرمين يتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله الها آخر وقد تقدم هذا الكلام (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بالزرقة على وجوه (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى زرق العيون سود الوجوه وهى زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك فان قيل أليس ان الله تعالى أخبر انهم

الافادة فى الجملة كون الموئى من لدنه تعالى ذكرا عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذكر موئى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طول بما بعد من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم (من اعرض عنه) عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين وقيل عن الله عز وجل ومن اما شرطية أو موصولة وايا ما كانت فالجملة صفة لذكرا (فانه) اى المعرض عنه (يحمل يوم القيامة وزرا) أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره ولانها جزاء الوزر وهو الاثم والاول هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى (خالدين فيه) اى فى الوزر أى فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما ان الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع اهلها كما ان الافراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر الى لفظها (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم واعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الامر (يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم القيامة أو منصوب باضمار اذكر أو ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم

يجمع الله الرسل وقوله تعالى يوم يحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرئ ننفخ بالنون على اسناد النفخ الى الامر به تعظيما له
وبالياء المفتوحة على ان ضميره لله عز وجل أو لاسرافيل عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته (ونحشر المجرمين يومئذ)
أي يوم اذ ينفخ في الصور وذكره صريحا مع تعين أن الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل وقرئ ويحشر المجرمون (زرقا)
أي حال كونهم زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة اسوأ ﴿١٠٤﴾ الوان العين وأبغضها الى العرب فان الروم
الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميا لان حدقة الاعمى تزرق وقوله تعالى (يتخافتون بينهم) أي يخفضون أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف لبيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من المجرمين أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة (ان لبثتم) أي ما لبثتم في الدنيا (الا عشرا) أي عشر ليال استقصارا لمدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا انهم استحقوها على اضاعتها في قضاء الاوطار واتباع الشهوات أو في القبر وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذي كانوا ينكرونه في الدنيا
ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقا لسرعة وقوعه كأنهم قالوا
قد بعثتم وما لبثتم في القبر الا مدة يسيرة والا فحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور وان
واستقصارها والتأسف عليها (نحن أعلم بما يقولون) وهو مدة لبثهم (اذ يقول امثلهم طريقة) أي أعدلهم رأيا
أو عملا (ان لبثتم الا يوما) ونسبة هذا القول الى أمثلهم استرجاع منه تعالى له لكن

يحشرون عميا فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى في حال وأزرق في حال
(وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبي زرقا أي عميا قال الزجاج يخرجون بصراء في
أول مرة ويعمون في المحشر وسواد العين اذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون أعمى وقد
قال تعالى انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وشخوص البصر من الاعمى محال وقد قال
في حقهم اقرأ كتابك والاعمى كيف يقرأ فالجواب ان أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال
أبو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والازرق شاخص لانه لضعف بصره يكون
محدقا نحو الشيء يريد أن يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله انما يؤخرهم
ليوم تشخص فيه الابصار (ورابعها) زرقا عطاشا هكذا رواه ثعلب عن ابن الاعرابي قال
لانهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى
ونسوق المجرمين الى جهنم وردا (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الاعرابي قال طامعين فيما
لا ينالونه (الصفة الثالثة) من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى يتخافتون بينهم ان
لبثتم الا عشرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يتخافتون أي يتسارون يقال خفت يخفت
وخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى فلا تسمع الا همسا وانما يتخافتون
لانه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لانهم صاروا بسبب الخوف في نهاية
الضعف فلا يطيقون الجهر (المسئلة الثانية) اختلفوا في ان المراد بقوله ان لبثتم اللبث
في الدنيا أو في القبر فقال قوم أرادوا به اللبث في الدنيا وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك
واحتجوا عليه بقوله تعالى قال كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم
فاسأل العادين فان قيل اما أن يقال انهم نسوا قدر لبثهم في الدنيا أو ما نسوا ذلك والاول
غير جائز اذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة في بلد ثم ينساه والثاني غير جائز لانه
كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا فيه وجوه (أحدها)
لعلهم اذا حشروا في أول الامر وعاينوا تلك الاهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن
مقدار عمرهم في الدنيا وما ذكروا الا القليل فقالوا ليتنا ما عشنا الا تلك الايام القليلة في
الدنيا حتى لا نقع في هذه الاهوال والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر
الاشياء وتمام تقريره مذكور في سورة الانعام في قوله ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله
ربنا ما كنا مشركين (وثانيها) انهم عالمون بمقدار عمرهم في الدنيا الا أنهم لما قابلوا أعمارهم
في الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها في نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا في الدنيا الا عشرة أيام
وقال أعقلهم بل ما لبثنا الا يوما واحدا أي قدر لبثنا في الدنيا بالقياس الى قدر لبثنا في
الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم وانما خص العشرة والواحد بالذكر
لان القليل في أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه الا بالعشرة والواحد (وثالثها) انهم لما
عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لان أيام
السرور قصار (ورابعها) ان أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والذاهب

لا لكونه أقرب الى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول (و يسألونك عن الجبال) أى عن مال أمرها وقد سأل عنه رجل
من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء (فقل ينسفها ربى نسفا) أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح
فتفرقها والفاء للمسارعة الى الزام السائلين (فيذرها) الضمير اما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى
مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الارض بعد نسف ما نتأ

وان طالت مدته قليل بالقياس الى الآتى وان قصرت مدته فكيف والامر بالعكس
ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ فى التقليل فقال اذ يقول أمثلهم طريقة
ان لبثتم الا يوما (القول الثانى) ان المراد منه اللبث فى القبر ويعضده قوله تعالى ويوم تقوم
الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم
والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فأما من جوز الكذب على أهل القيامة
فلا اشكال له فى الآية أما من لم يجوز فقال ان الله تعالى لما أحياهم فى القبر وعذبهم ثم
أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم فى القبر كم كان فخطر ببال بعضهم انه
فى تقدير عشرة أيام وقال آخرون انه يوم واحد فلما وقعوا فى العذاب مرة أخرى تمنوا
زمان الموت الذى هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب (المسئلة الثالثة)
الاكثرون على ان قوله ان لبثتم الا عشرا أى عشرة ايام فيكون قول من قال ان لبثتم
الا يوما أقل وقال مقاتل ان لبثتم الا عشرا أى عشر ساعات كقوله كأنهم يوم يرونها
لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وعلى هذا التقدير يكون اليوم اكثر والله اعلم واعلم انه
سبحانه وتعالى بين بهذا القول عظم ما نالهم من الحيرة التى دفعوا عندها الى هذا الجنس من
التخافت ✻ قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا
لاترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن
فلا تسمع الا همسا يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا يعلم ما بين
ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما
ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) اعلم انه تعالى لما وصف
أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال ويسألونك عن الجبال وفى تقرير هذا
السؤال وجوه (أحدها) ان قوله يتخافتون وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك
فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت (وثانيها) قال
الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم
على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يا محمد انك تدعى ان الدنيا ستنقضى فلو صح
ماقلته لوجب أن تبتدى أولا بالنقصان ثم تنتهى الى البطلان لكن أحوال العالم باقية كما
كانت فى أول الامر فكيف يصح ماقلته من خراب الدنيا وهذه شبهة تمسك بها جالينوس
فى ان السموات لا تفنى قال لانها لو فنيت لابتدأت فى النقصان أولا حتى ينتهى نقصانها
الى البطلان فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا ان القول بالبطلان باطل ثم أمر الله تعالى رسوله
بالجواب عن هذا السؤال وضم الى الجواب أمورا أخر فى شرح أحوال القيامة
واولها (الصفة الاولى) قوله فقل ينسفها ربى نسفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما
قال فقل مع فاء التعقيب لان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر
فلا جرم أمره بالجواب مقرونا بفاء التعقيب لان تأخير البيان فى مثل هذه المسئلة

منها ونشز واما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل (قاعا صفصفا) لان الجبال اذا سويت وجعل سطحها مساويا بالسطوح سائر أجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لا نبات فيه ولا بناء والصفصف الارض المستوية الملساء كان أجزاءه صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب اوهو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى (لاترى فيها) أى فى مقار الجبال اوفى الارض على ما مر من التفصيل (عوجا) بكسر العين أى اعوجاجا كأنه
لغاية خفائه من قبيل ما فى المعانى أى لاتدركه ان تأملت بالمقاييس الهندسية (ولا أمتا) أى نتوأ يسيرا
استئناف مبين لكيفية ما سبق من القاع الصفصف وحال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية
وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من طول

الاصولية غيرجائز أما فى المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هنا قل من غير حرف
التعقيب (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله ينسفها عائد الى الجبال والنسف التذرية أى
تصير الجبال كالهباء المنثور وتذرى تذرية فاذا زالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق
قوله يتخافتون قال الخليل ينسفها أى يذهبها ويطيرها أما الضمير فى قوله فيذرها فهو عائد
الى الارض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما فى عادة الناس من الاخبار عنها بالاضمار
كقولهم ما عليها أكرم من فلان وقال تعالى ما ترك على ظهرها من دابة وانما قال فيذرها
قاعا صفصفا ليبين أن ذلك النسف لا يزيل الاستواء لئلا يقدر انها لما زالت من موضع الى
موضع آخر صارت هناك حائلة هذا كله اذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على
كيفية المخافتة أما لو كان الغرض من السؤال ما ذكرنا من انه لا نقصان فيها فى الحال
فوجب أن لا ينتهى أمرها الى البطلان كان تقرير الجواب ان بطلان الشئ قد يكون
بطلانا يقع توليديا فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلانا يقع دفعة
واحدة وههنا لا يجب تقديم النقصان على البطلان فبين الله تعالى انه يفرق تركيبات هذا
العالم الجسمانى دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا الى تقديم النقصان على البطلان
(المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف الارض ذلك الوقت بصفات (احداها) كونها قاعا وهو
المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذى لا نبات عليه وقال
أبو مسلم القاع الارض الملساء المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله لا ترى فيها
عوجا ولا أمتا وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج
بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الاعيان فان قيل الارض عين فكيف صح فيها
المكسور العين قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع فى وصف الارض بالاستواء ونفى
الاعوجاج وذلك لانك لو عمدت الى قطعة أرض فسويتها وبالغت فى التسوية فاذا قابلتها
المقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعا من العوج خارجة عن الحس البصرى قال فذلك
بالقدر من الاعوجاج لما لطف جدا ألحق بالمعانى فقيل فيه عوج بالكسر واعلم أن هذه
الآية تدل على أن الارض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لان المضلع لا بد وأن يتصل بعض
سطوحه بالبعض لا على الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها)
الامت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى ما فيه أمت وتحصل من هذه الصفات الاربع
أن الارض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف
والاعوجاج (الصفة الثانية) ليوم القيامة قوله يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وفى
الداعى قولان (الاول) ان ذلك الداعى هو النفخ فى الصور وقوله لا عوج له أى لا يعدل
عن أحد بدعائه بل يحشر الكل (الثانى) انه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادى
ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى ربك للحساب
والجزاء فيسمعون صوت الداعى فيتبعونه ويقال انه اسرافيل عليه السلام يضع قدمه على

(يومئذ) اى يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو
ظرف لقوله تعالى (يتبعون الداعى) وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك أى يتبع الناس داعى الله عز وجل الى المحشر وهو
اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال
المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب الى صوبه (لا عوج له) لا يعوج له
مدعو ولا يعدل عنه (وخشعت الاصوات للرحمن) أى خضعت لهيبته (فلا تسمع الا همسا) أى صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت أخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها الى المحشر (يومئذ) أى يوم اذ يقع ما ذكر من الامور الهائلة (لا تنفع الشفاعة) من الشفعاء أحدا (الا من أذن له الرحمن) أن يشفع له (ورضى له قولا) أى ورضى لاجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لاجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل
اليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه أصلا كما فى قوله تعالى لا يملكون
الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له
ربما يوهم امكان صدورها ممن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم واما قوله تعالى ولا يقبل

الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الاحياء أو بعده قلنا ان كان المقصود بالدعاء
اعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الاحياء لان دعاء الميت عبث وان لم يكن المقصود
اعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفا للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز
قبل الاحياء (الصفة الثالثة) قوله وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وفيه
وجوه (أحدها) خشعت الاصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع الا همسا
وهو الذكر الخفى قال أبو مسلم وقد علم الانس والجن بان لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم
صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاما يفهم بتحريك الشفتين
لضعفه وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه
(وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد الهمس وطء
الاقدام فالمعنى انه لا تسمع الا خفق الاقدام ونقلها الى المحشر (الصفة الرابعة) قوله
يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا قال صاحب الكشاف من
يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوبا فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف
اليه أى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من اذن له الرحمن والنصب على المفعولية وأقول
الاحتمال الثانى أولى لوجوه (الاول) ان الاول يحتاج فيه الى الاضمار وتغيير الاعراب
والثانى لا يحتاج فيه الى ذلك (والثانى) ان قوله تعالى لا تنفع الشفاعة يراد به من يشفع
بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لا تنفع الشفاعة أحدا من الخلق الا شخصا مرضيا
(والثالث) وهو أن من المعلوم بالضرورة ان درجة الشافع درجة عظيمة فهى لا تحصل
الا لمن اذن الله فيها وكان عند الله مرضيا فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى
ايضاح الواضحات أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك ايضاح الواضحات فكان
ذلك أولى اذا ثبت هذا فنقول المعتزلة قالوا الفاسق غير مرضى عند الله تعالى فوجب
أن لا يشفع الرسول فى حقه لان هذه الآية دلت على ان المشفوع له لابد وأن يكون
مرضيا عند الله واعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة فى حق الفساق
لان قوله ورضى له قولا يكفى فى صدقه أن يكون الله تعالى قد رضى له قولا واحدا من
أقواله والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولا واحدا من اقواله وهو شهادة ان لا اله الا الله
فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لان الاستثناء من النفى اثبات فان قيل انه تعالى
استثنى عن ذلك النفى بشرطين (أحدهما) حصول الاذن (والثانى) أن يكون قد رضى له
قولا فهب ان الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو انه تعالى قد رضى له قولا لكن
لم قلتم انه اذن فيه وهذا أول المسئلة قلنا هذا القيد وهو انه رضى له قولا كاف فى حصول
الاستثناء بدليل قوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه
الآية على انه لابد من الاذن فظهر من مجموعهما انه اذا رضى له قولا يحصل الاذن
فى الشفاعة واذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود (الصفة الخامسة) قوله يعلم

منها شفاعة فمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لا عدم قبولها بعد وقوعها (يعلم ما بين ايديهم) اى ما تقدمهم من الاحوال
وقيل من أمر الدنيا (وما خلفهم) وما بعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة (ولا يحيطون به علما) أى لا تحيط
علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير
لاحد الموصولين أو لمجموعهما فانهم لا يعلمون جميع ﴿ ١٠٧ ﴾ ذلك ولا تفصيل ما علموا منه (وعنت الوجوه
للحى القيوم) أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الاسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان ما لاجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الاول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من أنباء
ما قد سبق (وهو مؤمن) فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات (فلا يخاف ظلما) أى منع ثواب
مستحق بموجب الوعد (ولا هضما) ولا كسرا منه بنقص أو لا يخاف جزاء ظلم وهضم اذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم
حتى يخافهما وقرئ فلا يخف على النهى (وكذلك) عطف على كذلك نقص وذلك اشارة الى انزال ما سبق من

... مما يقع من أحوال القيامة وأهوالها اى مثل ذلك الانزال (انزلناه) اى القرآن كله واضماره من غيرسبق ذكره للايذان بنباهة شانه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان (قرآنا عربيا) ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررنا فيه بعض

الوعيد أو بعضا من الوعيد حسبما أشير اليه آنفا (لعلهم يتقون) أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل (او يحدث لهم ذكرا) اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة الى الاتقاء (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشؤنه التى يصرف عليها عباده من الاوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله (الملك) النافذ أمره ونهيه الحقيق بان يرجى وعده ويخشى وعيده (الحق) فى ملكوته وألوهيته لذاته او الثابت فى ذاته وصفاته (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك) أى يتم (وحيه) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ألقى اليه جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار الالفاظ فى الاذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع مابعدها وأمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل (وقل) أى فى نفسك (رب زدنى علما) أى سل الله عزوجل زيادة العلم فانه الموصل الى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ

مابين ايديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله بين ايديهم عائد الى الذين يتبعون الداعى ومن قال ان قوله لمن اذن له الرحمن المراد به الشافع قال ذلك الضمير عائد اليه والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والانبياء الا لمن اذن له الرحمن فى ان تشفع له الملائكة والانبياء ثم قال يعلم مابين أيديهم يعنى مابين ايدى الملائكة كما قال فى آية الكرسى وهذا قول الكلبى ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له قال مقاتل يعلم ما كان قبل ان يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم (المسئلة الثانية) ذكروا فى قوله تعالى يعلم مابين ايديهم وماخلفهم وجوها (أحدها) قال الكلبى مابين ايديهم من أمر الآخرة وماخلفهم من أمر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد مابين ايديهم من أمر الدنيا والاعمال وماخلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم مامضى ومابقى ومتى تكون القيامة (المسئلة الثالثة) ذكروا فى قوله ولا يحيطون به علما وجهين (الاول) انه تعالى بين انه يعلم مابين ايدى العباد وماخلفهم ثم قال ولا يحيطون به علما أى العباد لا يحيطون بمابين ايدهم وماخلفهم علما (الثانى) المراد ولا يحيطون بالله علما والاول أولى لوجهين (أحدهما) ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات والاقرب ههنا قوله مابين ايديهم وماخلفهم (وثانيهما) انه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم ان سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى (الصفة السادسة) قوله وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومعناه ان ذلك اليوم تعنو الوجوه أى تذل ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن لفظ العنو أخذوا العانى وهو الاسير يقال عنا يعنو عناء اذا صار أسيرا وذكر الله تعالى الوجوه وأراد به المكلفين أنفسهم لأن قوله وعنت من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير الحى القيوم قد تقدم وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الراوى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم فبين تعالى على وجه التحذير ان ذلك اليوم لا يصح الامتناع مما ينزل بالمرء من المجازاة وان حاله مخالفة لحال الدنيا التى يختار فيها المعاصى ويمتنع من الطاعات أما قوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما فالمراد بالخيبة الحرمان أى حرم الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من العفو فقالوا قوله وقد خاب من حمل ظلما يعم كل ظالم وقد حكم الله تعالى فيه بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مرارا واعلم انه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما يعنى ومن يعمل شيئا من الصالحات والمراد به الفرائض فكان عمله مقرونا بالايمان وهو كقوله ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات

﴿ فقوله ﴾

المجمل وتلاوته قبل البيان مما لاريب فى صحته ومشروعيته (ولقد عهدنا الى ادم) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماسبق
من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع مافيه من انجاز الموعود
فى قوله تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق يقال عهد اليه الملك وعزم عليه وأوعز اليه وتقدم اليه اذا أمره
ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه مابعده واللام جواب قسم محذوف أى وأقسم اوو بالله اوو تالله

فقوله فلا يخاف فى موضع جزم لكونه فى موضع جواب الشرط والتقدير فهو لايخاف
ونظيره ومن عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولارهقا وقرأ ابن كثير
فلا يخف على النهى وهو حسن لان المعنى فليأمن والنهى عن الخوف أمر بالامن والظلم
هو أن يعاقب لاعلى جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة والهضم أن ينقص من ثوابه
والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أى ضامر البطن ومنه طلعها هضيم أى لازق
بعضه ببعض ومنه انهضم طعامى وقال أبو مسلم الظلم أن ينتقص من الثواب والهضم أن
لايوفى حقه من الاعظام لان الثواب مع كونه من اللذات لايكون ثوابا الا اذا قارنه
التعظيم وقد يدخل النقص فى بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى
عن المؤمنين كلا الامرين * قوله تعالى (وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من
الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولاتعجل بالقرآن من قبل
ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما) اعلم ان قوله وكذلك عطف على قوله كذلك
نقص أى ومثل ذلك الانزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين
(أحدهما) كونه عربيا لتفهمه العرب فيقفوا على اعجازه ونظمه وخروجه عن جنس
كلام البشر (والثانى) قوله وصرفنا فيه من الوعيد أى كررناه وفصلناه ويدخل تحت
الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضى بيان الاحكام
فلذلك قال لعلهم يتقون والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره
فى سورة البقرة فى قوله والذين من قبلكم لعلكم تتقون أما قوله أو يحدث لهم ذكرا ففيه
وجهان (الاول) أن يكون المعنى انا انما أنزلنا القرآن لاجل أن يصيروا متقين أى
محترزين عما لاينبغى أو يحدث القرآن لهم ذكرا يدعوهم الى الطاعات وفعل ماينبغى وعليه
سؤالات (السؤال الاول) القرآن كيف يكون محدثا للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند
قراءته اضيف الذكر اليه (السؤال الثانى) لم اضيف الذكر الى القرآن وما اضيفت التقوى
اليه (الجواب) ان التقوى عبارة عن أن لايفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الاصلى
فلم يجز اسناده الى القرآن أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت اضافته الى
القرآن (السؤال الثالث) كلمة أو للمنافاة ولامنافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لايصح
الاتقاء الامع الذكر فما معنى كلمة أو (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين
أى لاتكن خاليا منهما فكذا ههنا (الوجه الثانى) أن يقال انا أنزلنا القرآن ليتقوا فان
لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكرا وشرفا وصيتا حسنا فعلى هذين
التقديرين يكون انزاله تقوى ثم انه تعالى لما عظم أمر القرآن اردفه بان عظم نفسه فقال
فتعالى الله الملك الحق تنبيها على مايلزم خلقه من تعظيمه وانما وصفه بالحق لان ملكه
لايزول ولايتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولاغيره أولى به فلهذا وصف بذلك وتعالى
تفاعل من العلو وقد ثبت ان علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت

لقد أمرناه و وصيناه (من قبل) أى من قبل هذا الزمان (فنسى) أى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه اوتركه ترك المنسى عنه وقرئ فنسى أى نساه الشياطين (ولم نجدله عزما) تصميم رأى وثبات قدم فى الامور اذلوكان كذلك لما ازله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء أمره من قبل أن يجرب الامور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها * عن النبى عليه الصلاة والسلام لووزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجدله عزما وقيل عزما على الذنب فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجدان كان من الوجود العلمى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الاول لكونه ظرفا وان كان من الوجود المقابل للعدم وهو الانسب لان مصب الفائدة هو المفعول
وليس فى الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق
الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى (واذقلنا للملائكة اسجدوا
لآدم) شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه واذ منصوب

على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام أى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود
تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الامور الواقعة فيه
فالامر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فاذا ذكر صارت
الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب بوجوداتها العينية أى اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه

حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه (فسجدوا الا ابليس) قد سبق الكلام فيه مرارا (أبى) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى اما محذوف أى أبى السجود كما فى قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين او غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الاباء وأظهره (فقلنا) عقيب ذلك اعتناء بنصحه (يا آدم ان هذا) الذى رأيت ما فعل (عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما) أى لا يكونن سببا لاخراجكما (من الجنة) والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما او على الاخبار بها (فتشقى) جواب للنهى
واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لأصالته فى الامور واستلزام شقائه
لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال (ان
لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) تعليل لما يوجبه النهى

الجلال وانه لا تكيفه الاوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى
انما أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغى وليقدموا على ما ينبغى وانه تعالى منزه عن التكمل
بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم فالطاعات انما تقع بتوفيقه وتيسيره والمعاصى انما تقع عدلا
منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ففيه
مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الاول) قال أبو مسلم انه من
قوله و يسألونك عن الجبال الى ههنا يتم الكلام و ينقطع ثم قوله ولا تعجل بالقرآن خطاب
مستأنف فكأنه قال و يسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثانى) روى انه عليه السلام
كان يخاف من أن يفوته منه شئ فيقرأ مع الملك فأمره بان يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ
بعد فراغه فى القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين و بين انه سبحانه
متعال عن كل ما لا ينبغى وانه موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن
يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى واذا حصل الامان عن السهو والنسيان
قال ولا تعجل بالقرآن (المسئلة الثانية) قوله ولا تعجل بالقرآن يحتمل أن يكون المراد لا تعجل
بقراءته فى نفسك و يحتمل أن لا تعجل فى تأديته الى غيرك و يحتمل فى اعتقاد ظاهره و يحتمل
فى تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره وأما قوله من قبل أن يقضى اليك وحيه فيحتمل أن
يكون المراد من قبل أن يقضى اليك تمامه و يحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى
اليك بيانه لان هذين الامرين لا يمكن تحصيلهما الا بالوحى ومعلوم انه عليه السلام
لا ينهى عن قراءته لكى يحفظه و يؤديه فالمراد اذن ان لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه
حتى يتبين بالوحى تمامه أو بيانه أوهما جميعا لانه يجب التوقف فى معنى الكلام ما لم يأت
عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا
هو التحقيق فى تفسير الآية ولنذكر أقوال المفسرين (أحدها) ان هذا كقوله تعالى
لا تحرك به لسانك لتعجل به وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه
السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له لا تعجل به الى ان يستتم
وحيه فيكون أخذك اياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهما وعلما وهذا قول
مقاتل والسدى ورواه عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن
فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى اليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها)
قال الضحاك ان أهل مكة وأسقف نجران قالوا يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك
أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحى عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمدا فأنزل الله تعالى
هذه الآية ولا تعجل بالقرآن أى بنزوله من قبل أن يقضى اليك وحيه من اللوح المحفوظ
الى اسرافيل ومنه الى جبريل ومنه اليك وقل رب زدنى علما (ورابعها) روى الحسن
أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت زوجى لطم وجهى فقال بينكما
القصاص فنزل قوله ولا تعجل بالقرآن فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصاص

فان اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الاشتهاء بما يؤدى الى
الخروج عنها والعدول عن التصريح بان له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس
البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها مالا يخفى الى ماذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش
والعرى والضحو لتذكير تلك الامور المنكرة والتنبيه على مافيهما من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ
فى التحامى عن السبب المؤدى اليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع مافيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على ماذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لا يصيبه شئ من الامور الاربعة أصلا فان الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل الى شئ من الامور المذكورة تمتع به من غير أن يصل الى حد الضرورة ووجه افراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع
فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة
الى نفى كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا
الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على

حتى نزل قوله تعالى الرجال قوامون على النساء وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الاول
أما قوله تعالى وقل رب زدنى علما فالمعنى انه سبحانه وتعالى أمره بالفزع الى الله سبحانه
فى زيادة العلم التى تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه (المسئلة الثالثة) الاستعجال
الذى نهى عنه ان كان فعله بالوحى فكيف نهى عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد وكان
الاولى تركه فلهذا نهى عنه ❊ قوله تعالى (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما
واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك
ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ
فيها ولا تضحى) اعلم ان هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام فى القرآن أولها
فى سورة البقرة ثم فى الاعراف ثم فى الحجر ثم فى الاسراء ثم فى الكهف ثم ههنا واعلم ان
فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (أحدها) انه تعالى لما قال كذلك نقص عليك من
أنباء ما قد سبق ثم انه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجازا للوعد فى قوله
كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق (وثانيها) انه لما قال وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم
يتقون أو يحدث لهم ذكرا أردفه بقصة ادم عليه السلام كأنه قال ان طاعة بنى آدم
للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فانا عهدنا الى آدم من قبل أى من قبل
هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا فى تنبيهه حيث قلنا له ان هذا عدو لك ولزوجك ثم انه
مع ذلك نسى وترك ذلك العهد فأمر البشر فى ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم
(وثالثها) انه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب زدنى علما ذكر بعده قصة آدم عليه
السلام فانه بعد ما عهد الله اليه وبالغ فى تجديد العهد وتحذيره من العدو نسى فقد دل
ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ الى الاستعانة بربه فى ان يوفقه
لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له
ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه دل على انه كان فى الجد فى أمر الدين بحيث
زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف ادم بالتفريط فى ذلك فانه تساهل فى ذلك
ولم يتحفظ حتى نسى فوصف الاول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم ان البشر لا ينفك عن
نوع زلة (وخامسها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل ضاق قلبه وقال فى نفسه
لولا انى أقدمت على ما لا ينبغى والا لما نهيت عنه فقيل له ان كنت فعلت ما نهيت عنه فانما
فعلته حرصا منك على العبادة وحفظا لاداء الوحى وان أباك أقدم على ما لا ينبغى للتساهل
وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره أما قوله تعالى ولقد عهدنا الى ادم من قبل
فلا شك ان المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهى منه كما يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم
اشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها
وفى قوله تعالى من قبل وجوه (أحدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد فى القرآن
(وثانيها) قال ابن عباس من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا اليه أن لا يأكل منها

ان نفى كل واحد من الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية
لنفى بعض اخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين وقرئ انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع
وصحة وقوع الجملة المصدرة بأن المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى افادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها
لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع ﴿١١٢﴾ فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق
فيما فى حيزهما بخلاف ما لو وقعت خبرا لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لا ريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها ما فيها من الحكم الايجابى او السلبى وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا أن يقال ان أن زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندى أن زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى افضاء معناها واجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها ﴿الى﴾

(وثالثها) أى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن أما قوله فنسى فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ونعيد ههنا منه شيأ قليلا وفى النسيان قولان (أحدهما) المراد ما هو نقيض الذكر وانما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة فى الضبط حتى تولد منه النسيان وكان الحسن رحمه الله يقول والله ما عصى قط الا بنسيان (والثانى) أن المراد بالنسيان الترك وانه ترك ما عهد اليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقرئ فنسى أى فنساه الشيطان وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال أقدم عليها مع التأويل والكلام فيه قد تقدم فى سورة البقرة وأما قوله ولم نجد له عزما ففيه ابحاث (الاول) الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وأن يكون نقيض العدم كأنه قال وعدمنا له عزما (البحث الثانى) العزم هو التصميم والتصلب ثم قوله ولم نجد له عزما يحتمل ولم نجد له عزما على القيام على المعصية فيكون الى المدح أقرب ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزما على ترك المعصية أو لم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة أو لم نجد له عزما على الاحتياط فى كيفية الاجتهاد اذا قلنا انه عليه السلام انما أخطأ بالاجتهاد وأما قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فهذا يشتمل على مسائل (احداها) أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم (وثانيتها) انه ما معنى السجود (وثالثتها) ان ابليس هل كان من الملائكة أم لا وان لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأى شئ صار مأمورا بالسجود (ورابعتها) ان هذا هل يدل على ان آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم أم لا (وخامستها) ان قوله فى صفة ابليس انه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الاباء وانه هل كان كافرا ابتداء أو كفر بسبب ذلك واعلم ان هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة أما قوله فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ففيه سؤالات (الاول) ما سبب تلك العداوة الجواب من وجوه (أحدها) أن ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله تعالى فى حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوا له (وثانيها) ان ادم كان شابا عالما لقوله وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم (وثالثها) ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (السؤال الثانى) لم قال فلا يخرجنكما من الجنة مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى الجواب لما كان بوسوسته هو الذى فعل ما ترتب عليه الخروج صح ذلك (السؤال الثالث) لم أسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما فى الفعل الجواب من وجهين (أحدهما) ان فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما ان فى ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثانى) أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة وروى انه أهبط

الى آدم ثوراً أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه أما قوله ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ وانك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على ان لا تجوع فيها فان قيل ان لا تدخل على ان فلا يقال ان ان زيدا منطلق والواو نائبة عن ان وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها قلنا الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن ان انما هى نائبة عن كل عامل فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع ان وان (المسئلة الثانية) الشبع والرى والكسوة والاكتنان فى الظل هى الاقطاب التى يدور عليها أمر الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء له فى الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيئا من أصناف الشقوة التى حذره منها حتى يبالغ فى الاحتراز عن السبب الذى يوقعه فيها وهذه الاشياء كلها كانها تفسير الشقاء المذكور فى قوله فتشقى

* قوله تعالى (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) واعلم انه سبحانه بين انه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجودا للملائكة وبين انه عرفه شدة عداوة ابليس له ولزوجه وانه لعداوته يدعوهم الى المعصية التى اذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ثم انه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الاقدام على الزلة ما اتفق والعجب ما روى عن أبى أمامة الباهلى قال لو ان أحلام بنى آدم الى قيام الساعة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى الاخرى لرجح حلمه باحلامهم ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه وأعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربى ومن تأمل فى هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله تعالى ذلك وقدره وأما قوله فوسوس اليه الشيطان فقد تقدم فى سورة البقرة انه كيف وسوس وبماذا وسوس فان قيل كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله فوسوس لهما الشيطان وأخرى بالى قلنا قوله فوسوس له

على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى ان لك عدم الجوع وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل أن لك فيها عدم ظمئك على التحقيق (فوسوس اليه الشيطان) أى أنهى اليه وسوسته أو أسرها اليه (قال) اما بدل من وسوس أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (وملك لا يبلى) أى لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قد مر تفسيره فى سورة الاعراف (وعصى س آدم ربه) بما ذكر من أكل الشجرة (فغوى) ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرئ فغوى من غوى

الفصيل اذا اتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لاولاده
عن أمثالها (ثم اجتباه ربه) أى اصطفاه وقربه اليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى
الشئ بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعته أومن جبى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام (فتاب عليه) أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول التوبة قدمر وجهه (وهدى) أى الى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فاذا أمره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته (اهبطا منها جميعا) أى انزلا من الجنة الى الارض وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الاولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ﴿ فى ﴾
(فاما يأتينكم منى هدى) من كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) وضع الظاهر موضع

معناه لاجله وقوله وسوس اليه معناه أنهى اليه الوسوسة كقوله حدث له وأسر اليه ثم بين ان تلك الوسوسة كانت بتطميعه فى أمرين (أحدهما) قوله هل أدلك على شجرة الخلد أضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها صار مخلدا بزعمه (الثانى) قوله وملك لا يبلى أى من أكل من هذه الشجرة دام ملكه قال القاضى ليس فى الظاهر ان آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبيا لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه لانه لا بد وأن يحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت وبالمعنى فآدم لما كان نبيا امتنع أن لا يعلم ذلك قلنا لا نسلم بأنه لا بد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ولم لا يجوز أن يقال لا حاجة الى الفترة أصلا وان كان ولا بد فيكفى حصول الفترة بغشى أو نوم خفيف ثم ان كان ولا بد من حصول الفترة بالموت فلم قلت النبى لا بد وأن يعلم ذلك أليس قوم منكم يقولون ان موسى عليه السلام انما سأل الرؤية لانه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل ثم ما الدليل على ان آدم كان نبيا فى ذلك الوقت فان مذهبنا ان واقعة الزلة انما حصلت قبل رسالته لا بعدها ثم ان الذى يدل على ان آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم زنى ماعز فرجم وسها رسول الله فسجد فان هذه الفاء تدل على أن الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الاكل كالمعلل باستماع قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وانما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه فانه لو رد قوله لما أقدم على الاكل بناء على قوله فثبت أن آدم عليه السلام قبل ذلك من ابليس ثم انه سبحانه بين انهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما انما جمع فقيل سوآتهما كما قال صغت قلوبكما فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما قلنا لا شك ان ذلك كالمعلق على ذلك الاكل لكن يحتمل أن لا يكون عقابا عليه بل انما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة وهى للشروع فى أول الامر وكاد لمقاربته والدنو منه (البحث الثانى) قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليه الخصاف أى يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين أما قوله وعصى آدم ربه فغوى فمن الناس من تمسك بهذا فى صدور الكبيرة عنه من وجهين (الاول) ان العاصى اسم للذم فلا ينطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثانى) ان الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشد ومثل هذا الاسم لا يتناول الا الفاسق المنهمك

المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى ايجاب اتباعه (فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة
(ومن أعرض عن ذكرى) أى عن الهدى ✻ ١١٥ ✻ الذاكر لى والداعى الى (فان له) فى الدنيا (معيشة ضنكا)
ضيقا مصدر وصف به
ولذلك يستوى فيه المذكر
والمؤنث وقرئ ضنكى
كسكرى وذلك لان مجامع
همته ومطامح نظره
مقصورة على أعراض
الدنيا وهو متهالك
على ازديادها وخائف
من انتقاصها بخلاف
المؤمن الطالب للآخرة
مع انه قد يضيق الله
تعالى بشؤم الكفر ويوسع
ببركة الايمان كما قال تعالى
وضربت عليهم الذلة
والمسكنة وقال تعالى
ولو أن أهل القرى آمنوا
واتقوا لفتحنا عليهم
بركات من السماء والارض
وقال تعالى ولو أن أهل
الكتاب آمنوا الى قوله
تعالى لاكلوا من فوقهم
ومن تحت أرجلهم وقيل
هو الضريع والزقوم
فى النار وقيل عذاب القبر
(ونحشره) وقرئ
بسكون الهاء على لفظ
الوقف وبالجزم عطفا
على محل فان له معيشة
ضنكا لانه جواب الشرط
(يوم القيامة أعمى) فاقد
البصر كما فى قوله تعالى
ونحشرهم يوم القيامة
على وجوههم عميا وبكما وصما لا أعمى عن الحجة كما قيل (قال) استئناف كما مر (رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا)
أى فى الدنيا وقرئ أعمى بالامالة فى الموضعين وفى

فى فسقه أجاب قوم عن الكلام الاول فقالوا المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون
بالواجب والندب فانهم يقولون أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب
الدواء فعصانى واذا كان الامر كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركا
للواجب بل لكونه تاركا للمندوب فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض بأنا بينا ان ظاهر
القرآن يدل على أن العاصى مستحق للعقاب والعرف يدل على انه اسم ذم فوجب
تخصيص اسم العاصى بتارك الواجب ولانه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف
الانبياء بأسرهم بأنهم عصاة فى كل حال لانهم لا ينفكون من ترك المندوب فان قيل وصف
تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد قلنا لما سلمت كونه مجازا فالاصل عدمه
أما قوله أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى قلنا لا نسلم
ان هذا الاستعمال مروى عن العرب ولئن سلمنا ذلك ولكنهم انما يطلقون ذلك اذا جزموا
على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل وانه لا يجوز الاخلال بذلك الفعل وحينئذ
يكون معنى الايجاب حاصلا وان لم يكن الوجوب حاصلا وذلك يدل على ان لفظ العصيان
لا يجوز اطلاقه الا عند تحقق الايجاب لكنا اجمعنا على ان الايجاب من الله تعالى يقتضى
الوجوب فيلزم أن يكون اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام انما كان لكونه تاركا
للواجب ومن الناس من سلم ان الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم ان المعصية
كانت من الصغائر لا من الكبائر وهذا قول عامة المعتزلة وهو أيضا ضعيف لانا بينا ان اسم
العاصى اسم للذم ولان ظاهر القرآن يدل على انه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة
وأجاب أبو مسلم الاصفهانى بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك
القول فى غوى وهذا أيضا بعيد لان مصالح الدنيا تكون مباحة ومن يفعلها لا يوصف
بالعصيان الذى هو اسم للذم ولا يقال فدلاهما بغرور وأما التمسك بقوله تعالى فغوى
فأجابوا عنه من وجوه (أحدها) انه خاب من نعيم الجنة وذلك لانه لما أكل من تلك الشجرة
ليصير ملكه دائما ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل انه غوى وتحقيقه ان الغى
ضد الرشد والرشد هو أن يتوصل بشئ الى شئ يوصل الى المقصود فمن توصل بشئ الى شئ
فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيا (وثانيها) قال بعضهم غوى أى بشم من كثرة الاكل قال
صاحب الكشاف هذا وان صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا فيقول فى
فنى وبقى فنا وبقا وهم بنو طى فهو تفسير خبيث واعلم أن الاولى عندى فى هذا الباب
والاحسم للشغب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك فى سورة البقرة
وههنا بحث لابد منه وهو ان ظاهر القرآن وان دل على ان آدم عصى وغوى لكن ليس
لاحد أن يقول ان آدم كان عاصيا غاويا ويدل على صحة قولنا أمور (أحدها) قال العتبى
يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاودا
لذلك الفعل معروفا به ومعلوم ان هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام الا مرة واحدة

الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف (قال كذلك) أى مثل ذلك فعلت أنت ثم فسره بقوله تعالى (أتتك آياتنا) واضحة نيرة بحيث لاتخفى على أحد (فنسيتها) أى عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لايذكر أصلا (وكذلك) ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا (اليوم تنسى) تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبدا كما قيل بل الى ماشاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية (نجزى من اسرف) بالانهماك فى الشهوات (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذبها وأعرض عنها (ولعذاب الآخرة) على الاطلاق أو عذاب النار (أشد وأبقى) اى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من قوله تعالى وكذلك نجزى الآية والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم فلاحاجة الى المفعول أو لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأياما كان

فوجب أن لايجوز اطلاق هذا الاسم عليه (وثانيها) انه على تقدير أن تكون هذه الواقعة انما وقعت قبل النبوة لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة اطلاق هذا الاسم عليه كما لايقال لمن أسلم بعد الكفر انه كافر بمعنى انه كان كافرا بل وبتقدير أن يقال هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضا أن يقال ذلك لانه عليه السلام تاب عنها وكان الرجل المسلم اذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لايقال له بعد ذلك انه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) ان قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا فى أكثر الاشياء وغاويا عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان فى القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التى عصى فيها فكأنه قال عصى فى كيت وكيت وذلك لايوهم التوهم الباطل الذى ذكرناه (ورابعها) انه يجوز من الله تعالى مالايجوز من غيره كما يجوز للسيد فى عبده وولده عند معصيته من اطلاق القول مالايجوز لغير السيد فى عبده وولده أما قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه اى عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع الى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لوجمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ولوجمع كل ذلك الى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر وانما سمى نوحا لنوحه على نفسه ولوجمع كل ذلك الى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر وقال وهب انه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى اليه وأمره بأن يقول لااله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسى فاغفر لى انك أنت خير الغافرين فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل لااله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسى فارحمنى انك أنت أرحم الراحمين ثم قال قل لااله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم قال ابن عباس رضى الله عنهما هذه الكلمات هى التى تلقاها آدم عليه السلام من ربه * قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) اعلم ان على أول هذه الآية سؤالا ان قوله اهبطا اما أن يكون خطابا مع شخصين أو أكثر فان كان خطابا للشخصين فكيف قال بعده فاما يأتينكم منى هدى وهو خطاب الجمع وان كان خطابا لاكثر من شخصين فكيف قال اهبطا وذكروا فى جوابه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا ولاجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله فاما يأتينكم (وثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام اصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا مخاطبتهم فقال فاما يأتينكم على لفظ الجماعة أما قوله بعضكم لبعض عدو

فقال القاضي يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون ابليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم فاذا انضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فيه دلالة على أن المراد الذرية وقد اختلفوا في المراد بالهدى فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآيات والادلة وبعضهم قال القرآن والتحقيق ان الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك وفي قوله فلا يضل ولا يشقى دلالة على ان المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الادلة واتباعها لا يتكامل الا بأن يستدل بها و بأن يعمل بها ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى في الآخرة لانه تعالى يهديه الى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لا يضل ولا يشقى في الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا قلنا المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس ولما وعد تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض فقال ومن أعرض عن ذكري والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه ويحتمل أن يراد به الادلة وقوله فان له معيشة ضنكا فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل ضنك وعيش ضنك فكأنه قال معيشة ذات ضنك واعلم ان هذا الضيق المتوعد به اما أن يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره (أما الاول) فقال به جمع من المفسرين وذلك لان المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشا طيبا كما قال فلنحيينه حياة طيبة والكافر بالله يكون حريصا على الدنيا طالبا للزيادة أبدا فعيشته ضنك وحالته مظلمة وأيضا فمن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله وقال ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (واما الثاني) وهو عذاب القبر فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عذاب القبر للكافر قال والذي نفسي بيده انه ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في الاسود بن عبد العزى المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيها اضلاعه (وأما الثالث) وهو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم فيها الضريع والزقوم وشراب الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي (وأما الرابع) وهو الضيق في أحوال الدين فقال ابن عباس رضي الله عنهما المعيشة الضنك هي أن

فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة اهلاكنا للقرون الاولى وقدمر في قوله عز وجل أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها الآية وقيل الفاعل الضمير العائد الى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم أهلكنا الخ اما معلق للفعل ساد مسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والاوجه أن لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية ومن القرون في محل النصب على انه وصف لمميز كم أي كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى (يمشون في مساكنهم) حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أي أهلكناهم وهم في حال أمن وتقلب في ديارهم أو من الضمير في لهم مؤكد للانكار والعامل يهد والمعنى أفلم يهد لهم اهلاكنا للقرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين في مساكنهم اذا سافروا الى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم مع أن ذلك مما يوجب ان يهتدوا الى الحق

تعليل للانكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك اشارة الى مضمون قوله تعالى كم أهلكنا الخ ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلوشأنه فى بابه (لآيات) كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فاذن هوهاد وأيماهادو يجوزأن تكون كلمة فى تجريدية فافهم (لاولى النهى) لذوى العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها ماتعاطاه كفارمكة من الكفربآيات الله تعالى والتعامى عنها وغيرذلك من فنون المعاصى وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع مايشعر به قوله تعالى افلم يهدلهم الآية من أن يصيبهم مثل مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الامة الى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه (لكان) عقاب جناياتهم (لزاما) أى لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لايتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم مانزل بأولئك الغابرين وفى التعرض لعنوان ﴿حاله﴾

تضيق عليه أبواب الخير فلايهتدى لشئ منها سئل الشبلى عن قوله عليه السلام اذارأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية فقال أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى الى أنفسهم وأى معيشة أضيق وأشد من أن يرد الانسان الى نفسه وعن عطاء قال المعيشة الضنك هى معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب (وأما الخامس) وهوأن يكون المراد الضيق فى كل ذلك أوأ كثره فروى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر فى الشدة وأن لايتوصل الى قوته الا بمعصية الله تعالى أماقوله تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى ففيه وجوه (أحدها) هذا مثل قوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وكما فسرت الزرقة بالعمى ثم قيل انه يحشر بصيرا فاذاسيق الى المحشر عمى والكلام فيه وعليه قد تقدم فى قوله زرقا (وثانيها) قال مجاهدوالضحاك ومقاتل يعنى أعمى عن الحجة وهى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال القاضى هذا القول ضعيف لان فى القيامة لابدأن يعلمهم الله تعالى بطلان ماكانوا عليه حتى يتميزلهم الحق من الباطل ومن هذا حاله لايوصف بذلك الامجازا والمراد به انه كان من قبل ذلك كذلك ولايليق بهذا قوله وقد كنت بصيرا ولم يكن كذلك فى حال الدنيا أقول ومما يؤكد هذا الاعتراض انه تعالى علل ذلك العمى بما ان المكلف نسى الدلائل فى الدنيا فلو كان العمى الحاصل فى الآخرة عين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر كما أنه ماكان له فى الدنيا بسبب ذلك ضرر واعلم ان تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر وهو أن الارواح الجاهلة فى الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة فى الآخرة وان تلك الجهالة تصيرهناك سببا لاعظم الآلام الروحانية وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضى المبنية على أصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائى المراد من حشره أعمى انه لايهتدى يوم القيامة الى طريق ينال منه خيرا بل يبقى واقفا متحيرا كالاعمى الذى لايهتدى الى شئ أماقوله قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ففى تقرير هذا الجواب وجهان (أحدهما) انه تعالى انما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والاعراض عنه (والثانى) هوان الارواح البشرية اذافارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية فلهذا علل الله تعالى حصول العمى فى الآخرة بالاعراض عن الدلائل فى الدنيا ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق فى الدنيا قال انه تعالى بين ان من أعرض عن ذكره فى الدنيا فله المعيشة الضنك فى الدنيا والعمى فى الآخرة أماقوله وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه فقد اختلفوا فيه فبعضهم قال أشرك وكفر وبعضهم قال أسرف فى أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله ولم يؤمن بآيات ربه لان ذلك كالتفسير لقوله أسرف وبين انه يجزى من هذا

الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بان ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبئ عنه قوله تعالى وما
كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واللزام اما مصدر لازم وصف مبالغة واما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم

حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك ان عذاب الآخرة أشد وأبقى أما الاشد فلعظمه وأما الابقى فلانه غير منقطع * قوله تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى) اعلم انه تعالى لما بين ان من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما لا يعتبر المكلف من الاحوال الواقعة فى الدنيا بمن كذب الرسل فقال أفلم يهد لهم والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله كم أهلكنا قال القفال جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم كما جعل مثل ذلك واعظا لهم وزاجرا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى أفلم نهد لهم بالنون قال الزجاج يعنى أفلم نبين لهم بيانا يهتدون به لو تدبروا وتفكروا وأما قوله كم أهلكنا فالمراد به المبالغة فى كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله يمشون فى مساكنهم ان قريشا يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم وما حل بهم من ضرب الهلاك وللمشاهدة فى ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره وبين ان فى تلك الآيات آيات لاولى النهى أى لاهل العقول والاقرب ان للنهية مزية على العقل والنهى لا يقال الا فيمن له عقل ينتهى به عن القبائح كما أن لقولنا أولو العزم مزية على أولوا الحزم فلذلك قال بعضهم أهل الورع وأهل التقوى ثم بين تعالى الوجه الذى لاجله لا ينزل العذاب معجلا على من كذب وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى وفيه تقديم وتأخير والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ولا شبهة فى أن الكلمة هى اخبار الله تعالى ملائكته وكتبه فى اللوح المحفوظ ان أمته عليه السلام وان كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال واختلفوا فيما لاجله لم يفعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لانه علم ان فيهم من يؤمن وقال آخرون علم ان فى نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك وقال آخرون المصلحة فيه خفية لا يعلمها الا هو وقال أهل السنة له بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة ان كانت قديمة لزم قدم الفعل وان كانت حادثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل فلهذا قال أهل التحقيق كل شئ صنيعه لا لعلة وأما الاجل المسمى ففيه قولان (أحدهما) ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثانى) ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا أقرب ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب الى الآخرة كقوله بل الساعة موعدهم لكان العقاب لازما لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ثم انه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة فى أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم فيحتمل

لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم (وأجل مسمى) عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لاعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد الى الاخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الاخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الاخذ العاجل (فاصبر على ما يقولون) أى اذا كان الامر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان

علمه عليه السلام بانهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه تعالى عما ينسبونه

اليه مما لا يليق بشأنه الرفيع حامد الله على ما ميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والاول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى

(قبل طلوع الشمس) الخ فان توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعنى

أن يكون ذلك قول بعضهم انه ساحر أو مجنون أو شاعر الى غير ذلك ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ويحتمل أيضا تركهم القبول منه لان كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى فى الصبر وبعثه على الادامة على الدعاء الى الله تعالى وابلاغ ما حمل من الرسالة وأن لا يكون ما يقدمون عليه صارفا له عن ذلك ثم قال الكلبى ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم قال فسبح بحمد ربك وهو نظير قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) بحمد ربك فى موضع الحال أى وأنت حامد لربك على ان وفقك للتسبيح وأعانك عليه (المسئلة الثانية) انما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لان ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة اذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى التسبيح على وجهين فالاكثرون على أن المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) ان الآية تدل على ان الصلوات الخمس لا تزيد ولا تنقص فقال ابن عباس رضى الله عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر وقبل غروبها هو الظهر والعصر لانهما جميعا قبل الغروب ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الاخيرة ويكون قوله وأطراف النهار كالتوكيد للصلاتين الواقعتين فى طرفى النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت فى قوله والصلاة الوسطى بالتوكيد (القول الثانى) ان الآية تدل على صلوات الخمس وزيادة أمادلالتها على الصلوات الخمس فلان الزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقى قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى وأطراف النهار للنوافل (القول الثالث) انها تدل على أقل من الخمس فقوله قبل طلوع الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للمغرب والعتمة فيبقى الظهر خارجا والقول الاول أقوى وبالاعتبار أولى هذا كله اذا حملنا التسبيح على الصلاة قال أبو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات وهذا القول أقرب الى الظاهر والى ما تقدم ذكره وذلك لانه تعالى صبره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن اظهار الشرك والكفر والذى يليق بذلك ان يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا اليه فلذلك قال ما يجمع كل الاوقات (المسئلة الرابعة) أفضل الذكر ما كان بالليل لان الجمعية فيه أكثر وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الاعمال ولذلك قال سبحانه وتعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا وقال أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ولان الليل وقت السكون والراحة فاذا صرف الى العبادة كانت على الانفس أشق وللبدن اتعب فكانت ادخل فى استحقاق الاجر والفضل (المسئلة الخامسة) لقائل أن يقول النهار له طرفان فكيف قال واطراف النهار بل الاولى أن يقول كما قال وأقم الصلاة طرفى النهار وجوابه من الناس من قال أقل الجمع

صلاتى الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى من ساعاته جمع انى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد (فسبح) أى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما أجمع والنفس الى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا (وأطراف النهار) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لامن الالباس كقول من قال ❊ ظهراهما مثل ظهور الترسين ❊ أو أمر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الاول من النهار وبداية النصف الاخير وجمعه باعتبار النصفين أولان النهار جنس أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار (لعلك ترضى) متعلق بسبح أى سبح فى هذه الاوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك وقرئ ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك

(ولاتمدن عينيك) أى لاتطل نظرهما بطريق الرغبة والميل (الى مامتعنابه) من زخارف الدنيا وقوله تعالى (ازواجا منهم)
اى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول

اثنان فسقط السؤال ومنهم من قال انما جمع لانه يتكرر فى كل نهار ويعود أما قوله تعالى
لعلك ترضى ففيه وجوه (أحدها) أن هذا كما يقول الملك الكبير يافلان اشتغل بالخدمة
فلعلك تنتفع به ويكون المراد انى أوصلك الى درجة عالية فى النعمة وهو اشارة الى قوله
ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (وثانيها) لعلك
ترضى ماتنال من الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ماتنال من الشفاعة وقرأ الكسائى
وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لايختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه
واذا رضيه فقد أرضاه * قوله تعالى (ولاتمدن عينيك الى مامتعنابه ازواجا منهم
زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها
لانسئلك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وقالوا لولا يأتينا باية من ربه أولم تأتهم بينة
مافى الصحف الاولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا
رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من
أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) اعلم انه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على
مايقولون وأمره بان يعدل الى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه الى مامتع به القوم
فقال تعالى ولاتمدن عينيك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله ولاتمدن عينيك
وجهان (أحدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا مد النظر تطويله وأن لايكاد
يرده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا ياليت لنا مثل
ماأوتى قارون انه لذو حظ عظيم حتى واجههم أولوا العلم والايمان بقولهم ويلكم ثواب الله
خير لمن آمن وعمل صالحا وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما اذا نظر الانسان
الى شئ مرة ثم غض ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز فى الطباع قيل ولاتمدن
عينيك أى لاتفعل ماأنت معتاد له ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن ابنية
الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمركوب وغير ذلك لانهم اتخذوا هذه الاشياء لعيون
النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها (القول الثانى) قال
أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولاتمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لاتأسف
على مافاتك مما نالوه من حظ الدنيا (المسئلة الثانية) قال أبو رافع نزل ضيف بالنبى صلى
الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى لبيع أو سلف فقال والله لاأفعل ذلك الا برهن فأخبرته
بقوله فامرنى ان أذهب بدرعه اليه فنزل قوله تعالى ولاتمدن عينيك وقال عليه السلام
ان الله لاينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم والى اعمالكم وقال
أبو الدرداء الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وعن الحسن
لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لاتتخذوا الدنيا ربا
فتتخذكم لها عبيدا وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ماعند السلاطين يتلو هذه
الآية وقال الصلاة يرحمكم الله أما قوله عز وجل الى مامتعنابه اى ألذذنا به والامتاع

منهم أى الى الذى متعنابه
وهو أصناف وأنواع
بعضهم على أنه معنى
من التبعيضية أو بعضا
منهم على حذف الموصوف
كما مر مرارا (زهرة الحيوة
الدنيا) منصوب بمحذوف
يدل عليه متعنا اى اعطينا
أو به على تضمين معناه
أو بالبدلية من محل به أو من
أزواجا بتقدير مضاف
او بدونه او بالذم وهى
الزينة والبهجة وقرئ
زهرة بفتح الهاء وهى
لغة كالجهرة فى الجهرة
او جمع زاهر وصف
لهم بأنهم زاهر والدنيا
لتنعمهم وبهاء زيهم
بخلاف ماعليه المؤمنون
الزهاد (لنفتنهم فيه)
متعلق بمتعنا جئ به
للتنفير عنه ببيان سوء
عاقبته مآلا اثر اظهار
بهجته حالا أى لنعاملهم
معاملة من يبتليهم
ويختبرهم فيه أو لنعذبهم
فى الآخرة بسببه (ورزق
ربك) أى ماادخر لك
فى الآخرة أو مارزقك
فى الدنيا من النبوة
والهدى (خير) مما
منحهم فى الدنيا لانه مع
كونه فى نفسه اجل ماينافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف مامنحوه (وأبقى) فانه لايكاد
ينقطع نفسه أو أثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا (وأمر أهلك بالصلوة) أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له
من امته بالصلاة بعد ما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولايهتموا بأمر

المعيشة ولا يلتفت الى ارباب الثروة (واصطبر عليها) وثابر عليها غير مشتغل بامر المعاش (لا نسألك رزقا) أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نحن نرزقك) واياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة (والعاقبة) الحميدة (للتقوى) أى لاهل التقوى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على أن ملاك الامر هو التقوى روى انه عليه السلام كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) حكاية لبعض اقاويلهم الباطلة التى أمر عليه السلام بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى (أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى) أى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات واعظمها وأبقاها لان حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الامور الخارقة للعادات أى ﴿ منه ﴾
أمر كان ولا ريب فى أن العلم أجل الامور وأعلاها اذ هو أصل الاعمال ومبدأ الافعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الاولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيئا من العلوم ولم يدارس

الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة و يسمع من الاصوات المطربة و يشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح يقال أمتعه امتاعا ومتعه تمتيعا والتفعيل يقتضى التكثير أما قوله أزواجا منهم أى أشكالا وأشباها من الكفار وهى من المزاوجة بين الاشياء وهى المشاكلة وذلك لانهم أشكال فى الذهاب عن الصواب وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصنافا منهم وقال الكلبى والزجاج رجالا منهم ❁ أما قوله زهرة الحياة الدنيا ففى انتصابه أربعة أوجه (أحدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانيا له أو على ابداله من محل الجار والمجرور أو على ابداله من أزواجا على تقدير ذوى فان قيل ما معنى الزهرة فيمن حرك قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء فى الجهرة قرئ أرنا الله جهرة وأن يكون جمع زاهر وصفا لهم بانهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الالوان والتقشف فى الثياب أما قوله لنفتنهم فيه فذكروا فيه وجوها (أحدها) لنعذبهم به كقوله فلا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما اضلالا منى لهم (وثالثها) قال الكلبى ومقاتل تشديدا فى التكليف عليهم لان الاعراض عن الدنيا عند حضورها والاقبال الى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء الى خدمة الله تعالى والتضرع اليه أكثر من تضرع الاغنياء ولان على من أوتى الدنيا ضروبا من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولان القادر على المعاصى يكون الاجتناب عن المعاصى أشق عليه من العاجز الفقير فمن هذه الجهات تكون الزيادة فى الدنيا تشديدا فى التكليف ثم قال لرسوله ورزق ربك خير وأبقى والاظهر أن المراد أن مطلوبك الذى تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى لانه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من الدنيا ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيته من يسير الدنيا اذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى فذكر الرزق فى الدنيا ووصفه بحسن عاقبته اذا رضى به وصبر عليه ويحتمل ان يكون المراد ما اعطى من النبوة والدرجات الرفيعة واما قوله وأمر أهلك بالصلاة فمنهم من حمله على اقاربه ومنهم من حمله على كل اهل دينه وهذا أقرب وهو كقوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وان احتمل ان يكون المراد من يضمه المسكن اذ التنبيه على الصلاة والامر بها فى اوقاتها ممكن فيهم دون سائر الامة يعنى كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها أما قوله واصطبر عليها فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى عليهما السلام كل صباح ويقول الصلاة وكان يفعل ذلك أشهرا ثم بين تعالى انه انما يأمرهم بذلك لمنافعهم وانه متعال عن المنافع بقوله لا نسألك رزقا نحن نرزقك وفيه وجوه (احدها) قال ابو مسلم المعنى انه تعالى انما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد

منه ان يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج وهو كقوله تعالى وما خلقت الجن
والانس الاليعبدون ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون (وثانيها) لانسألك رزقا
لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ففرغ بالك لامر الآخرة وفى معناه قول
الناس من كان فى عمل الله كان الله فى عمله (وثالثها) المعنى انا لما امرناك بالصلاة
فليس ذلك لانا ننتفع بصلاتك فعبر عن هذا المعنى بقوله لانسألك رزقا بل نحن نرزقك
فى الدنيا بوجوه النعم وفى الآخرة بالثواب قال عبدالله بن سلام كان النبى صلى الله عليه
وسلم اذا نزل باهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية واعلم أنه ليس فى الآية
رخصة فى ترك التكسب لانه تعالى قال فى وصف المتقين رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن
ذكر الله أما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لاهل التقوى يعنى تقوى الله
تعالى ثم انه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم فكانه من تمام قوله فاصبر على
مايقولون وهى قولهم لولا يأتينا بآية من ربه أوهموا بهذا الكلام انه يكلفهم الايمان
من غير آية وقالوا فى موضع آخر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وأجاب الله تعالى عنه
بقوله أولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى وفيه وجوه (أحدها) ان مافى القرآن اذا وافق
مافى كتبهم مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالدارسة والتعلم ومارأى استاذا
البتة كان ذلك اخبارا عن الغيب فيكون معجزا (وثانيها) ان بينة مافى الصحف الاولى
مافيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته وبعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير
والقفال والمعنى أولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى من أنباء الامم التى أهلكناهم لما سألوا
الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم فى سؤال
الآيات كحال أولئك وانما أتاهم هذا البيان فى القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بينة
مافى الصحف الاولى واعلم انه انما ذكر الضمير الراجع الى البينة لانها فى معنى البرهان
والدليل ثم بين انه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة فى التكليف فقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب
من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم
فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ماعليهم ومالهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة
عليهم ومعنى من قبله يحتمل من قبل ارساله ويحتمل من قبل ماأظهره من البينات فان قيل فما
معنى قوله ولو أنا أهلكناهم لقالوا والهالك لايصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا
ذلك يوم القيامة ولذلك قال من قبل أن نذل ونخزى وذلك لايليق الا بعذاب الآخرة روى
ان أباسعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال عليه السلام يحتج على الله تعالى يوم القيامة
ثلاثة الهالك فى الفترة يقول لم يأتنى رسول والا كنت أطوع خلقك لك وتلا قوله لولا أرسلت
الينا رسولا والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لى عقلا انتفع به ويقول الصبى كنت صغيرا
لا اعقل فترفع لهم نار ويقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان فى علم الله تعالى أنه شقى ويبقى
من فى علمه انه سعيد فيقول الله تعالى لهم عصيتم اليوم فكيف برسلى لو أتوكم والقاضى طعن

أحدا من أهلها أصلا فاى معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده وفى ايراده بعنوان كونه بينة لمافى الصحف الاولى
من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية ✻ ✻ أى شاهد بحقية مافيها من العقائد الحقة وأصول الاحكام
التى أجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ماتنطق به من أنباء الامم من حيث انه غنى باعجازه عمايشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره مالايخفى من تنويه شأنه وانارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لاتيانه واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياه ماتيا به للتنبيه على اصالته فيه مع مافيه من المناسبة للبينة والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كانه قيل ألم يأتهم خاصة بينة مافى الصحف الاولى تقريرا لاتيانه وايذانا بأنه من الوضوح بحيث لايتأتى منهم انكاره أصلا وان اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرئ أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى (ولو أنا اهلكناهم بعذاب) الى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ماقبلها من كون القرآن آية بينة لايمكن انكارها ببيان انهم يعترفون بها
يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل (من قبله) متعلق بأهلكناهم أو بمحذوف هو صفة
لعذاب اى بعذاب كائن من قبل اتيان البينة أومن قبل محمد عليه الصلاة والسلام (لقالوا) أى يوم القيامة (ربنا
لولا أرسلت الينا) فى الدنيا (رسولا) مع كتاب

(فنتبع اياتك) التى جاءنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب فى الدنيا (ونخزى) بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير * ١٢٤ * فكذبنا وقلنا مانزل الله من شئ (قل)

لاولئك الكفرة المتمردين (كل) أى كل واحد منا ومنكم (متربص) منتظر لما يؤل اليه أمرنا وأمركم (فتربصوا) وقرئ فتمتعوا (فستعلمون) عن قريب (من أصحاب الصراط السوى) أى المستقيم قرئ السواء اى الوسط الجيد وقرئ السوء والسوءى والسوى تصغير السوء (ومن اهتدى) من الضلالة ومن فى الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها مابعدها والجملة سادة مسد مفعولى العلم اومفعوله و يجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب او على الصراط وقيل العائد فى الاولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار وقال لايقرأ أهل الجنة من القرآن الاسورة طه و يس * سورة الانبياء مكية وهى مائة واثنتا عشرة آية) * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (اقترب للناس حسابهم) مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها * وثالثها * من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد

فى الخبر وقال لايحسن العقاب على من لايعقل واعلم أن فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الجبائى هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف اذ المراد انه يجب أن يفعل بالمكلفين مايؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن وهلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وان كان فى المعلوم أنهم لايؤمنون ولو بعث اليهم الرسول لم يكن فى ذلك حجة فصح انه انما يكون حجة لهم اذا كان فى المعلوم انهم يؤمنون عنده اذا أطاعوه (المسئلة الثانية) قال الكعبى قوله لولا أرسلت الينا رسولا أوضح دليل على انه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وانه ليس قوله لايسال عما يفعل كما ظنه أهل الجبر من انما هو جورمنا يكون عدلا منه بل تأويله انه لايقع منه الا العدل فاذا ثبت انه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة (المسئلة الثالثة) قال أصحابنا الآية تدل على أن الوجوب لايتحقق الا بالشرع اذ لو تحقق العقاب قبل مجئ الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجئ الشرع والآية تنفى تحقق العقاب قبل مجئ الشرع ثم انه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال قل كل متربص أى كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت امابسبب الامر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة و يحتمل ان يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه و يحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب فانه يتميز فى الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى وعلى المبطل من أنواع اهانته فستعلمون عند ذلك من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار والله أعلم

(سورة الانبياء عليهم السلام مائة واثنتا عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الابشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) اعلم أن قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فيه مسائل (المسئلة الاولى) القرب لايعقل الا فى المكان والزمان والقرب المكانى ههنا ممتنع فتعين القرب الزمانى والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام الجواب من ثلاثة أوجه (أحدها) انه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى و يستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (وثانيها) أن كل آت قريب وان طالت أوقات ترقبه وانما البعيد هو الذى انقرض قال الشاعر

فلازال ماتهواه أقرب من غد * ولازال ماتخشاه أبعد من أمس

بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب
اليه لا الى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها

من الاحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى

(وثالثها) ان المعاملة اذا كانت مؤجلة الى سنة ثم انقضى منها شهر فانه لا يقال اقترب الاجل اما اذا كان الماضى أكثر من الباقى فانه يقال اقترب الاجل فعلى هذا الوجه قال العلماء ان فيه دلالة على قرب القيامة ولهذا الوجه قال عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين ولهذا الوجه قيل انه عليه السلام ختم به النبوة كل ذلك لاجل ان الباقى من مدة التكليف أقل من الماضى (المسئلة الثالثة) انما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب الى تلافى الذنوب والتحرز عنها خوفا من ذلك والله أعلم (المسئلة الرابعة) انما لم يعين الوقت لاجل أن كتمانه أصلح كما أن كتمان وقت الموت أصلح (المسئلة الخامسة) الفائدة فى تسمية يوم القيامة بيوم الحساب ان الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم (المسئلة السادسة) يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل فى الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون وهذا من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى وهم فى غفلة معرضون فاعلم انه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والاعراض أما الغفلة فالمعنى انهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسىء ثم اذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم أما قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن أبى عبلة محدث بالرفع صفة للمحل (المسئلة الثانية) انما ذكر الله تعالى ذلك بيانا لكونهم معرضين وذلك لان الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتا فوقتا ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على اسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون فما يزيدهم ذلك الا لعبا واستسخارا (المسئلة الثالثة) المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث بيان ان القرآن ذكر قوله تعالى فى صفة القرآن ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وانه لذكر لك ولقومك وقوله ص والقرآن ذى الذكر وقوله انا نحن نزلنا الذكر وقوله ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وهذا ذكر مبارك أنزلناه وبيان ان الذكر محدث قوله فى هذا الموضع ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله فى سورة الشعراء ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ثم قالوا فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص فى ان القرآن محدث والجواب من وجهين (الاول) ان قوله ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وهذا ذكر مبارك اشارة الى المركب من الحروف والاصوات فاذا ضممنا اليه قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لزم حدوث المركب من الحروف والاصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة وانما النزاع فى قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثانى) ان قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لا يدل على حدوث كل ما كان ذكرا بل على ذكر ما محدث كما ان قول القائل لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل الا

بيان غفلتهم عنه واعراضهم عما يذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة الى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من أول الامر مما يسوءهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لاجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه وجعلها تأكيدا للاضافة على أن الاصل المتعارف فيما بين الاوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع انه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وانما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى اسناد الاقتراب المنبىء عن التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شانه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شىء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان أقرب اليهم منه فى الساعة السابقة هذا

يبغضونه فانه لايدل على ان كل رجل يجب أن يكون فاضلا بل على ان فى الرجال من هو
فاضل واذا كان كذلك فالآية لاتدل الاعلى ان بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا
القرآن ذكر و بعض الذكر محدث وهذا لاينتج شيئا كما ان قول القائل الانسان حيوان
و بعض الحيوان فرس لا ينتج شيئا فظهر ان الذى ظنوه قاطعا لايفيد ظنا ضعيفا فضلا عن
القطع أما قوله الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان
ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لان الانتفاع بما يسمع لايكون الا بما يرجع الى
القلب من تدبر وتفكر واذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذى قد
تشارك البهيمة فيه الانسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله لاهية قلوبهم واللاهية من لهى عنه
اذا ذهل وغفل وانما ذكر اللعب مقدما على اللهو كما فى قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب
ولهو تنبيها على ان اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والاستهزاء معلل باللهو والذى
معناه الذهول والغفلة فانهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق والله أعلم
بالصواب (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان
مترادفان أو متداخلان ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة لان لاهية قلوبهم خبر بعد خبر
لقوله وهم أما قوله وأسروا النجوى الذين ظلموا ففيه سؤالان (الاول) النجوى وهى اسم
من التناجى لا تكون الاخفية فما معنى قوله وأسروا النجوى (الجواب) معناه بالغوا فى
اخفائها و جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم (السؤال الثانى) لم قال وأسروا النجوى
الذين ظلموا (الجواب) أبدل الذين ظلموا من أسروا اشعارا بانهم هم الموسومون بالظلم
الفاحش فيما اسروا به أو جاء على لغة من قال أكلونى البراغيث او هو منصوب المحل على الذم
أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر
موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم أما قوله هل هذا الابشر مثلكم افتأتون السحر وأنتم
تبصرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله فى محل
النصب بدلا من النجوى أى وأسروا هذا الحديث و يحتمل أن يكون التقدير وأسروا
النجوى وقالوا هذا الكلام (المسئلة الثانية) انما أسروا هذا الحديث لوجهين (أحدهما)
انه كان شبهة التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم أمره وعادة
المتشاورين أن يجتهدوا فى كتمان سرهم عن أعدائهم (الثانى) يجوز ان يسروا نجواهم
بذلك ثم يقولوا لرسول الله والمؤمنين ان كان ماتدعونه حقا فاخبرونا بما أسررناه (المسئلة
الثالثة) انهم طعنوا فى نبوته بأمرين (أحدهما) انه بشر مثلهم (والثانى) ان الذى أتى به
سحر وكلا الطعنين فاسد (اما الاول) فلان النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لاعلى
الصور اذ لو بعث الملك اليهم لما علم كونه نبيا لصورته وانما كان يعلم بالعلم فاذا ظهر ذلك
على من هو بشر فيجب ان يكون نبيا بل الاولى أن يكون المبعوث الى البشر بشرا لان
المرء الى القبول من اشكاله اقرب وهو به آنس (واما الثانى) وهو ان ماتى به الرسول

وأما الاعتذار بان قربه بالاضافة الى مامضى من الزمان أو بالنسبة الى الله عزوجل او باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له
بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة اليه فى تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه
عرفا كونه قريبا فى نفسه أيضا فيصار حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول دون الاخيرين أما الثانى فلا سبيل الى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى مما لايتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وانما اعتباره فى قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لا دلالة فيه على الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة الى شئ آخر (وهم فى غفلة) أى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لا انهم غير مبالين به مع اعترافهم باتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الاعمال لابد لها من الجزاء (معرضون) أى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة أمرا جبليا لهم جعل الخبر الاول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الاعراض والجملة
حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون (ما يأتيهم من ذكر) من طائفة نازلة ﴿ عليه
من القرآن تذكرهم ذلك اكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كانها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى (من ربهم) لابتداء
الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأياما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة مافعلوا به

والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (محدث) بالجر صفة لذكر وقرئ بالرفع حملا على محله أى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى (الا استمعوه) ❁ ١٢٧ ❁ استثناء مفرغ محله النصب على انه حال من مفعول

عليه السلام سحر وانهم يرون كونه سحر الجهل ايضا لان كل ما اتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لاتمويه فيه لاتلبيس فيه فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالا بعد حال مدة من الزمان وهم ارباب الفصاحة والبلاغة وكانوا فى نهاية الحرص على ابطال امره وأقوى الامور فى ابطال امره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع ان لا يأتوا بها لان الفعل عند توفر الدواعى وارتفاع الصارف واجب الوقوع فلما لم يأتوا بها دلنا ذلك على انه فى نفسه معجزة وانهم عرفوا حاله فكيف يجوز ان يقال انه سحر والحال على ماذكرناه وكل ذلك يدل على انهم كانوا عالمين بصدقه الا انهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وان كانوا فيه مكابرين ❁ قوله تعالى (قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها أفهم يؤمنون) اما قوله قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قال ربى حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة حمزة والكسائى وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الالف وسكون اللام (المسئلة الثانية) انه تعالى لما اورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكانه قال انكم وان أخفيتم قولكم وطعنكم فان ربى عالم بذلك وانه من وراء عقوبته فتوعدوا بذلك لكى لا يعودوا الى مثله (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فان قلت فهلا قيل يعلم السر لقوله وأسروا النجوى قلت القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما ان قوله تعالى يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم فان قلت فلم ترك الآكد فى سورة الفرقان فى قوله قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض قلت ليس بواجب أن يجئ بالآكد فى قوله فى كل موضع ولكن يجئ بالتوكيد مرة و بالآكد مرة أخرى ثم الفرق انه قدم ههنا انهم اسروا النجوى فكأنه أراد أن يقول ان ربى يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بان قال أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو كقوله علام الغيوب عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة (المسئلة الرابعة) انما قدم السميع على العليم لانه لابد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه أما قوله بل قالوا اضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فاعلم انه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر ثم قال بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فحكى عنهم ثم هذه الاقوال الخمسة فترتيب كلامهم كانهم قالوا ندعى ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى سلمنا انه غير مانع ولكن لانسلم ان هذا القرآن معجز ثم اما ان يساعد على ان فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر قلنا لم لا يجوز أن يكون ذلك سحرا وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه فى نهاية الركاكة قلنا انه

يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى (وهم يلعبون) حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى (لاهية قلوبهم) اما حال أخرى منه أو من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الاحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه اولاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الامور والتفكر فى العواقب وقرئ لاهية بالرفع على انه خبر بعد خبر (وأسروا النجوى) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى اسرارها مع أنها لا تكون الا سرا أنهم بالغوا فى اخفائها وا واسر وانفس التناجى بحيث لم يشعر أحد بانهم متناجون وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو أسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما اسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما أو منصوب على الذم وقوله تعالى (هل هذا الا بشر مثلكم) الخ فى حيز النصب على انه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله

كانه قيل ماذا قالوا فى نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ او بدل من أسروا أو معطوف عليه او على أنه بدل من النجوى اى
اسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى (افتأتون السحر) للانكار والفاء للعطف

أضغاث أحلام وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه وان ادعينا انه
كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لايثبت
كونه معجزا ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فالمراد
أنهم طلبوا آية جلية لايتطرق اليها شئ من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى
وعيسى عليهما السلام ثم ان الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الاخير بقوله ماآمنت
قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون والمعنى انهم فى العتو أشد من الذين اقترحوا على
أنبيائهم الآيات وعهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فاهلكهم الله فلو
أعطيناهم مايقترحون لكانوا أشد نكثا قال الحسن رحمه الله تعالى انهم لم يجابوا لان حكم
الله تعالى ان من كذب بعد الاجابة الى ما اقترحه من الآيات فلابد من أن ينزل به عذاب
الاستئصال وقد مضى حكمه فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم

* قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون
وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وماكانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن
نشاء وأهلكنا المسرفين لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) اعلم انه تعالى اجاب عن
سؤالهم الاول وهو قولهم ماهذا الابشر مثلكم بقوله وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم
فبين ان هذه عادة الله تعالى فى الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك من كونهم
رسلا للآيات التى ظهرت عليهم فاذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا مقال
عليه فى كونه بشرا فأما قوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر فالمعنى انه تعالى أمرهم أن يسئلوا أهل
الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم ان رسل الله الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة
وانما أحالهم على هؤلاء لانهم كانوا يتابعون المشركين فى معاداة رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا فان
قيل اذا لم يوثق باليهود والنصارى فكيف يجوز أن يأمرهم بان يسألوهم عن الرسل قلنا اذا
تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك كما قد يعمل بخبر الكفار اذا تواتر مثل مايعمل بخبر
المؤمنين ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لانهم كانوا طاعنين
فى القرآن وفى الرسول الله صلى الله عليه وسلم فاما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية فى ان
للعامى أن يرجع ألى فتيا العلماء وفى ان للمجتهد ان يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لان هذه
الآية خطاب مشافهة وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى
على التعيين ثم بين تعالى انه لم يجعل الرسل قبله جسدا لايأكلون الطعام وفيه ابحاث
(الاول) قوله لايأكلون الطعام صفة جسد والمعنى وماجعلنا الانبياء ذوى جسد غير
طاعمين (الثانى) وحد الجسد لارادة الجنس كانه قال ذوى ضرب من الاجساد (الثالث)
انهم كانوا يقولون مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك
فيكون معه نذيرا فاجاب الله بقوله وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام فبين تعالى ان هذه

على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (وانتم تبصرون) حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ماهذا الابشر مثلكم أى من جنسكم وماأتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون انه سحر قالوه بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لايكون الاملكا وأن كل مايظهره على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم أن ارسال البشر الى عامة البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وانما أسروا ذلك لانه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون (قال ربى يعلم القول فى السماء والارض) حكاية من جهته تعالى لماقاله عليه
السلام بعدما أوحى اليه احوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم ﴿ عادة ﴾
للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهانى مع مافيه من الايذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر
على وتيرة واحدة لاتفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما فى علوم الخلق

عادة الله تعالى فى الرسل من قبل وانه لم يجعلهم جسدا لا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام ولا يخلدون فى الدنيا بل يموتون كغيرهم ونبه بذلك على ان الذى صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة فى التبليغ أما قوله تعالى ثم صدقناهم الوعد فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله واختار موسى قومه سبعين رجلا والاصل فى الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال ومن نشاءهم المؤمنون قال المفسرون المراد منه انه تقدم وعده جل جلاله بأنه انما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم وجعل الوفاء بما وعد صدقا من حيث يكشف عن الصدق ومعنى وأهلكنا المسرفين أى بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لانه اخبار عما مضى وتقدم ثم بين تعالى بقوله لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم عظيم نعمته عليهم بالقرآن فى الدين والدنيا فلذلك قال فيه ذكركم وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ذكركم شرفكم وصيتكم كما قال وانه لذكر لك ولقومك (وثانيها) المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا مالا يحل وترغبوا فيما يجب ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد كما قال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (وثالثها) المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة اذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل وقوله أفلا تعقلون كالبعث على التدبر فى القرآن لانهم كانوا غفلاء لان الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم العقل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل ۞ قوله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لان شرائط الاعجاز لما تمت فى القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر ان اشتغالهم بايراد تلك الاعتراضات كان لاجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه فى زجرهم عن ذلك فقال وكم قصمنا من قرية قال صاحب الكشاف القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وانها ظالمة وأراد أهلها توسعا لدلالة العقل على انها لا تكون ظالمة ولا مكلفة والدلالة قوله تعالى وأنشأنا بعدها قوما آخرين فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين وقال فلما أحسوا بأسنا الى قوله قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين وكل ذلك لا يليق الا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لانه يكون ذلك موهما للكذب واختلفوا فى هذا الاهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهى وسحول قريتان باليمن ينسب اليهما الثياب وفى الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوبين سحوليين وروى حضور يين بعث الله اليهم نبيا فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه

وقرئ قل ربى الخ وقوله تعالى فى السماء والارض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أى كائنا فى السماء والارض وقوله تعالى (وهو السميع العليم) أى المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات التى من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد (بل قالوا أضغاث أحلام) اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية قول آخر مضطرب فى مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا الا بشر وفى حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم انه سحر بل قالوا تخاليط الاحلام ثم أضربوا عنه فقالوا (بل افتراه) من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا (بل هو شاعر) وما أتى به شعر يخيل الى السامع معانى لا حقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد فالاضراب الاول كما ترى من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا

عن قولهم هو سحر الى انه تخاليط أحلام ثم الى أنه كلام مفترى ثم الى أنه قول شاعر ولا ريب فى انه كان ينبغى حينئذ ان يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى هل هذا الا بشر الخ كأنه قيل واسروا النجوى قالوا هل هذا الى قوله بل أضغاث أحلام وانما صرح بقالوا

بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله (فليأتنا بآية) جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل
وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية

(كما أرسل الاولون) أي مثل الآية التي أرسل بهما الاولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على انها صفة لآية ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على انها مصدر تشبيهي أي نعت لمصدر محذوف أي فليأتنا بآية اتيانا كائنا مثل ارسال الاولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها أي مثل اتيان مترتب على الارسال ويجوز ان يحمل النظم الكريم على انه أريد كل واحد من الاتيان والارسال في كل واحد من طرفي التشبيه لكنه ترك في جانب المشبه ذكر الارسال وفي جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في الموطن الآخر حسبما مر في آخر سورة يونس عليه السلام (ما آمنت قبلهم من قرية) كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما تنبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمني بالايمان كما أشير اليه وبيان انهم في اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن في ترك الاجابة اليه ابقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا ما اقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل في الامم السالفة على أن المقترحين اذا أعطوا ما اقترحوه

على اهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات الانبياء فندموا واعترفوا بالخطأ وقال الحسن المراد عذاب الاستئصال واعلم ان هذا أقرب لان اضافة ذلك الى الله تعالى أقرب من اضافته الى القاتل ثم بتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بانها احدى القرى التي أرادها الله تعالى بهذه الآية وأما قوله تعالى فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا في ديارهم والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه قوله تعالى اركض برجلك فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين أما قوله لا تركضوا فقال صاحب الكشاف القول محذوف فان قلت من القائل قلنا يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم أما قوله وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم أي من العيش والرفاهية والحال الناعمة والاتراف ابطار النعمة وهي الترفه أما قوله تعالى لعلكم تسئلون فهو تهكم بهم وتوبيخ ثم فيه وجوه (أحدها) أي ارجعوا الى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم في مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم الناس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المهمات ويستعينون بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم اما لانهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم وتوبيخا الى توبيخ أما قوله تعالى فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك اشارة الى ياويلنا لانها دعوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فان قلت لم سميت دعوى قلت لانهم كانوا دعوا بالويل فقالوا ياويلنا أي ياويل احضر فهذا وقتك وتلك مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا أما قوله حتى جعلناهم حصيدا خامدين فالحصيد الزرع المحصود أي جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم كما تقول جعلناهم رمادا أي مثل الرماد فان قيل كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل قلت حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين والمراد انهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد وخمدوا كما تخمد النار * قوله تعالى (وماخلقنا ﴿ السماء ﴾

السماء والارض ومابينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل
نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) اعلم ان فيه
مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما بين
اهلاك أهل القرية لاجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ومجازاة على
مافعلوا فقال وماخلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين أى وماسوينا هذا السقف
المرفوع وهذا المهاد الموضوع ومابينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة
سقوفهم وفروشهم للهو واللعب وانما سويناها للفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر
المتفكرون فيها على ماقال تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض وأما الدنيوية
فلما يتعلق بها من المنافع التى لاتعد ولاتحصى وهذا كقوله وماخلقنا السماء والارض
ومابينهما باطلا وقوله ماخلقناهما الا بالحق (والثانى) ان الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى
الله عليه وسلم والرد على منكريه لانه أظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذبا كان اظهار
المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفى عنه وان كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد
كل ماذكروه من المطاعن (المسئلة الثانية) قال القاضى عبد الجبار دلت الآية على أن
اللعب ليس من قبله تعالى اذ لو كان كذلك لكان لاعبا فان اللاعب فى اللغة اسم لفاعل
اللعب فنفى الاسم الموضوع للفعل يقتضى نفى الفعل (الجواب) يبطل ذلك بمسئلة
الداعى على مامر غير مرة أما قوله لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين فاعلم
أن قوله لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة
وقيل من لدنا أى من الملائكة لامن الانس ردا لمن قال بولادة المسيح وعزير فاما قوله
تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم ان قوله بل اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب
وتنزيه منه لذاته كانه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب
حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ
تصويرا لابطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه فأما
قوله تعالى ولكم الويل مما تصفون يعنى من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم
ونسب القران الى انه سحر وأضغاث أحلام الى غير ذلك من الاباطيل وهو الذى عناه
بقوله مما تصفون * قوله تعالى (وله من فى السموات والارض ومن عنده لايستكبرون
عن عبادته ولايستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون) وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه
ونفى اللعب لايصح الا بنفى الحاجة ونفى الحاجة لايصح الا بالقدرة التامة لاجرم عقب تلك
الآية بقوله وله من فى السموات والارض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (الثانى)
وهو الاقرب انه تعالى لما حكى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم
من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين فى هذه الآية انه تعالى منزه عن طاعتهم لانه هو

ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لامحالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى ان هذه الامة لايعذبون بعذاب الاستئصال
فقوله من قرية أى من أهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتاكيد العموم وقوله تعالى
(أهلكناها) أى باهلاك
أهلها لعدم ايمانهم
بعد مجىء مااقترحوه من
الآيات صفة لقرية
والهمزة فى قوله تعالى
(أفهم يؤمنون) لانكار
الوقوع والفاء للعطف
اما على مقدر دخلته
الهمزة فأفادت انكار
وقوع ايمانهم ونفيه
عقيب عدم ايمان الاولين
فالمعنى انه لم تؤمن أمة
من الامم المهلكة عند
اعطاء مااقترحوه من
الآيات أهم لم يؤمنوا
فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا
الى ماسألوا وأعطوا
مااقترحوا مع كونهم اعتى
منهم وأطغى واما على
ماآمنت على أن الفاء
متقدمة على الهمزة فى
الاعتبار مفيدة لترتيب
انكار وقوع ايمانهم على
عدم ايمان الاولين وانما
قدمت عليها الهمزة
لاقتضائها الصدارة
كما هو رأى الجمهور وقوله
عز وجل (وما أرسلنا
قبلك الا رجالا) جواب
لقولهم هل هذا الا بشر
الخ متضمن لرد مادسوا
تحت قولهم كما أرسل
الاولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم
عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولانهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلابد من المسارعة الى رده وابطاله كما مر فى تفسير
قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى ماننزل الملائكة

الا بالحق ماكانوا اذا منظرين ولان في هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن
ما تخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق في الحقيقة لان مقتضى الحكمة أن يرسل الى البشر البشر
والى الملك الملك حسبما
ينطق به قوله تعالى قل
لو كان في الارض ملائكة
يمشون مطمئنين لنزلنا
عليهم من السماء ملكا
رسولا فان عامة البشر
بمعزل من استحقاق
المفاوضة الملكية لتوقفها
على التناسب بين
المفيض والمستفيض
فبعث الملك اليهم مزاحم
للحكمة التي عليها
يدور فلك التكوين
والتشريع وانما الذى
تقتضيه الحكمة أن
يبعث الملك منهم الى
الخواص المختصين
بالنفوس الزكية المؤيدين
بالقوة القدسية المتعلقين
بكلا العالمين الروحاني
والجسماني ليتلقوا من
جانب ويلقوا الى جانب
آخر وقوله تعالى (نوحي
اليهم) استئناف مبين
لكيفية الارسال وصيغة
المضارع لحكاية الحال
الماضية المستمرة وحذف
المفعول لعدم القصد الى
خصوصه والمعنى
وما أرسلنا الى الامم قبل
ارسالك الى أمتك الا
رجالا مخصوصين من
أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحي اليهم بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والاحكام
وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحي اليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله ﴿تعالى﴾
انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين الى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما لا فرق بينك وبينهم

الملك لجميع المحدثات والمخلوقات ولاجل ان الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون
منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه (المسئلة الثانية) قوله وله من في السموات
والارض معناه ان كل المكلفين في السماء والارض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم
عليهم بأصناف النعم فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه (المسئلة الثالثة) دلالة
قوله ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته على ان الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد
تقدم بيانها في سورة البقرة (المسئلة الرابعة) قوله ومن عنده المراد بهم الملائكة باجماع
الامة ولانه تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر وهذه
العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال الملائكة مع
كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد
عن طاعته (المسئلة الخامسة) قال الزجاج ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال
صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الابلغ في وصفهم ان
ينفى عنهم أدنى الحسور قلت في الاستحسار بيان أن ماهم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه
وانهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بان يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى يسبحون
الليل والنهار لا يفترون فالمعنى ان تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة
بفراغ أو بشغل آخر روى عن عبدالله بن الحرث بن نوفل قال قلت لكعب أرأيت قول الله
تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون ثم قال جاعل الملائكة رسلا أفلا تكون تلك
الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضا قال أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس
أجمعين فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح أجاب كعب الاحبار فقال التسبيح
لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح
لا يمنعهم من سائر الاعمال فان قيل هذا القياس غير صحيح لان الاشتغال بالتنفس انما لم
يمنع من الكلام لان آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن فهما من جنس
الكلام فاجتماعهما محال (والجواب) أى استبعاد في أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة
بعضها يسبحون الله وبعضها يلعنون أعداء الله او يقال معنى قوله لا يفترون انهم
لا يفترون عن العزم على ادائه في أوقاته اللائقة به كما يقال ان فلانا يواظب على الجماعات
لا يفتر عنها لا يراد به انه أبدا مشتغل بها بل يراد به انه مواظب على العزم على ادائها في
أوقاتها ❊ قوله تعالى (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة
الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون أم
اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون
الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون)
اعلم ان الكلام من أول السورة الى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام
سؤالا وجوابا وأما هذه الآيات فانها في بيان التوحيد ونفي الاضداد والانداد أما قوله

تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أم ههنا هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد أذنت بالاضراب عما قبلها والانكار لما بعدها والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الارض ينشرون الموتى ولعمرى ان من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات فان قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وماكانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا فى نهاية البعد عن هذه الدعوى فانهم كانوا مع اقرارهم بالله وبانه خالق السموات والارض منكرين للبعث ويقولون من يحيى العظام وهى رميم فكيف يدعونه للجماد الذى لايوصف بالقدرة البتة قلت لانهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هى الثواب فاقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الاقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل يعنى اذا كانوا غير قادرين على ان يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فاى عقل يجوز اتخاذهم آلهة (المسئلة الثانية) قوله من الارض كقولك فلان من مكة أومن المدينة تريد مكى أومدنى اذ معنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الارض لانها اما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة اومعمولة من بعض جواهر الارض (المسئلة الثالثة) النكتة فى هم ينشرون معنى الخصوصية كانه قيل أم اتخذوا آلهة من الارض لايقدر على الانشار الاهم وحدهم (المسئلة الرابعة) قرأ الحسن ينشرون وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أما قوله تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال أهل النحو الا ههنا بمعنى غير أى لوكان يتولاهما ويدبر أمورهما شئ غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لانا لوحملناه على الاستثناء لكان المعنى لوكان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم انه لوكان فيهما آلهة معهم الله ان لايحصل الفساد وذلك باطل لانه لوكان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أوكان فالفساد لازم ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت ان المراد ماذكرناه (المسئلة الثانية) قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضى الى المحال فوجب أن يكون القول بوجود الهين محالا انما قلنا انه يفضى الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلابد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولوكان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه فلوفرضنا ان أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أولا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك محال أيضا لوجهين (أحدهما) انه لوكان كل واحد منهما قادرا على مالانهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن

فى البشرية فمالهم لايفهمون انك لست بدعا من الرسل وأن ماأوحى اليك ليس مخالفا لما اوحى اليهم فيقولون مايقولون وقرئ يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعيين الفاعل وقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الانيقة وأما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم لا تعلمون ماذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لان اخبار الجم الغفير يوجب العلم لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورنهم ففيه من الدلالة على كمال وضوح الامر وقوة شأن النبى عليه السلام مالايخفى (وماجعلناهم جسدا) بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه اما على انه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك

المنتظم للكثير أيضا وقيل بتقدير المضاف أى ذوى جسد وقوله تعالى (لا يأكلون الطعام) صفة له أى وماجعلناهم جسدا مستغنيا عن الاكل والشرب بل محتاجا الى ذلك لتحصيل بدل مايتحلل منه (وماكانوا خالدين) لان مآل التحلل هو الفناء لامحالة وفى ايثار ماكانوا على ماجعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى أشير اليها بقوله تعالى وماجعلناهم الخ لابالجعل المستأنف والمراد بالخلود اما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الابدية وهم معتقدون انهم لايموتون والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة الى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة ولاأجسادا مستغنية عن الاغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لهما خلود كخلودهم فالجملة مقررة لماقبلها من كون الرسل

يستويا فى القدرة واذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى والالزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) انه اذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الله محال فان قيل الفساد انما يلزم عند اختلافهما فى الارادة وأنتم لاتدعون وجوب اختلافهما فى الارادة بل أقصى ماتدعونه ان اختلافهما فى الارادة ممكن فاذا كان الفساد مبنيا على الاختلاف فى الارادة وهذا الاختلاف ممكن والمبنى على الممكن ممكن فكان الفساد ممكنا لاواقعا فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد قلنا الجواب من وجهين (أحدهما) لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث ان الرعية تفسد بتدبير الملكين لمايحدث بينهما من التغالب (والثانى) وهو الاقوى ان نبين لزوم الفساد لامن الوجه الذى ذكرناه بل من وجه آخر فنقول لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان استناد الفعل الى الفاعل لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود الالهين يفضى الى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما واذا كان كذلك وجب أن لايقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أونقول لوقدرنا الهين فاما ان يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشئ الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما أن يقع المرادان أولايقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات فان قلت لم لايجوز ان يتفقا على الشئ الواحد ولايلزم الفساد لان الفساد انما يلزم لو اراد كل واحد منهما أن يوجده هو وهذا اختلاف أما اذا أراد كل واحد منهما ان يكون الموجد له أحدهما بعينه فهناك لايلزم وقوع مخلوق بين خالقين قلت كونه موجد اله اما أن يكون نفس القدرة والارادة أونفس ذلك الاثر أو أمرا ثالثا فان كان الاول لزم الاشتراك فى القدرة والارادة والاشتراك فى الموجد وان كان الثانى فليس وقوع ذلك الاثر بقدرة أحدهما وارادته أولى من وقوعه بقدرة الثانى لان لكل واحد منهما ارادة مستقلة بالتأثير وان كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمرا ثالثا فذلك الثالث ان كان قديما استحال كونه متعلق الارادة وان كان حادثا فهو نفس الاثر ويصير هذا القسم هو القسم الثانى الذى ذكرناه واعلم انك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع مافى هذا العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى بل وجود كل واحد من الجواهر والاعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذى بيناه

السالفة عليهم السلام بشرا الاملكا مع مافى ذلك من الرد على قولهم ماهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى ﴿ وهذا (ثم صدقناهم الوعد) عطف على مايفهم من حكاية وحيه تعالى اليهم على الاستمرار التجددى كأنه قيل أوحينا اليهم ماأوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى باهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) من المؤمنين

وهذه الدلالة قدذكرها الله تعالى فى مواضع من كتابه واعلم انههنا ادلة أخرى على وحدانية الله تعالى (أحدها) وهو الاقوى أن يقال لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلابد أن يشتركا فى الوجود ولابد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه ومابه المشاركة غير مابه الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه وكل مركب فهو مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف فاذن واجب الوجود ليس الا الواحد وكل ماعداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر فى وجوده الى الغير فهو محدث فكل ماسوى الله تعالى محدث ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيرا لهذه الآية لانا انما دللنا على انه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لايكون شئ منهما واجبا واذا لم يوجد الواجب لم يوجد شئ من هذه الممكنات وحينئذ يلزم الفساد فثبت انه يلزم من وجود الهين وقوع الفساد فى كل العالم (وثانيها) انا لوقدرنا الهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر فى الالهية ولابد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما والا لماحصل التعدد فمابه الممايزة اما أن يكون صفة كمال أولايكون فان كان صفة كمال فالخالى عنه يكون خاليا عن الكمال فيكون ناقصا والناقص لايكون الها وان لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لايكون صفة كمال فيكون ناقصا ويمكن أن يقال مابه الممايزة ان كان معتبرا فى تحقق الالهية فالخالى عنه لايكون الها وان لم يكن معتبرا فى الالهية لم يكن الاتصاف به واجبا فيفتقر الى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج (وثالثها) أن يقال لو فرضنا الهين لكان لابد أن يكونا بحيث يتمكن الغير من التمييز بينهما لكن الامتياز فى عقولنا لايحصل الا بالتباين فى المكان أوفى الزمان أوفى الوجوب والامكان وكل ذلك على الاله محال فيمتنع حصول الامتياز (ورابعها) ان أحد الالهين اما أن يكون كافيا فى تدبير العالم أولايكون فان كان كافيا كان الثانى ضائعا غير محتاج اليه وذلك نقص والناقص لايكون الها (وخامسها) ان العقل يقتضى احتياج المحدث الى الفاعل والامتناع فى كون الفاعل الواحد مدبرا لكل العالم فأما ماوراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضى ذلك الى وجود أعداد لانهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) ان أحد الالهين اما أن يقدر على ان يخص نفسه بدليل يدل عليه ولايدل على غيره أولايقدر عليه والاول محال لان دليل الصانع ليس الا المحدثات وليس فى حدوث المحدثات مايدل على تعيين أحدهما دون الثانى والثانى محال لانه يفضى الى كونه عاجزا عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لايكون الها (وسابعها) ان أحد الالهين اما ان يقدر على أن يستر شيئا من أفعاله عن الآخر أولايقدر فان قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا وان لم يقدر لزم كونه عاجزا (وثامنها) لوقدرنا الهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده فيكون كل واحد من

لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفترى وشعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم وبيان انه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمى اظهار المزيد الاعتناء بمضمونه وايذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير أى والله لقد أنزلنا اليكم يامعشر قريش (كتابا) عظيم الشان نير البرهان وقوله تعالى (فيه ذكركم) صفة لكتابا مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جليل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل ماتحتاجون اليه فى امور دينكم ودنياكم وقيل فيه ماتطلبون به حسن الذكر من مكارم الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الانسب بسباق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى (أفلا تعقلون) انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب

عليه الكلام أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الامر كذلك أو لا تعقلون شيئا من الاشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى
(وكم قصمنا من قرية) نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى وأهلكنا

المسرفين وبيان لكيفية اهلاكهم
وسببه وتنبيه على كثرتهم
وكم خبرية مفيدة للتكثير
محلها النصب على انها
مفعول لقصمنا ومن قرية
تمييز وفى لفظ القصم الذى
هو عبارة عن الكسر
بابانة أجزاء المكسور
وازالة تأليفها بالكلية
من الدلالة على قوة
الغضب وشدة السخط
مالا يخفى وقوله تعالى
(كانت ظالمة) فى محل
الجر على أنها صفة لقرية
بتقدير مضاف ينبئ عنه
الضمير الآتى أى وكثيرا
قصمنا من أهل قرية كانوا
ظالمين بآيات الله تعالى
كافرين بها كدأبكم
(وأنشأنا بعدها) أى
بعد اهلاكها (قوما
آخرين) أى ليسوا منهم
نسبا ولا دينا ففيه تنبيه
على استئصال الاولين
وقطع دابرهم بالكلية وهو
السر فى تقديم حكاية
انشاء هؤلاء على حكاية
مبادى اهلاك أولئك
بقوله تعالى (فلما أحسوا
بأسنا) أى أدركوا عذابنا
الشديد ادراكا تاما كأنه
ادراك المشاهد المحسوس
(اذا هم منها يركضون)
يهربون مسرعين راكضين دوابهم او مشبهين بهم فى فرط الاسراع (لا تركضوا) أى قيل لهم
بلسان الحال او بلسان المقال من الملك او ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لا تركضوا (وارجعوا الى
ما أترفتم فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة

القدرتين متناهيا والمجموع ضعف المتناهى فيكون الكل متناهيا (وتاسعها) العدد
ناقص لاحتياجه الى الواحد والواحد الذى يوجد من جنسه عدد ناقص لان العدد
أزيد منه والناقص لا يكون الها فالاله واحد لا محالة (وعاشرها) انا لو فرضنا معدوما ممكن
الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدر واحد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزا
والعاجز لا يكون الها وان قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر لا يكون الها وان قدرا
جميعا فاما ان يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا الى اعانة الآخر وان قدر
كل واحد على ايجاده بالاستقلال فاذا أوجده أحدهما فاما أن يبقى الثانى قادرا عليه
وهو محال لان ايجاد الموجود محال وان لم يبق فحينئذ يكون الاول قد أزال قدرة الثانى وعجزه
فيكون مقهورا تحت تصرفه فلا يكون الها فان قيل الواحد اذا أوجد مقدوره فقد
زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز قلنا الواحد اذا أوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة
لا يكون عجزا أما الشريك فانه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته
بسبب قدرة الاول فيكون تعجيزا (الحادى عشر) ان نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو
أن نعين جسما ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون
وبالعكس فان لم يقدر كان عاجزا وان قدر فنسوق الدلالة الى ان نقول اذا خلق أحدهما فيه
حركة امتنع على الثانى خلق السكون فالاول أزال قدرة الثانى وعجزه فلا يكون الها وهذان
الوجهان يفيد ان العجز نظرا الى قدرتيهما والدلالة الاولى انما تفيد العجز بالنظر الى
ارادتيهما (وثانى عشرها) انهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما
متعلقا بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لاحد المثلين قابلة للمثل
الآخر فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل
يستدعى مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبدا فقيرا
ناقصا (وثالث عشرها) ان الشركة عيب ونقص فى الشاهد والفردانية والتوحد صفة كمال
ونرى الملوك يكرهون الشركة فى الملك الحقير المختصر أشد الكراهية ونرى انه كلما كان الملك
أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما
استخلاص الملك لنفسه فان قدر عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلا يكون الها وان لم يقدر
عليه كان فى أشد الغم والكراهية فلا يكون الها (ورابع عشرها) انا لو قدرنا الهين لكان
اما ان يحتاج كل واحد منهما الى الآخر أو يستغنى كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج
أحدهما الى الآخر والآخر يستغنى عنه فان كان الاول كان كل واحد منهما ناقصا لان
المحتاج ناقص وان كان الثانى كان كل واحد منهما مستغنيا عنه والمستغنى
عنه ناقص ألا ترى ان البلد اذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير
رجوع منهم اليه ومن غير التفات منهم اليه عد ذلك الرئيس ناقصا فالاله هو الذى
يستغنى به ولا يستغنى عنه وان احتاج احدهما الى الآخر من غير عكس كان

(ومساكنكم) التي كنتم تفتخرون بها (لعلكم تسئلون) تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل أو تفتقدون اذا رئيت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم (قالوا) لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب (ياويلنا) أي هلاكنا (انا كنا ظالمين) ﴿١٣٧﴾ أي مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم و باستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم) أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أي دعوة لان المولول كأنه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا أوانك (حتى جعلناهم حصيدا) أي مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع (خامدين) أي ميتين من خمدت النار اذا طفئت وهو مع حصيدا في حيز المفعول الثاني للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب في جعلناهم أو من المستكن في حصيدا أو صفة لحصيدا لتعدده معنى لانه في حكم جعلناهم أمثال حصيد (وماخلقنا السماء والارض) اشارة اجمالية الى أن تكوين العالم وابداع بني آدم مؤسس ﴿١٨﴾ س على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء

المحتاج ناقصا والمحتاج اليه هو الاله واعلم ان هذه الوجوه ظنية اقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة أما الدلائل السمعية فمن وجوه (أحدها) قوله تعالى هو الاول والآخر والظاهر والباطن فالاول هو الفرد السابق ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لان شرط الاول ان يكون فردا وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحدا لم يحنث أيضا لان شرط الفرد أن يكون سابقا وهذا ليس بسابق فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فردا سابقا فوجب أن لايكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو فالنص يقتضي أن لايكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) ان الله تعالى صرح بكلمة لااله الا هو في سبعة وثلاثين موضعا من كتابه وصرح بالوحدانية في مواضع نحو قوله والهكم اله واحد وقوله قل هو الله أحد وكل ذلك صريح في الباب (ورابعها) قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه حكم بهلاك كل ماسواه ومن عدم بعد وجوده لايكون قديما ومن لايكون قديما لايكون الها (وخامسها) قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وهو كقوله ولعلا بعضهم على بعض وقوله اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا (وسادسها) قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ولو كان له شريك لكان ذلك الشريك جالبا للنفع ودافعا للضر فبطل الحصر المذكور في الآية وقال في آية اخرى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال في آية اخرى قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته (وسابعها) قوله تعالى قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به وهذا الحصر يدل على نفي الشريك (وثامنها) قوله تعالى خالق كل شيء فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة واعلم ان كل مسئلة لاتتوقف معرفة صدق الرسل عليها فانه يمكن اثباتها بالسمع والوحدانية لاتتوقف معرفة صدق الرسل عليها فلا جرم يمكن اثباتها بالدلائل السمعية واعلم ان من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بان المراد لو كان في السماء والارض آلهة تقول بالهيتها عبدة الاوثان لزم فساد العالم لانها جمادات لاتقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم قوله أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وبالله التوفيق أما قوله تعالى فسبحان الله رب العرش عما يصفون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده فسبحان الله رب العرش عما يصفون أي هو منزه لاجل هذه الادلة عن وصفهم بأن معه الها وهذا تنبيه على ان الاشتغال بالتسبيح انما ينفع بعد اقامة الدلالة على كونه تعالى منزها وعلى ان طريقة التقليد طريقة مهجورة (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول

... اى ما خلقناهما (وما بينهما) من المخلوقات التى
لاتحصى أجناسها وأفرادها ولاتحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم
والمصالح وانما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل (لاعبين) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة
بتصويره بصورة مالا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل انما خلقناهما وما بينهما لتكون
مبدأ لوجود الانسان
وسببا لمعاشه ودليلا
يقوده الى تحصيل
معرفتنا التى هى الغاية
القصوى بواسطة
طاعتنا وعبادتنا كما
ينطق به قوله تعالى وهو
الذى خلق السموات
والارض فى ستة أيام
وكان عرشه على الماء
ليبلوكم أيكم أحسن
عملا وقوله تعالى
وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون وقوله
تعالى (لو أردنا أن نتخذ
لهوا) استئناف مقرر
لما قبله من انتفاء اللعب
واللهو أى لو أردنا
أن نتخذ ما يتلهى به
ويلعب (لاتخذناه
من لدنا) أى من جهة
قدرتنا أو من عندنا
مما يليق بشأننا من المجردات
لا من الاجسام المرفوعة
والاجرام الموضوعة
كديدن الجبابرة فى رفع
العروش وتحسينها
وتسوية الفروش
وتزيينها لكن يستحيل
ارادتنا له لمنافاته الحكمة
فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى (ان كنا فاعلين) جوابه محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه اى
ان كنا فاعلين لاتخذناه وقيل ان نافية اى ما كنا فاعلين اى لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالى
لانتفاء المقدم او لارادة اتخاذه ❊ كان ❊

أى فائدة لقوله فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم لم يكتف بقوله فسبحان الله عما
يصفون وجوابه ان هذه المناظرة انما وقعت مع عبدة الاصنام الا أن الدليل الذى ذكره الله
تعالى يعم جميع المخالفين. ثم انه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة
الاصنام وهى انه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذى لا يعقل ولا يحس شريكا
فى الالهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والارضين ومدبر الخلائق من النور
والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين أما
قوله تعالى لايسأل عما يفعل وهم يسألون فاعلم انه مشتمل على بحثين (أحدهما) ان الله
تعالى لايسأل عن شئ من أفعاله ولا يقال له لم فعلت (والثانى) ان الخلائق مسئولون عن
افعالهم أما البحث الاول ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها
ان عمدة من أثبت لله شريكا ليست الا طلب اللمية فى أفعال الله تعالى وذلك لان الثنوية
والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا رأينا فى العالم خيرا وشرا ولذة وألما
وحياة وموتا وصحة وسقما وغنى وفقرا وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير ويستحيل
أن يكون الفاعل الواحد خيرا وشريرا معا فلابد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير
والآخر فاعلا للشر ويرجع حاصل هذه الشبهة الى أن مدبر العالم لو كان واحدا فلما خص
هذا بالحياة والصحة والغنى وخص ذلك بالموت والألم والفقر فيرجع حاصله الى طلب
اللمية فى أفعال الله تعالى فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية لاجرم
انه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الاصلية فى الجواب
عن شبهة القائلين بالشريك لان الترتيب الجيد فى المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل
المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم (المسئلة الثانية) فى الدلالة
على انه سبحانه لايسأل عما يفعل أما أهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه (أحدها) انه
لو كان كل شئ معللا بعلة لكانت عليه تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلابد
فى قطع التسلسل من الانتهاء الى ما يكون غنيا عن العلة وأولى الاشياء بذلك ذات الله
تعالى وصفاته وكما ان ذاته منزهة عن الافتقار الى المؤثر والعلة وصفاته مبرأة عن الافتقار
الى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الاستناد الى الموجب
والمؤثر (وثانيها) ان فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة اما أن تكون واجبة
أو ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا وحينئذ يكون موجبا
بالذات لا فاعلا بالاختيار وان كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا لله تعالى أيضا فتفتقر
فاعليته لتلك العلة الى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان علة فاعلية الله
تعالى للعالم ان كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وان كانت
محدثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل (ورابعها) ان من فعل فعلا لغرض فاما أن
يكون متمكنا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أو لا يكون متمكنا منه فان

فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده (بل نقذف بالحق على الباطل) اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كأنه قيل لكننا لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شؤنه تعالى بالذكر للتخلص الى ماسيأتى من الوعيد (فيدمغه) اى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر الشئ الرخو الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى الى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرئ فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرئ فيدمغه بضم الميم (فاذا هو زاهق) أى ذاهب بالكلية وفى اذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان مالا يخفى فكأنه زاهق من الاصل (ولكم الويل مما تصفون) وعيد لقريش بأن لهم أيضا مثل مالأولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره فى الخبر وما اما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أى واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل أو بالذى تصفونه أو بشئ تصفونه به من الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به (وله من فى السموات والارض) استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة

كان متمكنا منه كان توسط تلك الواسطة عبثا وان لم يكن متمكنا منه كان عاجزا والعجز على الله تعالى محال أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالاغراض وكل ذلك فى حق الله تعالى محال (وخامسها) انه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض اما أن يكون عائدا الى الله تعالى أو الى العباد والاول محال لانه منزه عن النفع والضر واذا بطل ذلك تعين ان الغرض لابد وان يكون عائدا الى العباد ولا غرض للعباد الا حصول اللذات وعدم حصول الآلام والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شئ من الوسايط واذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئا لاجل شئ (وسادسها) هو انه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة اليه اما أن يكون على السواء أو لا يكون فان كان على السواء استحال أن يكون غرضا وان لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصا بذاته كاملا بغيره وذلك محال فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وان كان بالنسبة اليه على السواء اما بالنسبة الى العباد فالوجود أولى من العدم قلنا تحصيل تلك الاولوية للعبد وعدم تحصيلها له اما أن يكون بالنسبة اليه على السوية أو لا على السوية ويعود التقسيم الاول (وسابعها) وهو ان الموجود اما هو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف فى ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو ان من قال لغيره لم فعلت ذلك فهذا السؤال انما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسؤل منه عن فعله وذلك من العبد فى حق الله تعالى محال فانه لو فعل أى فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك اما بان يهدده بالعقاب والايلام وذلك على الله تعالى محال أو بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضا محال لان استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور ذاتية له وماثبت للشئ لذاته يستحيل أن يتبدل لاجل تبدل الصفات العرضية الخارجية فثبت بهذه الوجوه انه لا يجوز أن يقال لله فى افعاله لم فعلت هذا الفعل فان كل شئ صنعه ولا علة لصنعه وأما المعتزلة فانهم سلموا انه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا لفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر وهو انه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنيا عنها ومن كان كذلك فانه يستحيل أن يفعل القبيح واذا عرفنا ذلك عرفنا اجمالا ان كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب واذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا (أما البحث الثانى) وهو قوله تعالى وهم يسألون فهذا يدل على كون المكلفين مسؤلين عن أفعالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الكلام فى هذا السؤال اما فى الامكان العقلى أو فى الوقوع السمعى أما الامكان العقلى فالخلاف فيه مع منكرى التكاليف واحتجوا على قولهم بوجوه (أحدها) قالوا التكليف اما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته الى الفعل والترك أو حال رجحان أحدهما على الآخر والاول محال لان حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف بالترجيح تكليفا بالمحال والثانى محال لان حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع

... وتمام ... كامل وانه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا
واحياء واماتة وتعذيبا واثابة من غير أن يكون لاحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا (ومن عنده) وهم الملائكة
عليهم السلام عبر عنهم بذلك اثر ما عبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿١٤٠﴾ (لا يستكبرون عن عبادته) أى لا يتعظمون
عنها ولا يعدون انفسهم كبيرا (ولا يستحسرون) ولا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون لا لافادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الاولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والارض للتعظيم كما فى قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من من الثانيـــة (يسبحون الليل والنهار) أى ينزهونه فى جميـــع الاوقات ويعظمونه ويمجدونه دائما وهو استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم أو كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى (لا يفترون) أى لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا ﴿لانقطع﴾

والتكليف بايقاع ما يكون واجب الوقوع عبث وبايقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق (الاول) قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثا وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع فيكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق (والثانى) قالوا سؤال العبد اما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة ان عادت الى الله تعالى كان محتاجا وهو محال وان عادت الى العبد فهو محال لان سؤاله لما كان سببا لتوجيه العقاب عليه لم يكن هذا نفعا عائدا الى العبد بل ضررا عائدا اليه وان لم يكن فى السؤال فائدة كان عبثا وهو غير جائز على الحكيم بل كان اضرارا وهو غير جائز على الرحيم والجواب عنها من وجهين (الاول) ان غرضكم من ايراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفى التكليف فكأنكم تكلفونا بنفى التكليف وهو متناقض (والثانى) وهو ان مدار كلامكم فى هذه الشبهات على حرف واحد وهو ان التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجبها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات الى انه يقال له تعالى لم كلفت عبادك الا انا قد بينا انه سبحانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فظهر بهذا ان قوله لا يسأل عما يفعل كالاصل والقاعدة لقوله وهم يسألون فتأمل فى هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من اسرار علم القرآن واما الوقوع السمعى فلقائل أن يقول ان قوله وهم يسألون وان كان متأكدا بقوله فوربك لنسألنهم أجمعين وبقوله وقفوهم انهم مسؤلون الا انه يناقضه قوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان والجواب ان يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والايجاب الى مقام آخر دفعا للتناقض (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة فيه وجوه (أحدها) انه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسأل عما يفعل بل كان يذم بما حقه الذم كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) أنه كان يجب أن لا يسأل عن الامور اذا كان لا فاعل سواه (وثالثها) انه كان لا يجوز أن يسألوا عن عملهم اذ لا عمل لهم (ورابعها) ان أعمالهم لا يمكنهم ان يعدلوا عنها من حيث خلقها واوجدها فيهم (وخامسها) انه تعالى صرح فى كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه كقوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا يقتضى ان لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل وقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على ان حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة اذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ما حملك على معصيتى فيقول على مذهب الجبر يا رب انك خلقتنى كافرا وأمرتنى بما لا أقدر عليه وحلت بينى وبينه ولا شك انه على مذهب الجبر يكون صادقا وقال الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ومن يدعه يقول هذا الكلام او يحتج فقال ثمامة أليس اذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم انه منعه مما لو لم يمنعه منه

بفراغ أو بشغل اخر (ام اتخذوا آلهة) حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن
آخر من التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان انه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكوته
وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الامور التي من
جملتها الانداد ومعنى الهمزة في أم المنقطعة انكار الوقوع لانكار الواقع وقوله تعالى (من الارض)

لانقطع في بدئه وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه انها معارضة بمسئلة
الداعي وامثلة العلم ثم بالوجوه الثمانية التي بينا فيها انه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى
وأحكامه وأما قوله تعالى أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم فاعلم انه سبحانه
كرر قوله أم اتخذوا من دونه آلهة استعظاما لكفرهم أي وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا
برهانكم على ذلك اما من جهة العقل أو من جهة النقل فانه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد
أولا وقرر الاصل الذي عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيا أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم
ثالثا أما قوله تعالى هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في
تفسيره وفيه أقوال (أحدها) هذا ذكر من معي أي هذا هو الكتاب المنزل على من معي
وهذا ذكر من قبلي أي الكتاب المنزل على من تقدمني من الانبياء وهو التوراة والانجيل
والزبور والصحف وليس في شيء منها أني أذنت بأن تتخذوا الها من دوني بل ليس فيها الا اني
أنا الله لا اله الا أنا كما قال بعد هذا وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه أنه لا اله
الا أنا فاعبدون وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج (الثاني) وهو قول سعيد
ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدي ان قوله وذكر من قبلي صفة للقرآن فانه كما يشتمل على
أحوال هذه الامة فكذا يشتمل على أحوال الامم الماضية (الثالث) ما ذكره القفال وهو
ان المعنى قل لهم هذا الكتاب الذي جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من معي من المخالفين
والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلي من المخالفين والموافقين فاختاروا لانفسكم كان
الغرض منه التهديد (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ هذا ذكر من معي وذكر
من قبلي بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما وهو
الاصل والاضافة من اضافة المصدر الى المفعول كقوله غلبت الروم في أدنى الارض وهم
من بعد غلبهم سيغلبون وقرئ من معي ومن قبلي بكسر ميم من على ترك الاضافة في هذه
القراءة وادخال الجار على مع غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل
من عليه كما يدخل على اخواته وقرئ ذكر معي وذكر قبلي وأما قوله بل أكثرهم لا يعلمون
الحق فهم معرضون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد
وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين انه لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة
السمع ذكر بعده أن وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لاجل دليل ساقهم اليه بل ذلك
لان عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ثم ترتب على عدم العلم الاعراض
عن استماع الحق وطلبه (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ الحق بالرفع على
توسطا لتوكيد بين السبب والمسبب والمعنى ان اعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل
أما قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون فاعلم
ان يوحى ونوحي قراءتان مشهورتان وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد
* قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم

متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأياما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص و قوله تعالى (هم ينشرون) أي يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذي يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة أي بل اتخذوا آلهة من الارض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الانشار ضرورة أنه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما في قوله تعالى أفي الله شك وقوله تعالى أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لان يشك فيه ويستهزأ به و يجوز
أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لان الالوهية مقتضية للاستقلال بالابداء و الاعادة فحيث
ادعوا للاصنام الالهية

بامره يعملون يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون الالمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) اعلم انه سبحانه وتعالى لمابين بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال وقالوا اتخذ الرحمن ولدا نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وأضافوا الى ذلك انه تعالى صاهر الجن على ماحكى الله تعالى عنهم فقال وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لان الولد لابد وان يكون شبيها بالوالد فلو كان لله ولد لاشبهه من بعض الوجوه ثم لابد وان يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنا غير واجب وذلك يخرجه عن حد الالهية ويدخله فى حد العبودية ولذلك نزه نفسه عنه أما قوله بل عباد مكرمون فاعلم انه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة الا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرئ مكرمون لايسبقونه من سابقته فسبقته أسبقه والمعنى انهم يتبعون فى قوله ولا يقولون شيئا حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله وكما ان قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا كذلك مبنى على أمره لايعملون عملا مالم يؤمروا به ثم انه سبحانه ذكر مايجرى مجرى السبب لهذه الطاعة فقال يعلم مابين أيديهم وماخلفهم والمعنى انهم لما علموا كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات علموا كونه عالما بظواهرهم وبواطنهم فكان ذلك داعيا لهم الى نهاية الخضوع وكمال العبودية وذكر المفسرون فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس يعلم ماقدموا وماأخروا من أعمالهم (وثانيها) مابين أيديهم الآخرة وماخلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم ماكان قبل أن يخلقهم ومايكون بعد خلقهم وحقيقة المعنى انهم يتقلبون تحت قدرته فى ملكوته وهو محيط بهم واذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدى الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له ثم كشف عن هذا المعنى فقال ولايشفعون الالمن ارتضى أى لمن هو عند الله مرضى وهم من خشيته مشفقون أى من خشيتهم منه فاضيف المصدر الى المفعول ومشفقون خائفون ولايأمنون مكره وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله تعالى ونظيره قوله تعالى لايتكلمون الامن أذن له الرحمن أما قوله تعالى ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازى ذلك القائل بهذا الجزاء وهذا لايدل على انهم قالوا ذلك أوماقالوه وهو قريب من قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وههنا مسائل (المسئلة الاولى) هذه الصفات تدل على العبودية وتنافى الولادة لوجوه (أحدها) انهم لما بالغوا فى الطاعة الى حيث لايقولون قولا ولايعملون عملا الابامره فهذه صفات للعبيد لاصفات الاولاد (وثانيها) انه سبحانه لما كان عالما باسرار الملائكة وهم لايعلمون أسرار

فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالانشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لاصل الانشار (لوكان فيهما آلهة الاالله) ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته وايراد الجمع لوروده اثر انكار اتخاذ الآلهة لالان للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما والابمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولامساغ للاستثناء لاستحالة شمول ماقبلها لما بعدها وافضائه الى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على البدل لانه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون فى كلام غير موجب أى لوكان فى السموات والارض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل (لفسدتا) أى لبطلتا بمافيهما جميعا وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة أن الالهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا وايجادا واعداما واحياء واماتة فبقاؤهما على ماهما عليه اما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة واما بتأثير واحد منها فالبواقى بمعزل من الالهية قطعا واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الاطلاق فانه لوتعدد الاله فان توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وان تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى (فسبحان الله) لترتيب مابعدها على ماقبلها

من ثبوت الوحدانية بالبرهان أي فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الامور التي من جملتها ان يكون له شريك
في الالوهية وايراد الجلالة في موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزهه
تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (رب العرش) صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل
(عما يصفون) متعلق بالتسبيح أي فسبحوه ✻ ١٤٣ ✻ عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة (لا يسئل عما يفعل)
استئناف ببيان انه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لاحد من مخلوقاته أن يناقشه و يسأله عما يفعل من أفعاله اثر بيان أن ليس له شريك في الالهية (وهم) اى العباد (يسئلون) عما يفعلون نقيرا و قطميرا لانهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة (أم اتخذوا من دونه آلهة) اضراب و انتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه الهة آلهة حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الالهية التي من جملتها الانشار واقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الاله على الاطلاق وتفرده سبحانه بالالوهية الى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه وتبكيتهم بالجائهم الى اقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق
أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد و بطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه
واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين اياه تعالى مع ظهور شؤنه الجليلة الموجبة لتفرده بالالوهية آلهة
مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية

الله تعالى وجب أن يكون الاله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هي
نفس ما ذكره عيسى عليه السلام في قوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك (وثالثها)
انهم لا يشفعون الا لمن ارتضى ومن يكن الها أو ولدا لله لا يكون كذلك (ورابعها) انهم
على نهاية الاشفاق والوجل وذلك ليس الا من صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله
ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم على ان حالهم حال سائر العبيد المكلفين
في الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بقوله تعالى
ولا يشفعون الا لمن ارتضى على ان الشفاعة في الآخرة لا تكون لاهل الكبائر لانه لا يقال
في أهل الكبائر ان الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك
الا لمن ارتضى أي لمن قال لا اله الا الله واعلم ان هذه الآية من اقوى الدلائل لنا في اثبات
الشفاعة لاهل الكبائر وتقريره هو ان من قال لا اله الا الله فقد ارتضاه تعالى في ذلك ومتى
صدق عليه انه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه انه ارتضاه الله لان المركب متى
صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه واذا ثبت ان الله قد ارتضاه وجب
اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذي ذكرناه ان هذه الآية من أقوى الدلائل لنا
على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما (المسئلة الثالثة) هذه الآية تدل على أمور ثلاثة
(أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال لا يسبقونه بالقول وهم بأمره
يعملون وهم من خشيته مشفقون ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل أيضا على ان
الملائكة معصومون لانه قال وهم بأمره يعملون (وثالثها) قال القاضي عبد الجبار قوله
كذلك نجزي الظالمين يدل على ان كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك
يوجب القطع على انه تعالى لا يغفر لاهل الكبائر في الاخرة (والجواب) أقصى ما في الباب
ان هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعد ✻ قوله تعالى (أولم ير الذين
كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا
يؤمنون وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون
وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار
والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) اعلم انه سبحانه وتعالى شرع الآن في الدلائل الدالة
على وجود الصانع وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزها عن الشريك لانها دالة على
حصول الترتيب العجيب في العالم ووجود الالهين يقتضي وقوع الفساد فهذه الدلائل
تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم وفيها أيضا رد على عبدة
الاوثان من حيث ان الاله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل
أن يعدل عن عبادته الى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها
واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من الدلائل (النوع الاول) قوله أولم ير الذين
كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ

(قل) لهم بطريق التبكيت والقام الحجر (هاتوا برهانكم) على ماتدعونه من جهة العقل والنقل فانه لاصحة لقول لادليل عليه فى الامور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) انارة لبرهانه واشارة الى أنه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم

على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الامم السالفة قد أقته فأقيموا أنتم أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على امتى وهذا كتاب انزل على أمم الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرئ بالتنوين والاعمال كقوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وبه وبمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وقوله تعالى (بل أكثرهم لايعلمون الحق) اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان أنه لاينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق وبطلان الباطل فان أكثرهم لايفهمون الحق ولايميزون بينه وبين الباطل (فهم) لاجل ذلك (معرضون) أى مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول لايرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما يلقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية

ابن كثير ألم ير بغير الواو والباقون بالواو وادخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه قال صاحب الكشاف قرئ رتقا بفتح التاء وكلاهما فى معنى المفعول كالخلق والنفض أى كانتا مرتوقتين فان قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لانه مصدر فابال الرتق قلت هو على تقدير موصوف أى كانتا شيئا رتقا (المسألة الثانية) لقائل أن يقول المراد من الرؤية فى قوله تعالى أولم ير الذين كفروا اما الرؤية واما العلم والاول مشكل أما أولا فلان القوم ماراً وهما كذلك البتة وأما ثانيا فلقوله سبحانه وتعالى ماأشهدتهم خلق السموات والارض وأما العلم فمشكل لان الاجسام قابلة للفتق والرتق فى أنفسها فالحكم عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانيا لاسبيل اليه الا السمع والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وماذكروه من السؤال فدفعه من وجوه (أحدها) انا نثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام فى العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة فى التوحيد (وثانيها) ان يحمل الرتق والفتق على امكان الرتق والفتق والعقل يدل عليه لان الاجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعى مخصصا (وثالثها) ان اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء فى التوراة أن الله تعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق السموات والارض منها وفتق بينهما وكان بين عبدة الاوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على انهم يقبلون قول اليهود فى ذلك (المسألة الثالثة) انما قال كانتا رتقا ولم يقل كن رتقا لان السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس قال الاخفش السموات نوع والارض نوع ومثله ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ومرت بنا غنمان اسودان لان هذا القطيع غنم وذلك غنم (المسألة الرابعة) الرتق فى اللغة السد يقال رتقت الشئ فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتى رتق قال المفضل انما لم يقل كانتا رتقين كقوله وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام لان كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق (المسألة الخامسة) اختلف المفسرون فى المراد من الرتق والفتق على أقوال (أحدها) وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم ان المعنى كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وهذا القول يوجب ان خلق الارض مقدم على خلق السماء لانه تعالى لما فصل بينهما ترك الارض حيث هى وأصعد الاجزاء السماوية قال كعب خلق الله السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها (وثانيها) وهو قول أبى صالح ومجاهد

ومجاهد ان المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الارضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين ان السموات والارض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات والشجر ونظيره قوله تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك وجعلنا من الماء كل شئ حى وذلك لا يليق الا والماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك الا اذا كان المراد ما ذكرناه فان قيل هذا الوجه مرجوح لان المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا قلنا انما أطلق عليه لفظ الجمع لان كل قطعة منها سماء كما يقال ثوب اخلاق و برمة اعشار واعلم ان على هذا التأويل يجوز حمل الرؤية على الابصار (ورابعها) قول أبى مسلم الاصفهانى يجوز أن يراد بالفتق الايجاد والاظهار كقوله فاطر السموات والارض وكقوله قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن فأخبر عن الايجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الايجاد بلفظ الرتق أقول وتحقيقه أن العدم نفى محض فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة بل كأنه أمر واحد متصل متشابه فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض و ينفصل بعضها عن بعض فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) ان الليل سابق على النهار لقوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وكانت السموات والارض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى باظهار النهار المبصر فان قيل فأى الاقاويل أليق بالظاهر قلنا الظاهر يقتضى ان السماء على ما هى عليه والارض على ما هى عليه كانتا رتقا ولا يجوز كونهما كذلك الا وهما موجود ان والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة و بهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا و يصير الوجه الاول اولى الوجوه و يتلوه الوجه الثانى وهو ان كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بان جعل كل واحد منهما سبعا و يتلوه الثالث وهو انهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ففتقهما لينزل المطر من السماء ويظهر النبات على الارض (المسئلة السادسة) دلالة هذه الوجوه على اثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة لان أحدا لا يقدر على مثل ذلك والاقرب انه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة ثم لما أسكن الله الارض أهلها جعلهما فتقا لما فيه من منافع العباد (النوع الثانى من الدلائل) قوله تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قوله وجعلنا لا يخلوا ما ان يتعدى الى واحد اواثنين فان تعدى الى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أوكأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل وان تعدى الى اثنين فالمعنى صيرنا كل شئ حى بسبب من الماء لا بد له منه ومن هذا نحو من فى قوله عليه السلام ما أنا من دد ولا الدد منى وقرئ حيا وهو المفعول الثانى

وقرئ الحق بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيدا للسببية وقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه ✵ ١٤٥ ✵ لا اله الا أنا فاعبدون) استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرئ يوحى على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأياما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) حكاية لجناية فريق من المشركين جئ بها لاظهار بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشا وبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (سبحانه) أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان ✵ ١٩ ✵ س مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على انه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى (بل عباد) اضراب وابطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى (مكرمون) مقربون عنده وقرئ مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم

(المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان وقد قال والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء فى الاخبار ان الله تعالى خلق الملائكة من النور قال تعالى فى حق عيسى عليه السلام واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وقال فى حق آدم خلقه من تراب (والجواب) اللفظ وان كان عاما الا أن القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لا بد وأن يكون مشاهدا محسوسا ليكون أقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيئا من ذلك (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله كل شئ حى الحيوان فقط وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر وهذا القول أليق بالمعنى المقصود كأنه تعالى قال ففتقنا السماء لانزال المطر وجعلنا منه كل شئ فى الارض من النبات وغيره حيا حجة القول الاول ان النبات لا يسمى حيا قلنا لا نسلم والدليل عليه قوله تعالى كيف يحيى الارض بعد موتها أما قوله تعالى أفلا يؤمنون فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الادلة فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك (النوع الثالث) قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الاولى وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله لئلا يعلم أهل الكتاب (المسئلة الثانية) الرواسى الجبال والراسى هو الداخل فى الارض (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تتكفأ بأهلها كما تتكفأ السفينة لانها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال (النوع الرابع) قوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا قلت لم تقدم وهى صفة ولكنها جعلت حالا كقوله لعزة موحشا طلل * قديم الفرق من جهة المعنى ان قوله سبلا فجاجا اعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقا واسعة وأما قوله فجاجا سبلا فهو اعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهذه الآية بيان لما أبهم فى الآية الاولى (المسئلة الثانية) فى قوله فيها قولان (أحدهما) انها عائدة الى الجبال أى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجا سبلا أى طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا (الثانى) انها عائدة الى الارض أى وجعلنا فى الارض فجاجا وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى (المسئلة الثالثة) قوله لعلهم يهتدون معناه لكى يهتدوا اذ الشك لا يجوز على الله تعالى (المسئلة الرابعة) فى يهتدون قولان (الاول) ليهتدوا الى البلاد (الثانى) ليهتدوا الى وحدانية الله تعالى بالاستدلال قالت المعتزلة وهذا التأويل

وقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى أى لا يقولون شيئا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق وأداة له ثم أنيب اللام عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرئ لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق واشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم (وهم بأمره يعملون) بيان لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير أمره لا الى أمر غيره (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) استئناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الاقوال والاعمال لا يزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون ✻ يدل ✻

يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء والكلام عليه قد تقدم وفيه قول ثالث وهوان الاهتداء الى البلاد والاهتداء الى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهوأصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للامرين ولايلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معا (النوع الخامس) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) سمى السماء سقفا لانها للارض كالسقف للبيت (المسئلة الثانية) فى المحفوظ قولان (أحدهما) انه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجرى مثلهما على سائر السقوف كقوله ويمسك السماء أن تقع على الارض الاباذنه وقال ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره وقال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا وقال ولايؤده حفظهما (الثانى) محفوظا من الشياطين قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم ثم ههنا قولان (أحدهما) انه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) انه محفوظ بالنجوم من الشياطين والقول الاول أقوى لان حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لانه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لانه لايخاف على السماء من استراق سمع الجن (المسئلة الثالثة) قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الادلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (المسئلة الرابعة) قرئ عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الارض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون (النوع السادس) قوله تعالى وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه سبحانه لماقال وهم عن اياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لوخلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها فلهذا قال كل فى فلك يسبحون وتقريره أن نقول قد ثبت بالارصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة واستدلوا عليه بانا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة اذا قارن ما هو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جدا فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى أن يقابلها على

على قول أو عمل بغير امره تعالى (ولايشفعون الالمن ارتضى) أن يشفع له مهابة منه تعالى (وهم) مع ذلك (من خشيته) عزوجل (مشفقون) مرتعدون وأصل الخشية

الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر (ومن يقل منهم) أى من الملائكة اذ الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم (انى اله من دونه) متجاوزا اياه تعالى (فذلك) الذى فرض قوله فرض محال (نجزيه جهنم) كسائر المجرمين ولايغنى عنهم ماذكر من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ماتوهمه أولئك الكفرة مالايخفى (كذلك نجزى الظالمين) مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ماقبله أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الاشياء فى غير مواضعها ويتعدون أطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان دون الزيادة أى لاجزاء انقص منه (أولم ير الذين كفروا) تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جميع ماسواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرئ بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (ان السموات والارض كانتا) أى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله

تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا (رتقا) الرتق الضم والالتحام والمعنى اما على حذف المضاف أو هو بمعنى
المفعول أى كانتا ذواتى رتق أو مرتوقتين وقرئ رتقا أى شيئا رتقا أى مرتوقا (ففتقناهما) قال ابن عباس
رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيئا واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتهما ففتقتهما وعن الحسن خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدى كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين ان السموات كانت رتقا مستوية صلبة لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعا على أن لها مدخلا فى الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لا سترة به وأما بالمعانى الاول فهم وان لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما اما بطريق النظر والتفكر

قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب الى المشرق هذا ماقالوه ونحن خالفناهم فيه وقلنا ان ذلك محال لان الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب الى المشرق حركة بطيئه ولاشك انها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب الى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين الى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لان الحركة الى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل اليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة الى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حال حركتها الى الجانب الشرقى تنقطع حركتها الى الجانب الغربى وبالعكس وأيضا فاذكرتموه ينتقض بحركة الرحى الى جانب والنملة التى تكون عليها تتحرك الى خلاف ذلك الجانب قلنا أما الاول فلا يستقيم على أصولكم لان حركات الافلاك مصونة على الانقطاع عندكم وأما الثانى فهو مثال محتمل وماذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان أما الذى احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب الى المشرق فهو ضعيف فانه يقال لم لا يجوز أن يقال ان جميع الكواكب متحركة من المشرق الى المغرب الا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك الى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الاعظم استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة الامقدار ثانية فيظن ان فلك الثوابت تحرك من الجهة الاخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لانه تخلف بمقدار ثانية وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا الى أن ينتهى الى فلك القمر فهو أبطأ الافلاك حركة وهذا الذى قلناه مع مايشهد له البرهان المذكور فهو أقرب الى ترتيب الوجود فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الاعظم ونهاية السكون الجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الارض ثم ان كل ما كان أقرب الى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا مانقوله فى حركات الافلاك فى أطوالها وأما حركاتها فى عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها الى الشمال والجنوب اذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذى يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات فاحالتها كلها الى النارية وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط مالا يحاذيه على كيفية أخرى وخط

فان الفتق عارض مفتقر الى مؤثر قديم وامابالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب (وجعلنا من الماء كل شئ حى)
أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق ﴿ ١٤٩ ﴾ كل دابة من ماء وذلك لانه من أعظم مواده أو لفرط

المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون فى موضع شتاء دائم و يكون فيه الهواء والعجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع أوخريف لايتم فيه النضج ولولم تكن عودات متتالية وكان الكوكب يتحرك بطيا لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولوكانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت وأما اذا كان هناك ميل يحفظ الحركة فى جهة مدة ثم ينتقل الى جهة أخرى بمقدار الحاجة و يبقى فى كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصونا عن طرفى الافراط والتفريط وبالجملة فالعقول لاتقف الاعلى القليل من اسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية (المسئلة الثانية) انه لايجوز أن يقول وكل فى فلك يسبحون الا و يدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة أولا كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها والله أعلم (المسئلة الثالثة) الفلك فى كلام العرب كل شئ دائر وجمعه أفلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال الاكثرون بل هى أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب الى ظاهر القرآن ثم اختلفوا فى كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبى ماء مجموع تجرى فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لاتكون الا فى الماء قلنا لانسلم فانه يقال فى الفرس الذى يمد يديه فى الجرى سابح وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة انها أجرام صلبة لاثقيلة ولاخفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول فاما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور فى الكتب اللائقة به والحق انه لاسبيل الى معرفة صفات السموات الابالخبر (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه اما أن يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك فى الماء الراكد واما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه أيضا امامخالفا لجهة حركته أوموافقا لجهته اما بحركة مساوية لحركة الفلك فى السرعة والبطء أو مخالفة واما أن يكون الفلك متحركا والكوكب ساكنا أما الرأى الاول فقالت الفلاسفة انه باطل لانه يوجب خرق الافلاك وهو محال وأما الرأى الثانى فحركة الكواكب ان فرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضا يوجب الخرق وان كانت حركتها الى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها فى السرعة والبطء لزم الانخراق وان استويا فى الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضا لازم لان الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق الا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزا فى الفلك واقفا فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك واعلم ان مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الافلاك وهو باطل بل الحق ان الاقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذى يدل عليه لفظ

احتياجه اليه وانتفاعه به أوصيرنا كل شئ حى من الماء أى بسبب منه لابد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لالمجرد أن المفعولين فى الاصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدا فان ذلك مصحح محض لامرجح وقرئ حيا على انه صفة كل أومفعول ثان والظرف كما فى الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر (أفلا يؤمنون) انكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عزوجل بالوهية وعلى كون ماسواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون (وجعلنا فى الارض رواسى) أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشئ اذا ثبت ورسخ و وصف جمع

المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لاريب فى صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات (أن تميد بهم)
أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أولئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس (وجعلنا فيها) أى فى الارض
وتكرير الفعل لاختلاف

المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أوفى الرواسى لانها المحتاجة الى الطرق (فجاجا) مسالك واسعة وانما قدم على قوله
تعالى (سبلا) وهو وصف ليصير حالا فيفيد أنه تعالى

حين خلقها خلقها كذلك اوليبدل منها سبلا
فيدل ضمنا على انه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع مافيه من التوكيد (لعلهم يهتدون) أى الى مصالحهم ومهماتهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) من الوقوع بقدرتنا القاهرة أومن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا أومن استراق السمع بالشهب (وهم عن آياتها) الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وارادته التى بعضها محسوس و بعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة (معرضون) لايتدبرون فيها فيبقون على ماهم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده (كل) أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المصاف اليه (فى فلك يسبحون) أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك ﴿ بالغ ﴾
كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم (وماجعلنا لبشر من

القرآن أن تكون الافلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة فى الماء (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف كل التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أى كلهم فى فلك يسبحون والله أعلم (المسئلة السادسة) احتج أبو على بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله يسبحون قال والجمع بالواو والنون لايكون الا للعقلاء و بقوله تعالى والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين والجواب انما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر أولا محل لها لاستئنافها فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون فى فلك قلت هذا كقوله كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا أى كل واحد منهم ❊ قوله تعالى (وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الاهزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما استدل بالاشياء الستة التى شرحناها فى الفصل المتقدم وكانت تلك الاشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على ان هذه الدنيا جعلها كذلك لالتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ولكى يتوصل بها الى الآخرة التى هى دار الخلود فاما قوله تعالى وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) قال مقاتل ان ناسا كانوا يقولون ان محمدا صلى الله عليه وسلم لايموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون انه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أى قضى الله تعالى أن لايخلد فى الدنيا بشر فلا أنت ولاهم الاعرضة للموت أفان مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفى معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا ❊ سيلقى الشامتون كما لقينا

(وثالثها) يحتمل انه لما ظهر انه عليه السلام خاتم الانبياء جاز أن يقدر مقدر انه لايموت اذ لومات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على ان حاله كحال غيره من الانبياء عليهم السلام فى الموت أما قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت ففيه ابحاث (الاول) ان هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك مع ان الموت لايجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهى لاتموت والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الاشياء وذلك يبطل قول الفلاسفة فى أن الارواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكيه لاتموت (والثانى) الذوق ههنا لايمكن اجراؤه على ظاهره لان الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق ادراك خاص فيجوز جعله مجازا عن أصل الادراك وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لان الموت قبل دخوله فى الوجود يمتنع ادراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتا والميت لايدرك شيئا (والثالث) الاضافة فى ذائقة الموت فى تقدير الانفصال لانه لما يستقبل كقوله غير محلى الصيد وهديا

قبلك الخلد) أى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية (أفان مت) بمقتضى حكمتنا (فهم الخالدون)
نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها

بالغ الكعبة أما قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الابتلاء لا يتحقق الا مع التكليف فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على انه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وان كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين (أحدهما) ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثانى) ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر فى المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (المسئلة الثانية) انما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لانه فى صورة الاختبار (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (المسئلة الرابعة) احتجت التناسخية بقوله والينا ترجعون فان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) انه مذكور مجازا (المسئلة الخامسة) المراد من قوله والينا ترجعون انهم يرجعون الى حكمه ومحاسبته ومجازاته فبين بذلك بطلان قولهم فى نفى البعث والمعاد واستدلت التناسخية بهذه الآية وقالوا ان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه وقد كنا موجودين قبل دخولنا فى هذا العالم واستدلت المجسمة بانا أجسام فرجوعنا الى الله تعالى يقتضى كون الله تعالى جسما والجواب عنه قد تقدم فى مواضع كثيرة أما قوله تعالى واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا قال السدى ومقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان مع أبى جهل فقال أبو جهل لابى سفيان هذا نبى بنى عبد مناف فقال أبو سفيان وما تنكر أن يكون نبيا فى بنى عبد مناف فسمع النبى صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لابى جهل ما أراك تنتهى حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة وأما أنت يا أبا سفيان فانما قلت ما قلت حمية فنزلت هذه الآية ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله أهذا الذى يذكر آلهتكم والذكر يكون بخير وبخلافه فاذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك لرجل سمعت فلانا يذكرك فان كان الذاكر صديقا فهو ثناء وان كان عدوا فهو ذم ومنه قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم والمعنى انه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها وأما قوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون فالمعنى انهم يعيبون عليه ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء مع انهم بذكر الرحمن الذى هو المنعم الخالق المحيى المميت كافرون ولا فعل أقبح من ذلك فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون ويحتمل أن يراد بذكر الرحمن القرآن والكتب والمعنى فى اعادة هم ان الاولى اشارة الى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل والثانية ابانة لاختصاصهم به وأيضا فان فى اعادتها تأكيدا وتعظيما لفعلهم * قوله تعالى

(خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم

بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه انكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه ايضا مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفان مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مرارة مفارقتها جسدها برهان على ما أنكر من خلودهم (ونبلوكم) الخطاب اما للناس كافة بطريق التلوين او للكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم (بالشر والخير) بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أولا (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الاعمال فهو على الاول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض
وفيه ايماء الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرئ يرجعون بالياء على الالتفات
(واذا رآك الذين كفروا) أى المشركون (ان يتخذونك الا هزوا) اى ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم
معك عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون

الخ وقوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى انهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتكم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بارشاد الخلق بارسال الرسل وانزال الكتب أو بالقران كافرون فهم أحقاء بالعيب والانكار فالضمير الاول مبتدأ خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للاول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول (خلق الانسان من عجل) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من الاركان ايذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجاله بالوعيد روى انها نزلت فى النضر (على)

ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) أما قوله تعالى خلق الانسان من عجل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى المراد من الانسان قولان (أحدهما) انه النوع (والثانى) انه شخص معين (أما القول الاول) فتقريره انهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة الى العلم والاقرار ويقولون متى هذا الوعد فأراد زجرهم عن ذلك فقدم أولا ذم الانسان على افراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال لا يبعد منكم أن تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم فان قيل مقدمة الكلام لابد وأن تكون مناسبة للكلام وكون الانسان مخلوقا من العجل يناسب كونه معذورا فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله فلا تستعجلون قلنا لان العائق كلما كان أشد كانت القدرة على مخالفته أكمل فكأنه سبحانه نبه بهذا على ان ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها (أما القول الثانى) وهو ان المراد شخص معين ففيه وجهان (أحدهما) ان المراد آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى والكلبى ومقاتل والضحاك وروى ابن جريج وليث بن أبى سليم عن مجاهد قال خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شئ من آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال يارب استعجل خلقى قبل غروب الشمس قال ليث فذلك قوله تعالى خلق الانسان من عجل وعن السدى لما نفخ فيه الروح فدخل فى رأسه عطس فقالت له الملائكة قل الحمد لله فقال ذلك فقال الله له يرحمك ربك فلما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه الى ثمار الجنة وهذا هو الذى أورث أولاده العجلة (وثانيهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء نزلت هذه الآية فى النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو واعلم ان القول الاول أولى لان الغرض ذم القوم وذلك لا يحصل الا اذا حملنا لفظ الانسان على النوع (المسئلة الثانية) من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها أما الاولون فلهم فيها أقوال (أحدها) قول المحققين وهو أن قوله خلق الانسان من عجل اى خلق عجولا وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكى هو نار تشتعل والعرب قد تسمى المرء بما يكثر منه فتقول ما أنت الا أكل ونوم وما هو الا اقبال وادبار قال الشاعر

أما اذا ذكرت حتى اذا غفلت * فانما هى اقبال وادبار

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى وكان الانسان عجولا قال المبرد خلق الانسان من عجل أى من شانه العجلة كقوله خلقكم من ضعف أى ضعفاء (وثانيها) قال أبو عبيد العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا * والنخل ينبت بين الماء والعجل * (وثالثها) قال الاخفش من عجل أى من تعجيل من الامر وهو قوله كن (ورابعها) من عجل أى من ضعف عن الحسن أما الذين قلبوها فقالوا المعنى خلق العجل من الانسان كقوله ويوم يعرض الذين كفروا

ابن الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بالانسان آدم عليه السلام وانه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم وروى انه لما دخل

على النار أى تعرض النار عليهم والقول الاول أقرب الى الصواب وأبعد الاقوال هذا القلب لانه اذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على انه مقلوب وأيضا فان قوله خلقت العجلة من الانسان فيه وجوه من المجاز فالفائدة فى تغيير النظم الى ما يجرى مجراه فى المجاز (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة قلنا استعجالهم على هذا الوجه أدخل فى الذم لانه اذا ذم المرء على استعجال الامر المعلوم فبأن
استعجالهم على هذا الوجه أدخل فى الذم لانه اذا ذم المرء على استعجال الامر المعلوم فبأن
يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى وأيضا فان استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين فى الحقيقة أما قوله تعالى سأريكم آياتى فلا تستعجلون فقد اختلفوا فى المراد بالآيات على أقوال (أحدها) أنها هى الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ولذلك قال فلا تستعجلون أى انها ستأتى لا محالة فى وقتها (وثانيها) انها أدلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) انها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والاول أقرب الى النظم أما قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فاعلم ان هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فبين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم انه سبحانه ذكر فى رفع هذا الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهين (الاول) أن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون قال صاحب الكشاف جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أى لو يعلمون الوقت الذى يسألون عنه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون أيضا ناصرا ينصرهم لقوله تعالى فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم وانما حسن حذف الجواب لان ما تقدم يدل عليه وهذا أبلغ ومثله ولو يرى الذين ظلموا ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وانما خص الوجوه والظهور لان مس العذاب لهما أعظم موقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما فى دفع المضرة عن النفس ثم انه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين ان وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لامرها مستعدين فتبهتهم أى تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة فى ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أى لا يمهلون لتوبة ولا معذرة واعلم ان الله تعالى انما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لان المرء مع كتمان ذلك أشد حذرا وأقرب الى التلافى ثم انه سبحانه ذكر الوجه الثانى فى دفع الحزن عن قلب رسوله فقال ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم

الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى ﴿١٥٣﴾ خلق الانسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان انه من دواعى عجلته فى الامور والاظهر أن المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السلام ساريا الى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى (سأريكم آياتى) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره (فلا تستعجلون) بالاتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها (ويقولون متى هذا الوعد) أى وقت مجئ الساعة التى كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك (ان كنتم صادقين) أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجئ الساعة وجواب الشرط ﴿٢٠ س﴾ محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة فان ذلك فى قوة الامر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة ان كنتم صادقين

ماكانوا به يستهزؤن والمعنى ولقد استهزئ برسل من قبلك يامحمد كما استهزأ بك قومك فحاق أى نزل وأحاط بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزؤن أى عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم * قوله تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لايستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار فى الآخرة لايكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضا لولا ان الله تعالى يحرسهم و يحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزؤن و يغترون بما هم عليه من يكلؤكم بالليل والنهار وهذا كقول الرجل لمن حصل فى قبضته ولامخلص له منه الى أين مفرك منى هل لك محيص عنى والكالئ الحافظ وأما قوله من الرحمن ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى معناه وجوه (أحدها) من يكلؤكم من الرحمن أى مما يقدر على انزاله بكم من عذاب تستحقونه (وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أباحه الله لكفرهم فبين سبحانه انه لاحافظ لهم ولادافع عن هذه الامور لو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما تمتعوا بالدنيا (المسئلة الثانية) انما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقينا للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالئ ياالهنا لكل الخلائق برحمتك كما فى قوله ماغرك بربك الكريم انما خص اسم الكريم بالذكر تلقينا للجواب (المسئلة الثالثة) انما ذكر الليل والنهار لان لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل اذا نمتم و بالنهار اذا تصرفتم فى معايشكم أما قوله بل هم عن ذكر ربهم معرضون فالمعنى انه تعالى مع انعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شئ منها ليعرفوا انه لاكالئ لهم سواه و يتركوا عبادة الاصنام التى لاحظ لها فى حفظهم ولا فى الانعام عليهم أما قوله تعالى أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لايستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون فاعلم ان الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا والتقدير ألهم آلهة من دوننا تمنعهم وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال لايستطيعون نصر أنفسهم وهذا خبر مبتدا محذوف أى فهذه الآلهة لاتستطيع حماية أنفسها عن الآفات وحماية النفس أولى من حماية الغير فاذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها وفى قوله ولاهم منا يصحبون قولان (الاول) قال المازنى أصحبت الرجل اذا منعته فقوله ولاهم منا يصحبون من ذلك لامن الصحبة (والثانى) ان الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلها سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله و يقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولاهم منا فى نصرة ولا اعانة والحاصل ان من لايكون

(ويريهم ... تعرفوا) استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم انما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وايثار صيغة المضارع فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن الى لشكرتك فان المعنى ان انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لا لانتفاء استمرار الاحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى (حين لايكفون عن وجوههم النار ولاعن ظهورهم) مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب أيضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بانه من الظهور بحيث لاحاجة له الى الاخبار به وانما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لايقدرون على دفعها * (قادرا)

بانفسهم من جانب من جوانبهم (ولاهم ينصرون) من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز
أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف

قادرا على دفع الآفات ولا يكون مصحوبا من الله بالاعانة كيف يقدر على شئ ثم بين
سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر يعنى
ما حملهم على الاعراض الا الاغترار بطول المهلة يعنى طالت أعمارهم فى الغفلة فنسوا
عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا واغتروا بذلك أما قوله تعالى أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها
فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى اتيان الارض
من جوانبها بأخذ الواحد بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وزيدها فى ملك
محمد صلى الله عليه وسلم ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا ونقص من الشرك باهلاك
أهله أما كان لهم فى ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلموا أنهم
لا يقدرون على الامتناع من أمر الله وارادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم أفهم
الغالبون أى فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى
بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام فى هذه الآية فى سورة الرعد وفى تفسير
النقصان وجوه (أحدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبى رضى الله عنهم ننقصها بفتح
البلدان (وثانيها) قال ابن عباس فى رواية أخرى يريد نقصان أهلها وبركتها (وثالثها)
قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها (ورابعها) بموت العلماء وهذه الرواية ان
صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعدل عنها والا فالاظهر من الاقاويل ما يتعلق
بالغلبة فلذلك قال أفهم الغالبون والذى يليق بذلك انه ينقصها عنهم ويزيدها فى بلاد
الاسلام قال القفال نزلت هذه الآية فى كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء
فبين تعالى ان كل ذلك من العبر التى لو استعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم ❊ قوله
تعالى (قل انما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من
عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم
نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) اعلم انه سبحانه لما
كرر فى القرآن الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله قل انما أنذركم بالوحى
أى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلى بل الله آتيكم به وأمرنى بانذاركم
فاذا قمت بما ألزمنى ربى فلم يقع منكم القبول والاجابة فالوبال عليكم يعود ومثلهم من
حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من انذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون اصلا
اذ الغرض بالانذار ليس السماع بل التمسك به فى اقدام على واجب وتحرز عن محرم
ومعرفة بالحق فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع قال صاحب الكشاف قرئ
ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء أى لا تسمع أنت أو لا يسمع رسول الله أو لا يسمع الصم
من أسمع فان قلت الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قال اذا
ما ينذرون قلت اللام فى الصم اشارة الى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والاصل
ولا يسمعون الدعاء اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم

مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره الى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال (بل تأتيهم) عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة (بغتة فتبهتهم) أى تغلبهم أو تحيرهم وقرئ الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء فى قوله تعالى (فلا يستطيعون ردها) بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة ويجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية (ولاهم ينظرون) أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لامهالهم فى الدنيا (ولقد استهزئ برسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بانه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام

وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى وبالله
لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف
اليه مقامه (فحاق) أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك

قال معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل الا في الشر والحيق مايشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بالذين سخروا منهم) أى من أولئك الرسل ﴿ ١٥٦ ﴾ عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى

هو قوله تعالى (ما كانوا به يستهزؤن) للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أى فاحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لاجله واما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ الى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل اشاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لاجزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أى فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب ايذانا بكمال الملابسة بينهما أوعين استهزائهم ان أريد بذلك العذاب الاخروى بناء على تجسم الاعمال فان الاعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح وعلى ذلك بنى

أسماعهم اذا أنذروا أى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامم عن آيات الانذار ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير الى أن يصيروا بحيث اذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون و يعتذرون و يعترفون حين لا ينتفعون وهذا هو المراد بقوله ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مستهم شئ قليل من عذاب الله كالرائحة من الشئ دون جسمه لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم قال صاحب الكشاف في المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس ومافى النفح من معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح يسير ونفحه بعطية رضخه ولفظ المرة ثم بين سبحانه وتعالى ان جميع ماينزل بهم في الآخرة لايكون الاعدلا فهم وان ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يظلموا في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى ونضع الموازين القسط وصفها الله تعالى بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين ان تلك الموازين تجرى على حد العدل والقسط وأكد ذلك بقوله فلا تظلم نفس شيئا وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى وضعها احضارها قال الفراء القسط صفة الموازين وان كان موحدا وهو كقولك للقوم أنتم عدل وقال الزجاج ونضع الموازين ذوات القسط وقوله ليوم القيامة قال الفراء في يوم القيامة وقيل لاهل يوم القيامة (المسئلة الثانية) في وضع الموازين قولان (أحدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم في الاعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه يعنى ان حسناته تذهب بسيئاته ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفت موازينه أى ان سيئاته تذهب بحسناته حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما (الثانى) وهو قول أئمة السلف انه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الاعمال وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام و يروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشى عليه فلما أفاق قال يا الهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات فقال ياداود انى اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة ثم على هذا القول في كيفية وزن الاعمال طريقان (أحدهما) أن توزن صحائف الاعمال (والثانى) يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل أهل القيامة اما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم أولا يعلمون ذلك فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافيا في معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات فلا يكون في وضع الميزان فائدة البتة وان لم يعلموا لم تحصل الفائدة في وزن الصحائف لاحتمال انه سبحانه جعل احدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلما فثبت ان وضع الميزان على كلا التقديرين خال عن الفائدة وجوابه على قولنا قوله تعالى لايسأل عما يفعل وهم يسألون وأيضا ففيه ظهور حال الولى من العدو في مجمع الخلائق فيكون لاحد القبيلين في ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم

الوزن وقدمر تفصيله في سورة الاعراف وفى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية الى آخرها (قل) ﴿ ويكون خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسليته بماذكر من مصير أمرهم الى الهلاك وأمر له عليه السلام بان يقول لأولئك

و يكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره اذا ثبت هذا فنقول الدليل على وجود الموازين الحقيقية ان حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة غير جائز لاسيما وقد جاءت الاحاديث الكثيرة بالاسانيد الصحيحة فى هذا الباب (المسئلة الثالثة) قال قوم ان هذه الآية يناقضها قوله تعالى فلانقيم لهم يوم القيامة وزنا والجواب انه لايكرمهم ولايعظمهم (المسئلة الرابعة) انما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم ويجوز أن يرجع الى الموزونات أما قوله تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها فالمعنى انه لاينقص من احسان محسن و لايزاد فى اساءة مسئ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مثقال حبة على كان التامة كقوله تعالى وان كان ذو عسرة وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما آتينا بها وهى مفاعلة من الاتيان بمعنى المجازاة والمكافاة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب وفى حرف ابى جئنا بها (المسئلة الثانية) لم أنث ضمير المثقال قلنا لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه (المسئلة الثالثة) زعم الجبائى ان من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزأ من الثواب فهذا الاقل ينحبط بالاكثر و يبقى الاكثر كما كان واعلم ان هذه الآية تبطل قوله لان الله تعالى تمدح بان اليسير من الطاعة لايسقط ولو كان الامر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة قوله فلا تظلم نفس شيئا فيه دلالة على ان مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم فدل هذا الوجه على انه تعالى لايعذب من لايستحق ولايفعل المضار فى الدنيا الاللمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لانه المالك المطلق ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا ان الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال فالظلم على الله تعالى محال وأيضا فان الظالم سفيه خارج عن الالهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الالهية فحينئذ يكون كونه الها من الجائزات لامن الواجبات وذلك يقدح فى الهيته (المسئلة الخامسة) ان قيل الحبة أعظم من الخردلة فكيف قال حبة من خردل قلنا الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار والغرض المبالغة فى ان شيئا من الاعمال صغيرا كان أو كبيرا غير ضائع عند الله تعالى أما قوله تعالى وكفى بنا حاسبين فالغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لايمكن أن يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لايعجز عن شئ حقيق بالعاقل أن يكون فى أشد الخوف منه و يروى عن الشبلى رحمه الله تعالى انه رؤى فى المنام فقيل له مافعل الله بك فقال حاسبونا فدققوا ❀ ثم منوا فأعتقوا ❀ قوله تعالى (و لقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) اعلم انه سبحانه لماتكلم فى دلائل التوحيد

المستهزئين بطريق التفريع والتبكيت (من يكلؤكم) اى يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أى من باسه الذى تستحقون نزوله ليلا أونهارا وتقديم الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية ايذان بان كالئهم ليس الا رحمته العامة و بعد ماأمر عليه السلام بماذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لانهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بان يكلفوا الاعتراف بذلك فيو بخوا على ماهم عليه من الاشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) بيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لايخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا باسه و يعدوا ماكانوا عليه من الامن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالئ على طريقة قول من قال ❀ عوجوا لخيوا النعمى دمنة الدار ❀ ماذا تحيون من نؤى وأحجار ❀ وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف الى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى مالايخفى وكلمة أم فى قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) منقطعة ومافيها من معنى بل للاضراب والانتقال عماقبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم الناشئ عن اعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية

والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما
يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا
منها قصصا (القصة الاولى) قصة موسى عليه السلام ووجه الاتصال انه تعالى لما أمر
رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول انما أنذركم بالوحى أتبعه بان هذه عادة الله تعالى
فى الانبياء قبله فقال ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين
واختلفوا فى المراد بالفرقان على أقوال (أحدها) انه هو التوراة فكان فرقانا اذ كان
يفرق به بين الحق والباطل وكان ضياء اذ كان لغاية وضوحه يتوصل به الى طرق الهدى
وسبل النجاة فى معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع وكان ذكرى أى موعظة أو ذكر
مايحتاجون اليه فى دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو فى قوله وضياء فروى عكرمة
عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان وأما القراءة
المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين والمعنى انه
فى نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى (القول
الثانى) ان المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس رضى
الله عنهما الفرقان هو النصر الذى أوتى موسى عليه السلام كقوله وما أنزلنا على عبدنا
يوم الفرقان يعنى يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الاديان الباطلة (وثانيها) هو
البرهان الذى فرق به دين الحق عن الاديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فلق البحر عن
الضحاك (ورابعها) الخروج عن الشبهات قال محمد بن كعب واعلم انه تعالى انما خصص
الذكرى بالمتقين لما فى قوله هدى للمتقين أما قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب فقال
صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه وفى معنى
الغيب وجوه (أحدها) يخشون عذاب ربهم فيأتمرون باوامره وينتهون عن نواهيه
وايمانهم بالله غيبى استدلالى فالعباد يعملون لله فى الغيب والله لايغيب عنه شئ عن ابن
عباس رضى الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها
(وثالثها) يخشون ربهم فى الخلوات اذا غابوا عن الناس وهذا هو الاقرب والمعنى ان
خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم لا أن ذلك مما يظهرونه فى الملا دون الخلاء وهم من
عذاب الساعة وسائر مايجرى فيها من الحساب والسؤال مشفقون فيعدلون بسبب ذلك
الاشفاق عن معصية الله تعالى ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن
المنزل عليك وهو معنى قوله وهذا ذكر مبارك بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله
أفأنتم له منكرون فالمعنى انه لا انكار فى انزاله وفى عجائب مافيه فقد آتينا موسى وهرون
التوراة ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على
الادلة العقلية وبيان الشرائع فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم انكاره
* القصة الثانية لابراهيم عليه السلام ۞ قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل

الى توبيخهم باعتمادهم على الهتهم واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار ان يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم
الهة تمنعهم من العذاب تجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون
بحفظها وفى توجيه
الانكار والنفى الى وجود
الآلهة الموصوفة بما
ذكر من المنع لا الى نفس
الصفة بأن يقال أم
تمنعهم آلهتهم الخ
من الدلالة على سقوطها
عن مرتبة الوجود
فضلا عن رتبة المنع
مالايخفى وقوله عز وعلا
(لايستطيعون نصر
أنفسهم ولاهم منا
يصحبون) استئناف
مقرر لما قبله من الانكار
وموضح لبطلان
اعتقادهم أى هم
لايستطيعون أن ينصروا
أنفسهم ولا يصحبون
بالنصر من جهتنا
فكيف يتوهم أن ينصروا
غيرهم وقوله تعالى
(بل متعنا هؤلاء وآباءهم
حتى طال عليهم العمر)
اضراب عما توهموا
ببيان أن الداعى الى
حفظهم تمتيعنا اياهم
بما قدر لهم من الاعمار
أو عن الدلالة على
بطلانه ببيان ما أوهمهم
ذلك وهو أنه تعالى
متعهم بالحياة الدنيا
وأمهلهم حتى طالت
أعمارهم فحسبوا أن لايزالوا كذلك وأنه بسبب ماهم عليه ولذلك عقب بما يدل على انه طمع فارغ وأمل كاذب ۞ (وكنا ۞
حيث قيل (أفلا يرون) أى ألا ينظرون فلا يرون (انا نأتى الارض) أى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) فكيف
يتوهمون انهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين

وكنا به عالمين اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين)

اعلم ان قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الرشد قولان (الاول) انه النبوة واحتجوا عليه بقوله وكنا به عالمين قالوا لانه تعالى انما يخص بالنبوة من يعلم من حاله انه فى المستقبل يقوم بحقها و يجتنب مالا يليق بها و يحترز عما ينفر قومه من القبول (والثانى) انه الاهتداء لوجوه الصلاح فى الدين والدنيا قال تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم وفيه قول ثالث وهو ان تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد اذ لا يجوز أن يبعث نبي الا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا فى ان الايمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم أجاب الكعبي بان هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه فيقال أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ولا يقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لا يتم الا اذا جعلنا قبوله جزأ من مسمى الرشد وذلك باطل لان المسمى اذا كان مركبا من جزأين ولا يكون أحدهما مقدور الفاعل لم يجز اضافة ذلك المسمى الى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لا يجوز اضافة الرشد الى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده صريح فى أن ذلك الرشد انما حصل من الله تعالى فبطل ما قالوه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ رشده كالعدم والعدم ومعنى اضافته اليه انه رشد مثله وانه رشد له شان أما قوله تعالى من قبل ففيه وجوه (أحدها) آتينا ابراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير (وثانيها) فى صغره قبل بلوغه حين كان فى السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء والا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعنى حين كان فى صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك أما قوله تعالى وكنا به عالمين فالمراد انه سبحانه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة وصفات قد رضيها حتى أهله لان يكون خليلا له وهذا كقولك فى رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام فى الدلالة على تعظيمه أدل مما اذا شرحت جلال كماله أما قوله تعالى اذ قال لأبيه وقومه فقال صاحب الكشاف اذا اما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت أما قوله ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) التمثال اسم للشئ المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى وأصله من مثلت الشئ بالشئ اذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال (المسئلة الثانية) ان القوم كانوا عباد أصنام على صور

ويضيفها الى دار الاسلام (أفهم الغالبون) على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والفاء لانكار ترتيب الغالبية
على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم
غلبتهم كما فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفى التعريف تعريض بان المسلمين هم المتعينون للغلبة المعرفون بها (قل انما أنذركم) بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بان يقول لهم انما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة (بالوحى) الصادق الناطق باتيانها وفظاعة ما فيها من الاهوال أى انما شأنى أن انذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية اذ الايمان برهانى لا عيانى وقوله تعالى (ولا يسمع الصم الدعاء) اما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض
قد أمر عليه السلام بان يقوله لهم توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين
انتظاما أوليا أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى (اذا ما ينذرون)
مع أن الصم لا يسمعون الكلام انذارا كان أو تبشيرا لبيان كمال

شدة الصمم كما أن إشار الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم

في غاية لاغاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون ويؤيده القراءة على خطاب النبي عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من اسماعهم وقرئ بالياء أيضا على أن الفاعل هو عليه السلام وقرئ على البناء للمفعول أي لا يقدر أحد على اسماع الصم وقوله تعالى (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) بيان لسرعة تأثرهم من مجيء نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجيء خبره على نهج التوكيد القسمي أي وبالله لئن أصابهم أدنى اصابة أدنى شيء من عذابه تعالى كما ينبئ عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فان أصل النفح هبوب رائحة الشيء (ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين) ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى (ونضع الموازين القسط) بيان لما سيقع عند اتيان ما أنذروه أي نقيم الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الاعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الاعمال وقدمر تفصيل ما فيه من الكلام في سورة الاعراف ﴿ ويقويها ﴾

مخصوصة كصورة الانسان أوغيره فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف لم ينو للعاكفين مفعولا وأجراه مجرى مالا يتعدى كقولك فاعلون للعكوف أوواقفون لها قال فان قلت هلا قيل عليها عاكفون كقوله يعكفون على أصنام لهم قلت لوقصد التعدية لعداه بصلته التي هي على أما قوله قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فاعلم ان القوم لم يجدوا في جوابه الا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد النكير لانهم اذا كانوا على خطا من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطا ان آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق فلاجرم أجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين فبين ان الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصا ورأوه ثابتا على الانكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجري مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم فعند ذلك قالوا له أجئتنا بالحق ام أنت من اللاعبين موهمين بهذا الكلام انه يبعد أن يقدم على الانكار عليهم جادا في ذلك فعنده عدل صلى الله عليه وسلم الى بيان التوحيد ❊ قوله تعالى (قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) اعلم ان القوم لما أوهموا انه انما يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام مايعلمون به انه مجد في اظهار الحق الذي هو التوحيد وذلك بالقول أولا ثم بالفعل ثانيا أما الطريقة القولية فهي قوله بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقها لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد لان من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الاخرة بالعقاب والثواب فيرجع حاصل هذه الطريقة الى الطريقة التي ذكرها لأبيه في قوله ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا قال صاحب الكشاف الضمير في فطرهن للسموات والارض أوللتماثيل وكونه للتماثيل أدخل في الاحتجاج عليهم أما قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ففيه وجهان (الاول) ان المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق كقول الرجل اذا بالغ في مدح أحد أوذمه أشهد أنه كريم أوذميم (والثاني) انه عليه السلام عنى بقوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ادعاء انه قادر على اثبات ماذكره بالحجة واني لست مثلكم فأقول مالا أقدر على اثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم وأما الطريقة الفعلية فهي قوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل الى ان أراهم عدم الفائدة في عبادتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه وبالله وقرئ تولوا بمعنى تتولوا

ويقويها قوله فتولوا عنه مدبرين فان قلت ما الفرق بين الباء والتاء قلت ان الباء هى الاصل
والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهيل
الكيد على يده لان ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته (المسئلة الثانية) ان قيل لماذا
قال لأكيدن أصنامكم والكيد هو الاحتيال على الغير فى ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى
فى الاصنام (وجوابه) قال ذلك توسعا لما كان عندهم ان الضرر يجوز عليها وقيل المراد
لأكيدنكم فى أصنامكم لانه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم (المسئلة الثالثة) فى كيفية
أول القصة وجهان (أحدهما) قال السدى كانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على
الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان هذا الوقت قال آزر لابراهيم عليه
السلام لو خرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم
اشتكى رجلى فلما مضوا وبقى ضعفاء الناس نادى وقال تالله لاكيدن أصنامكم واحتج هذا
القائل بقوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (وثانيها) قال الكلبى كان
ابراهيم عليه السلام من اهل بيت ينظرون فى النجوم وكانوا اذا خرجوا الى عيدهم لم
يتركوا الا مريضا فلما هم ابراهيم بالذى هم به من كسر الاصنام نظر قبل يوم العيد الى
السماء فقال لاصحابه ارانى أشتكى غدا فذلك قوله فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم
وأصبح من الغد معصوبا رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال أما والله
لاكيدن أصنامكم وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم ان ذلك الرجل أخبر غيره
وانتشر ذلك فى جماعة فلذلك قال تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم واعلم ان كلا الوجهين ممكن
ثم تمام القصة ان ابراهيم عليه السلام لما دخل بيت الاصنام وجد سبعين صنما مصطفة
وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان فى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل
فكسرها كلها بفاس فى يده حتى لم يبق الا الكبير ثم علق الفاس فى عنقه أما قوله تعالى
فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قيل لم
قال فجعلهم جذاذا وهذا جمع لا يليق الا بالناس (جوابه) من حيث اعتقدوا فيها انها
كالناس فى انها تعظم و يتقرب اليها ولعل كان فيهم من يظن انها تضر و تنفع
(المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف جذاذا قطاعا من الجذ وهو القطع وقرئ بالكسر
والفتح وقرئ جذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى
الاكبيرا لهم قلنا يحتمل الكبير فى الخلقة و يحتمل فى التعظيم و يحتمل فى الامرين وأما
قوله لعلهم اليه يرجعون فيحتمل رجوعهم الى ابراهيم عليه السلام و يحتمل رجوعهم الى
الكبير (أما الاول) فتقريره من وجهين (الاول) ان المعنى انهم لعلهم يرجعون الى مقالة
ابراهيم و يعدلون عن الباطل (والثانى) انه غلب على ظنه انهم لا يرجعون الا اليه لما
تسامعوه من انكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فبكتهم بما أجاب به من قوله بل فعله كبيرهم هذا
فاسألوهم أما اذا قلنا الضمير راجع الى الكبير ففيه وجهان (الاول) ان المعنى لعلهم

وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة (ليوم القيامة) التى كانوا يستعجلونها اى جزائه
قولك جئت لخمس خلون من الشهر (فلا تظلم نفس) من النفوس (شيئا) حقا من حقوقها أو شيئا ما من
الظلم بل يوفى كل ذى
حق حقه ان خيرا
فخير وان شرا فشر والفاء
لترتيب انتفاء الظلم على
وضع الموازين (وان
كان) أى العمل المدلول
عليه بوضع الموازين
(مثقال حبة من خردل)
أى مقدار حبة كائنة من
خردل أى وان كان فى
غاية القلة والحقارة
فان حبة الخردل مثل
فى الصغر وقرئ مثقال
حبة بالرفع على أن كان
تامة (أتينا بها) أى
أحضرنا ذلك العمل
المعبر عنه بمثقال حبة
الخردل للوزن والتأنيث
لاضافته الى الحبة وقرئ
آتينا بها أى جازينا بها
من الايتاء بمعنى المجازاة
والمكافأة او المؤاتاة
لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم
بالجزاء وقرئ أثبنا من
الثواب وقرئ جئنا بها
(وكفى بنا حاسبين)
اذ لا مزيد على علمنا
وعدلنا (ولقد آتينا
موسى وهرون الفرقان
وضياء وذكرا للمتقين)
نوع تفصيل لما أجمل
فى قوله تعالى وما أرسلنا
قبلك الا رجالا نوحى اليهم الى قوله تعالى وأهلكنا المسرفين واشارة الى كيفية انجائهم وأهلاك
أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى

... بالفرقان هو التوراة و كذا بالضياء والذكرى و بالله لقد آتينا هما وحيا ساطعا

وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء ﴿ ١٦٢ ﴾ يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية و ذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع والاحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لاسيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولان فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقرئ ضياء بغير واو على انه حال من الفرقان وقوله تعالى (الذين يخشون ربهم) أى عذابه مجرور المحل على انه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح (بالغيب) حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار ما لم يشاهد و اما أنذر وه وقيل من الفاعل (وهم من الساعة مشفقون) أى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم ﴿ يشهدون ﴾

يرجعون اليه كما يرجع الى العالم فى حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحا والفاس على عاتقك وهذا قول الكلبى وانما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تجيب وتتكلم (والثانى) انه عليه السلام قال ذلك مع علمه انهم لا يرجعون اليه استهزاء بهم وان قياس حال من يسجد له و يؤهل للعبادة أن يرجع اليه فى حل المشكلات (المسئلة الرابعة) ان قيل أولئك الاقوام اما أن يقال انهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء فان كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة ان تلك الاصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر فأى حاجة فى اثبات ذلك الى كسرها أقصى ما فى الباب أن يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب وكسرها لا يقدح فى كونها معظمة من هذا الوجه وان قلنا انهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم (والجواب) انهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة انها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تماثيل الكواكب وانها طلسمات موضوعة بحيث ان كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد ثم ان ابراهيم عليه السلام كسرها مع انه ما ناله منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه أما قوله تعالى قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين أى من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود فى الظلمة اما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والاعظام واما لانهم رأوا افراطا فى كسرها وتماديا فى الاستهانة بها أما قوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج ارتفع ابراهيم على وجهين (أحدهما) على معنى يقال هو ابراهيم (والثانى) على النداء على معنى يقال له يا ابراهيم قال صاحب الكشاف والصحيح انه فاعل يقال لان المراد الاسم دون المسمى (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على ان القائلين جماعة لا واحد فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله فى آلهتهم فغلب على قلوبهم انه الفاعل ولو لم يكن الا قوله ما هذه التماثيل الى غير ذلك لكفى ☼ قوله تعالى (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) اعلم ان القوم لما شاهدوا كسر الاصنام وقيل ان فاعله ابراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم فأتوا به على أعين الناس قال صاحب الكشاف على أعين الناس فى محل الحال أى فأتوا به مشاهدا أى بمرأى منهم ومنظر فان قلت ما معنى الاستعلاء فى على قلت هو وارد على طريق المثل أى يثبت اتيانه فى الاعين ثبات الراكب على المركوب أما قوله تعالى لعلهم يشهدون ففيه وجهان (أحدهما) انهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فارادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم

منهابالذكر بعدوصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم

به المستعجلون وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه (وهذا) أى القرآن الكريم أشير اليه بهذا ايذانا بغاية وضوح أمره (ذكر) يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر السورة الكريمة (مبارك) كثير الخير غزير النفع يتبرك به (أنزلناه) اما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر (أفأنتم له منكرون) انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء التوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلا (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقرئ رشده وهما لغتان كالحزن والحزن (من قبل) أى من قبل ايتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر ايتائها لما بينه وبين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من

يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل وهذا قول الحسن وقتادة والسدى وعطاء وابن عباس رضى الله عنهم (وثانيهما) وهو قول محمد بن اسحق أى يحضرون فيبصرون مايصنع به فيكون ذلك زاجرا لهم عن الاقدام على مثل فعله وفيه قول ثالث وهو قول مقاتل والكلبى ان المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله و يشهدون عقابه أما قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا فاعلم ان فى الكلام حذفا وهو فاتوا به وقالوا أأنت فعلت طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على ايذائه فظهر منه ما انقلب الامر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال بل فعله كبيرهم هذا وقد علق الفاس على رقبته لكى يورد هذا القول فيظهر جهلهم فى عبادة الاوثان فان قيل قوله بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (أحدهما) وهو قول كافة المحققين انه ليس بكذب وذكروا فى الاعتذار عنه وجوها (أحدها) ان قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا وصاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للامى أو المخرمش لان اثباته والامر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به واثبات للقادر (وثانيها) ان ابراهيم عليه السلام غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة مزينة وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لانه هو السبب فى استهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه (وثالثها) أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على هذا وأشد منه وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) انه كناية عن غير مذكور أى فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائى انه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) انه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسئلوهم والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لان الانسان أكبر من كل صنم (وسادسها) أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسئلوهم فتكون اضافة الفعل الى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع ان يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أى فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثانى) وهو قول طائفة من أهل الحكايات ان ذلك كذب واحتجوا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها فى ذات الله تعالى قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هى أختى وفى خبر آخر ان أهل الموقف اذا سألوا ابراهيم الشفاعة قال انى كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب

... (وكنا به عالمين) أى بانه أهل لما آتيناه وفيه من الدليل على انه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى (اذ قال لابيه وقومه) ظرف ﴿ ١٦٤ ﴾ لآتينا على انه وقت متسع وقع فيه الايتاء وماترتب عليه من أفعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قوله لهم (ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشئ مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم كأنه لايعرف أنها ماذا مع احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشئ لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها واذلالها وتوبيخا لهم على اجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية والا لجئ بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أجابوا بذلك لما أن ما آل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفه ﴿ فتأفف ﴾

ليس قبيحا لذاته فان النبى عليه السلام اذا هرب من ظالم واختفى فى دار انسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه واذا كان كذلك فأى بعد فى أن يأذن الله تعالى فى ذلك لمصلحة لايعرفها الا هو واعلم ان هذا القول مرغوب عنه أما الخبر الاول وهو الذى رووه فلأن يضاف الكذب الى رواته أولى من أن يضاف الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام والدليل القاطع عليه انه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه فلنجوز هذا الاحتمال فى كل ما أخبروا عنه وفى كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة الى كلها ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب فأما قوله تعالى انى سقيم فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجئ فى موضعه وأما قوله بل فعله كبيرهم فقد ظهر الجواب عنه أما قوله لسارة انها أختى فالمراد انها أخته فى الدين واذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب الى الانبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب اليهم الا زنديق أما قوله تعالى فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ففيه وجوه (الاول) ان ابراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا ان عبادة الاصنام باطلة وانهم على غرور وجهل فى ذلك (والثانى) قال مقاتل فرجعوا الى أنفسهم فلاموها وقالوا انكم أنتم الظالمون لابراهيم حيث تزعمون انه كسرها مع ان الفأس بين يدى الصنم الكبير (وثالثها) المعنى انكم أنتم الظالمون لانفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم فى الجواب والاقرب هو الاول أما قوله تعالى ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى المعنى وجوه (أحدها) ان المراد استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا المجادلة بالباطل وان هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤسهم حقيقة لفرط اطراقهم خجلا وانكسارا وانخذالا مما بهتهم به ابراهيم فما أحاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم (وثالثها) قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤسهم فى الحجة عليهم لابراهيم حين جادلهم أى قلبوا فى الحجة واحتجوا على ابراهيم بما هو الحجة لابراهيم عليهم فقالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فاقروا بهذه للحيرة التى لحقتهم قال والمعنى نكست حجتهم فاقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم (المسئلة الثانية) قرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما لم يسم فاعله أى نكسوا أنفسهم على رؤسهم وهى قراءة رضوان بن عبد المعبود أما قوله تعالى قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر وأن ابراهيم عليه السلام أضجره مارأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل

فتأفف بهم ثم يحتمل انه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله و يحتمل انه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وان لم يعقلوا وهذا هو الاقرب لقوله أفتعبدون ولقوله أفلا تعقلون ✲ قوله تعالى (قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) اعلم انه تعالى لما بين ماأظهره ابراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وابطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم وانهم قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ليس فى القرآن من القائل لذلك والمشهور أنه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول انما أشار بتحريق ابراهيم عليه السلام رجل من الكرد من اعراب فارس وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائى قال ان الذى قال حرقوه رجل اسمه هيزن فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة (المسئلة الثانية) أما كيفية القصة فقال مقاتل لما اجتمع نمروذ وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه فى بيت و بنوا بنيانا كالحظيرة وذلك قوله قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى ان المرأة لو مرضت قالت ان عافانى الله لاجمعن حطبا لابراهيم ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوما فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير فى أقصى الهواء لاحترق ثم أخذوا ابراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيها من الملائكة الا الثقلين صيحة واحدة أى ربنا ليس فى أرضك أحد يعبدك غير ابراهيم وانه يحرق فيك فأذن لنا فى نصرته فقال سبحانه ان استغاث بأحد منكم فاغيثوه وان لم يدع غيرى فانا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى و بينه فلما أرادوا القاءه فى النار أتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لاحاجة بى اليكم ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الارض ليس فى الارض أحد يعبدك غيرى حسبنا الله ونعم الوكيل وقيل انه حين ألقى فى النار قال لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لاشريك لك ثم وضعوه فى المنجنيق ورموا به النار فأتاه جبريل عليه السلام وقال يا ابراهيم هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فقال الله تعالى يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وقال السدى انما قال ذلك جبريل عليه السلام قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية مجاهد ولو لم يتبع بردا سلاما لمات ابراهيم من بردها قال ولم يبق يومئذ فى الدنيا نار الا طفئت ثم قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى ابراهيم وأقعدوه فى الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وقال المنهال بن عمرو أخبرت ان ابراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار كان فيها اما أربعين يوما أو خمسين يوما وقال ما كنت أياما أطيب عيشا منى

أنتم وآباؤكم) الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة (فى ضلال) عجيب لايقادر قدره (مبين) أى ظاهر بين بحيث لايخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لااستقرارهم الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده الى دليل ما والتقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة (قالوا) لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ماهم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام اياهم بطريق التوكيد القسمى وترددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد (أجئتنا بالحق) أى بالجد (أم أنت من اللاعبين) فتقول ماتقول على وجه المداعبة والمزاح وفى ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان برجحانه عندهم (قال) عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها

عاكفين كأنه قيل ليس الامر كذلك (بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) وقيل هواضراب عن
كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضميرهن للسموات والارض
وصفه تعالى بايجادهن اثر وصفه
تعالى بربوبيته تعالى
لهن تحقيقا للحق وتنبيها
على أن مالايكون كذلك
بمعزل من الربوبية أى
أنشأهن بمافيهن من
المخلوقات التى من جملتها
أنتم وآباؤكم وماتعبدونه
من غير مثال يحتذيه ولا
قانون ينتحيه ورجع
الضمير الى التماثيل
ادخل فى تضليلهم
وأظهر فى الزام الحجة
عليهم لمافيه من التصريح
المغنى عن التأمل فى كون
ما يعبدونه من جملة
المخلوقات (وأنا على
ذلكم) الذى ذكرته
من كون ربكم رب
السموات والارض فقط
دون ماعداه كائناما كان
(من الشاهدين) أى
العالمين به على سبيل
الحقيقة المبرهنين عليه
فان الشاهد على الشئ
من تحققه وحققه وشهادته
على ذلك ادلاؤه بالحجة
عليه واثباته بها كأنه
قال وأنا ابين ذلك وأبرهن
عليه (وتالله) وقرئ
بالباء وهو الاصل والتاء
بدل من الواو التى هى
بدل من الاصل وفيها
تعجب (لأكيدن أصنامكم) أى لاجتهدن فى كسرها وفيه ايذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه
على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام ✱ وجب ✱

اذ كنت فيها وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يونسه وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وقال يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لاتضر أحبابى ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على ابراهيم فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك قاعدا الى جنبه وماحوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال قم فاخرج فقام يمشى حتى خرج منها فلما خرج قال له نمروذ من الرجل الذى رأيته معك فى صورتك قال ذاك ملك الظل أرسله ربى ليونسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى ربك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فانى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال ابراهيم عليه السلام لايقبل الله منك مادمت على دينك فقال نمروذ لاأستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها له ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام ورويت هذه القصة على وجه آخر وهى انهم بنوا لابراهيم بنيانا والقوه فيه ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ثم أطبقوا عليه ثم فتحوا عليه من الغد فاذا هو غير محترق يعرق عرقا فقال لهم هاران أبو لوط ان النار لاتحرقه لانه سحر النار ولكن اجعلوه على شئ وأوقدوا تحته فان الدخان يقتله فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته فطارت شرارة فوقعت فى لحية أبى لوط فأحرقته (المسئلة الثالثة) انما اختاروا المعاقبة بالنار لانها أشد العقوبات ولهذا قيل ان كنتم فاعلين أى ان كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا فاختاروا أشد العقوبات وهى الاحراق أما قوله تعالى قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو مسلم الاصفهانى فى تفسير قوله تعالى قلنا يانار كونى بردا المعنى انه سبحانه جعل النار بردا وسلاما لاان هناك كلاما كقوله أن يقول له كن فيكون أى يكونه وقد احتج عليه بان النار جماد فلا يجوز خطابه والاكثرون على انه وجد ذلك القول ثم هؤلاء لهم قولان (أحدهما) وهو قول السدى ان القائل هو جبريل عليه السلام (والثانى) وهو قول الاكثرين ان القائل هو الله تعالى وهذا هو الاليق الاقرب بالظاهر وقوله النار جماد فلا يكون فى خطابها فائدة قلنا لم لايجوز أن يكون المقصود من ذلك الامر مصلحة عائدة الى الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان النار كيف بردت على ثلاثة أقوال (أحدها) ان الله تعالى أزال عنها مافيها من الحر والاحراق وأبقى مافيها من الاضاءة والاشراق والله على كل شئ قدير (وثانيها) ان الله تعالى خلق فى جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار اليه كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة وكما انه ركب بنية النعامة بحيث لايضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لايضره المكث فى النار (وثالثها) انه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار اليه قال المحققون والاول أولى لان ظاهر قوله يانار كونى بردا ان نفس النار صارت باردة حتى سلم ابراهيم من تاثيرها لاان النار بقيت كما كانت فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة فاذا كانت الحرارة جزأ من مسمى النار امتنع كون النار باردة فاذا

وجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفى المجازين اللذين ذكرتموهما لايبقى ذلك فكان مجازنا أولى أما قوله تعالى كونى بردا وسلاما على ابراهيم فالمعنى ان البرد اذا افرط أهلك كالحر بل لابد من الاعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة أوجه (أحدها) انه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لا يؤثر (وثانيها) ان بعض النار صار بردا وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) انه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات (السؤال الاول) أوكل النار زالت وصارت بردا الجواب ان النار هو اسم الماهية فلابد وأن يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل افراد الماهية وقيل بل اختص بتلك النار لان الغرض انما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها والمراد خلاص ابراهيم عليه السلام لا ايصال الضرر الى سائر الخلق (السؤال الثانى) هل يجوز ماروى عن الحسن من انه سلام من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام (الجواب) الظاهر كانه جعل النار بردا جعلها سلاما عليه حتى يخلص فالذى قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب (السؤال الثالث) أفيجوز ماروى من انه لو لم يقل وسلاما لاتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لان برد النار لم يحصل منها وانما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاما (السؤال الرابع) أفيجوز ماقيل من انه كان فى النار أنعم عيشا منه فى سائر أحواله (والجواب) لايمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ويجوز أن يكون انما صار أنعم عيشا هناك لعظم مانا له من السرور بخلاصه من ذلك الامر العظيم ولعظم سروره بظفره باعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى أما قوله تعالى وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين أى أرادوا أن يكيدوه فما كانوا الا مغلوبين غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة ثم عدلوا الى القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم ثم انه سبحانه أتم النعمة عليه بان نجاه ونجى لوطا معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وفى الاخبار ان هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة الى الارض المباركة ثم قيل انها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والسبب فى بركتها أما فى الدين فلان أكثر الانبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها وأما فى الدنيا فلان الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش وقيل مامن ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التى بيت المقدس ✵ قوله تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) اعلم انه تعالى بعد ذكره لانعامه على ابراهيم وعلى لوط بان

(جذاذا) أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرئ بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرئ بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم فبدؤا بيت الاصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى ابراهيم عليه السلام فنظر الى الاصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفاس فى عنقه وذلك قوله تعالى (الا كبيرا لهم) أى للاصنام (لعلهم اليه) أى الى ابراهيم عليه السلام

(يرجعون) فيحاجهم بما ياتى فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شأن المعبود أن يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع مايصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم (قالوا) أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا مارأوا (من فعل هذا بآلهتنا)

نجاهما الى الارض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم وانما جمع بينهما الان فى كون لوط معه
مع ما كان بينهما من القرابة والشركة فى النبوة مزيد انعام ثم انه سبحانه ذكر النعم التى
أفاضها على ابراهيم عليه السلام ثم النعم التى أفاضها على لوط اما الاول فمن وجوه (أحدها)
ووهبنا له اسحق و يعقوب نافلة واعلم ان النافلة العطية خاصة وكذلك النفل و يسمى
الرجل الكثير العطايا نوفلا ثم للمفسرين ههنا قولان (الاول) انه ههنا مصدر من وهبنا له
مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك و بين قوله ووهبنا له هبة أى وهبنا هما له عطية
وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقا وهذا قول مجاهد وعطاء (والثانى) وهو قول أبى
ابن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولدا
قال رب هب لى من الصالحين فأجاب الله دعاءه ووهب له اسحق وأعطاه يعقوب من غير
دعائه فكان ذلك نافلة كالشئ المتطوع به من الآدميين فكأنه قال ووهبنا له اسحق اجابة
لدعائه ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التى هى زيادة على الفرض وعلى
هذا النافلة يعقوب خاصة (والوجه الاول) أقرب لانه تعالى جمع بينهما ثم ذكر قوله نافلة
فاذا صلح أن يكون وصفا لهما فهو أولى (النعمة الثانية) قوله تعالى وكلا جعلنا صالحين أى
وكلا من ابراهيم واسحق و يعقوب أنبياء مرسلين هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين
بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه والوجه الثانى أقرب لان لفظ الصلاح يتناول
الكل لانه سبحانه قال بعد هذه الآية وأوحينا اليهم فعل الخيرات فلو حملنا الصلاح على
النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان
قوله وكلا جعلنا صالحين يدل على ان ذلك الصلاح من قبله أجاب الجبائى بانه لو كان
كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين و بكونهم أئمة و بكونهم عابدين ولما مدحهم بذلك
ولما أثنى عليهم واذا ثبت ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين (الاول) أن يكون
المراد انه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثانى) أن يكون المراد انه سماهم
بذلك كما يقال زيد فسق فلانا وضلله و كفره اذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس وكما
يقال فى الحاكم زكى فلانا وعدله وجرحه اذا حكم بذلك واعلم ان هذه الوجوه مختلة
اما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهود ان نعارضه بمسئلتى الداعى والعلم
وأما الحمل على اللطف فباطل لان فعل الالطاف عام فى المكلفين فلا بد فى هذا التخصيص
من مزيد فائدة وأيضا فلان قوله جعلته صالحا كقوله جعلته متحركا فحمله على تحصيل
شئ سوى الصلاح ترك للظاهر وأما الحمل على التسمية فهو أيضا مجاز اقصى ما فى الباب
انه قد يصار اليه عند الضرورة فى بعض المواضع وههنا لا ضرورة الا أن يرجعوا مرة
أخرى الى فصل المدح و الذم فحينئذ نرجع أيضا الى مسئلتى الداعى والعلم
(النعمة الثالثة) قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وفيه قولان (أحدهما) أى
جعلناهم أئمة يدعون الناس الى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا واذننا (والثانى) قول

...يح والتشنيع وانما عبروا عنها باذكروا لم يشيروا اليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى التشنيع
وقوله تعالى (انه لمن الظالمين) استئناف مقرر لماقبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع
على أنها خبرها والمعنى
الذى فعل هذا الكسر
والحطم بالهتنا انه
معدود من جملة الظلمة
اما لجرأته على اهانتها
وهى حقيقة بالاعظام
أو لافراطه فى الكسر
والحطم وتماديه
فى الاستهانة بها أو
بتعريض نفسه للهلكة
(قالوا) أى بعض منهم
مجيبين للسائلين (سمعنا
فتى يذكرهم) أى يعيبهم
فلعله فعل ذلك بها
فقوله تعالى يذكرهم
اما مفعول ثان لسمع
لتعلقه بالعين أو صفة
لفتى مصححة لتعلقه به
هذا اذا كان القائلون
سمعوه عليه السلام
بالذات يذكرهم
وان كانوا قد سمعوا
من الناس انه عليه
السلام يذكرهم بسوء
فلا حاجة الى المصحح
(يقال له ابراهيم) صفة
أخرى لفتى أى يطلق
عليه هذا الاسم (قالوا)
أى السائلون (فأتوا به
على أعين الناس) أى
بمرأى منهم بحيث يكون
نصب أعينهم فى مكان
مرتفع لا يكاد يخفى على أحد (لعلهم يشهدون) أى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون بفعله
أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم او معهود (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ
من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به أولا فقيل أتوا به ثم قالوا

(أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) اقتصارا على حكاية مخاطبتهم اياه عليه السلام للتنبيه على ان الباعث لهم ... الى ذلك أمر محقق غنى عن البيان (قال بل فعله ❊ ١٦٩ ❊ كبيرهم هذا) مشيرا الى الذى لم يكسره سلك عليه السلام

أبى مسلم ان هذه الامامة هى النبوة والاول أولى لئلا يلزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين (أحدهما) على خلق الافعال بقوله وجعلناهم أئمة وتقريره مامضى (والثانى) على ان الدعوة الى الحق والمنع عن الباطل لايجوز الا بأمر الله تعالى لان الامر لولم يكن معتبرا لما كان فى قوله بأمرنا فائدة (النعمة الرابعة) قوله تعالى وأوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الاب قال الزجاج حذف الهاء من اقامة الصلاة لان الاضافة عوض عنه وقال غيره الاقام والاقامة مصدر قال أبو القاسم الانصارى الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى والزكاة اشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله واعلم انه سبحانه وصفهم أولا بالصلاح لانه أول مراتب السائرين الى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحى واذا كان الصلاح الذى هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على ان الانبياء معصومون فان المحروم عن أول المراتب أولى بان يكون محروما عن النهاية ثم انه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال وكانوا لنا عابدين كانه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية فى الاحسان والانعام فهم أيضا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة (القصة الثالثة) قصة لوط عليه السلام ❊ قوله تعالى (ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وادخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين) اعلم انه سبحانه بعد بيان ماانعم به على ابراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الواو فى قوله ولوطا قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه عطف على قوله وأوحينا اليهم (والثانى) قول أبى مسلم انه عطف على قوله آتينا ابراهيم رشده ولابد من ضمير فى قوله ولوطا فكانه قال وآتينا لوطا فاضمر ذكره (المسئلة الثانية) فى أصناف النعم وهى أربعة وجوه (أحدها) الحكم أى الحكمة وهى التى يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هى النبوة (وثانيها) العلم واعلم ان ادخال التنوين عليهما يدل على علو شان ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قوله ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث والمراد أهل القرية لانهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولان الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ثم بين سبحانه وتعالى بقوله انهم كانوا قوم سوء فاسقين ماأراده بالخبائث وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر (ورابعها) قوله وادخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين وفى تفسير الرحمة قولان (الاول) انه النبوة أى انه لما كان صالحا للنبوة ادخله الله فى رحمته لكى يقوم بحقها عن مقاتل (الثانى) انه الثواب عن ابن عباس والضحاك ويحتمل أن يقال انه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الالهية وهى

مسلكا تعريضيا يؤديه الى مقصده الذى هو الزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع مافيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما ابرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد اسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الاصنام غاظته عليه السلام حين ابصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كانه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على ماهو أشد من ذلك ويحكى انه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه

الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به ❊ ٢٢ ❊ س عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الاصنام وأما ماقيل من انه عليه

...بين ما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على اسلوب تعريضي يبلغ فيه
غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمي فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخطأ
أنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لانفيها عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لان خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الامر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها من غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب فى ان مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال اصنامهم كما ينبئ عنه قوله (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) اى ان كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام ان كانوا يسمعون او يعقلون مع ان السؤال موقوف على السمع والعقل ايضا لما ان نتيجة السؤال هو الجواب وان عدم نطقهم اظهر وتبكيتهم بذلك ادخل وقد حصل ذلك اولا حسبما نطق به قوله تعالى (فرجعوا ۞ سليمان ۞
الى (انفسهم) اى

بحر لاساحل له وهى الرحمة فى الحقيقة (القصة الرابعة) قصة نوح عليه السلام ۞ قوله تعالى (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم اجمعين) أما قوله تعالى اذ نادى من قبل ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لاشبهة فى ان المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله فدعا ربه انى مغلوب فانتصر وتارة على التفصيل وهو قوله وقال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ويدل عليه أيضا ان الله تعالى أجابه بقوله فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهذا الجواب يدل على ان الانجاء المذكور فيه كان هو المطلوب فى السؤال فدل هذا على ان نداءه ودعاءه كان بان ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الاذى بالتكذيب والرد عليه وبان ينصره عليهم وأن يهلكهم فلذلك قال بعده ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا (المسئلة الثانية) أجمع المحققون على ان ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لانه لولم يكن بامر لم يؤمن ان يكون الصلاح أن لايجاب اليه فيصير ذلك سببا لنقصان حال الانبياء ولان الاقدام على امثال هذه المطالب لولم يكن بالامر لكان ذلك مبالغة فى الاضرار وقال آخرون انه عليه السلام لم يكن ماذونا له فى ذلك وقال أبو أمامة لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح فحسرة آدم على قبول وسوسة ابليس وحسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى الله تعالى اليه أن لاتتحسر فان دعوتك وافقت قدرى أما قوله تعالى فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فالمراد بالاهل ههنا أهل دينه وفى تفسير الكرب وجوه (أحدها) انه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين (وثانيها) انه تكذيب قومه اياه ومالقى منهم من الاذى (وثالثها) انه مجموع الامرين وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وهو الاقرب لانه عليه السلام كان قد دعاهم الى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند أعلام الله تعالى اياه انه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذى يتخلص من الغرق ومن الذى يغرق فازال الله تعالى عنه الكرب العظيم بان خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه أما قوله تعالى ونصرناه من القوم فقراءة ابى بن كعب ونصرناه على القوم ثم قال المبرد تقديره ونصرناه من مكروه القوم وقال تعالى فمن ينصرنا من باس الله أى يعصمنا من عذابه قال أبو عبيدة من بمعنى على وقال صاحب الكشاف انه نصر الذى مطاوعه انتصر وسمعت هذليا يدعو على سارق اللهم انصرهم منه أى اجعلهم منتصرين منه أما قوله تعالى انهم كانوا قوم سوء فالمعنى انهم كانوا قوم سوء لاجل ردهم عليه وتكذيبهم له فاغرقناهم أجمعين فبين ذلك الوجه الذى به خلصه منهم (القصة الخامسة) قصة داود وسليمان عليهما السلام ۞ قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها

راجعوا عقولهم وتذكروا ان ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل ان يقدر على دفع مضرة عن غيره اوجلب منفعة له فكيف يستحق ان يكون معبودا (فقالوا)

سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجري بامره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) اعلم ان قوله تعالى وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون كله نسق على ما تقدم من قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ومن قوله ولوطا آتيناه حكما وعلما واعلم ان المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم أما النعمة المشتركة فهى القصة المذكورة وهى قصة الحكومة ووجه النعمة فيها ان الله تعالى زينهما بالعلم والفهم فى قوله وكلا آتينا حكما وعلما وفى هذا تنبيه على ان العلم أفضل الكمالات وأعظمها وذلك لان الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن واذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الاشياء فما ظنك بغيرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت النفش ان تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع وهذا قول جمهور المفسرين وعن الحسن انه يجوز ذلك ليلا ونهارا (المسئلة الثانية) أكثر المفسرين على ان الحرث هو الزرع وقال بعضهم هو الكرم والاول اشبه بالعرف (المسئلة الثالثة) احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين مع ان المراد داود وسليمان (جوابه) ان الحكم كما يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له فاذا أضيف الحكم الى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين وقرئ وكنا لحكمهما شاهدين (المسئلة الرابعة) فى كيفية القصة وجهان (الاول) قال اكثر المفسرين دخل رجلان على داود عليه السلام (أحدهما) صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان غنم هذا دخلت حرثى وما أبقت منه شيئا فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال لو كنت انا القاضى لقضيت بغير هذا فاخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال كيف كنت تقضى بينهما فقال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى اذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم الى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثانى) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهما الله ان راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الاغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد الى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لانه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكما فاخبراه به فقال غير هذا أرفق بالفريقين فاخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الابوة والبنوة الا أخبرتنى بالذى هو ارفق بالفريقين فقال تسلم الغنم الى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعى فى اصلاح الكرم حتى يصير كما كان ثم ترد الغنم الى صاحبها فقال

اى قال بعضهم لبعض فيما بينهم (انكم انتم الظالمون) اى بهذا السؤال لانه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة اوبعبادة الاصنام لا من ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين او انتم الظالمون بعبادتها لا من كسرها (ثم نكسوا على رؤسهم) اى انقلبوا الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم الى الباطل بصيرورة اسفل الشئ اعلاه وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل اى نكسوا انفسهم (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) على ارادة القول اى قائلين والله لقد علمت ان ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لا نفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع (قال) مبكتا لهم (افتعبدون) أى أتعلمون ذلك فتعبدون (من دون الله) أى متجاوزين عبادته تعالى (ما لا ينفعكم شيئا) من النفع (ولا يضركم) فان العلم بحاله المنافية للالوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم

داود عليه السلام انما القضاء ماقضيت وحكم بذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة وههنا أمور لابد من البحث عنها (السؤال الاول) هل فى الآية دلالة على انهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم أم لا فان أبابكر الاصم قال انهما لم يختلفا البتة وانه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب انهما اختلفا والدليل اجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على ماروينا وأيضا فقد قال الله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين ثم قال ففهمناها سليمان والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقا على هذا التفهيم وذلك الحكم السابق اما أن يقال اتفقا فيه أو اختلفا فيه فان اتفقا فيه لم يبق لقوله ففهمناها سليمان فائدة وان اختلفا فيه فذلك هو المطلوب (السؤال الثانى) سلمنا انهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد (الجواب) الامران جائزان عندنا وزعم الجبائى انهما كانا صادرين عن النص ثم انه تارة يبنى ذلك على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء وأخرى على ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم فى الجملة ولكنه غير جائز فى هذه المسئلة (أما المأخذ الاول) فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الاصول ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء عليهم السلام بامور (أحدها) قوله تعالى قل مايكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا مايوحى الى وقوله تعالى وماينطق عن الهوى (وثانيها) ان الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على ادراكه يقينا فلا يجوز مصيره الى الظن كالمعاين للقبلة لايجوز له ان يجتهد (وثالثها) ان مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومخالفة المظنون والمجتهدات لاتوجب الكفر (ورابعها) لوجاز أن يجتهد فى الاحكام لكان لايقف فى شئ منها ولما وقف فى مسئلة الظهار واللعان الى ورود الوحى دل على ان الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) أن الاجتهاد انما يجوز المصير اليه عند فقد النص لكن فقدان النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب أن لايجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لوجاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضا من جبريل عليه السلام وحينئذ لايحصل الامان بان هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل (والجواب) عن الاول ان قوله تعالى قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا مايوحى الى لايدل على قولكم لانه وارد فى ابدال آية بآية لانه عقيب قوله قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ولا مدخل للاجتهاد فى ذلك وأما قوله تعالى وماينطق عن الهوى فبعيد لان من يجوز له الاجتهاد يقول ان الذى اجتهد فيه هو عن وحى على الجملة وان لم يكن كذلك على التفصيل وان الآية واردة فى الاداء عن الله تعالى لافى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب) عن الثانى ان الله تعالى اذا قال له اذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الاصل بكذا ثم غلب على ظنك

﴿قيام﴾

الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح مافعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتأفف له (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح ﴿١٧٢﴾ صنيعكم (قالوا) أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا يدن المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لايبقى له مفزع الا المناصبة (حرقوه) فانه أشد العقوبات (وانصروا آلهتكم) بالانتقام لها (ان كنتم فاعلين) أى للنصر أولشئ يعتد به قيل القائل نمروذ بن كنعان بن السنجاريب ابن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الارض روى انهم لما أجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوما فاوقدوا نارا عظيمة لايكاد يحوم حولها أحد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فاتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الاكراد فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم عمدوا الى

ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال أما اليك فلا
قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالي علمه بحالي فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك

قيام ذلك المعنى في صورة أخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه
بل في طريقه (والجواب) عن الثالث انا لا نسلم ان مخالفة المجتهدات جائز مطلقا بل جواز
مخالفتها مشروط بصدورها عن غير المعصوم والدليل عليه انه يجوز على الامة أن يجمعوا
اجتهادا ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد (والجواب) عن الرابع لعله عليه السلام
كان ممنوعا من الاجتهاد في بعض الانواع أو كان مأذونا مطلقا لكنه لم يظهر له في تلك
الصورة وجه الاجتهاد فلا جرم انه توقف (والجواب) عن الخامس لم لا يجوز أن يحبس
النص عنه في بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب) عن السادس
ان هذا الاحتمال مدفوع باجماع الامة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين
والذي يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه (أحدها) انه عليه السلام اذا غلب على ظنه
ان الحكم في الاصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة اخرى فلا بد وان يغلب
على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الاصل وعنده مقدمة يقينية وهي ان
مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق
العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون وعند هذا اما أن يقدم على الفعل والترك معا وهو
محال لاستحالة الجمع بين النقيضين أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين
أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل او يرجح الراجح على المرجوح وذلك
هو العمل بالقياس وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس وهي قائمة
أيضا في حق الانبياء عليهم السلام وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه
السلام (وثانيها) قوله تعالى فاعتبروا أمر للكل بالاعتبار فوجب اندراج الرسول عليه
السلام فيه لانه امام المعتبرين وأفضلهم (وثالثها) ان الاستنباط أرفع درجات العلماء فوجب
أن يكون للرسول فيه مدخل والا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا
الباب فان قيل هذا انما يلزم لو لم تكن درجة اعلى من الاعتبار وليس الامر كذلك لانه
كان يستدرك الاحكام وحيا على سبيل اليقين فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذي ليس
قصاراه الا الظن قلنا لا يمتنع أن لا يجد النص في بعض المواضع فلو لم يتمكن من الاجتهاد
لكان أقل درجة من المجتهد الذي يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الاجتهاد وأيضا فقد بينا
ان الله تعالى لما أمره بالاجتهاد كان ذلك مفيدا للقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام
العلماء ورثة الانبياء فوجب أن يثبت للانبياء درجة الاجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك هذا
تمام القول في هذه المسئلة (وخامسها) انه تعالى قال عفا الله عنك لم اذنت لهم فذلك الاذن
ان كان باذن الله تعالى استحال أن يقول لم أذنت لهم وان كان بهوى النفس فهو غير جائز
وان كان بالاجتهاد فهو المطلوب (المأخذ الثاني) قال الجبائي لو جوزنا الاجتهاد من
الانبياء عليهم السلام في هذه المسئلة يجب أن لا يجوز لوجوه (أحدها) أن الذي وصل
الى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار فكيف يجوز في الاجتهاد

قوله تعالى (قلنا يا نار
كوني بردا وسلاما على
ابراهيم) أي كوني ذات
برد وسلام أي ابردي
بردا غير ضار وفيه
مبالغات جعل النار المسخرة
لقدرته تعالى مأمورة
مطاوعة واقامة كوني
ذات برد مقام ابردي
ثم حذف المضاف واقامة
المضاف اليه مقامه
وقيل نصب سلاما بفعله
أي وسلمنا سلاما عليه
روى أن الملائكة أخذوا
بضبعي ابراهيم وأقعدوه
على الارض فاذا عين
ماء عذب وورد أحمر
ونرجس ولم تحرق
النار منه الا وثاقه وروى
انه عليه السلام مكث
فيها أربعين يوما
أو خمسين وقال ما كنت
أطيب عيشا مني اذ كنت
فيها قال ابن يسار
وبعث الله تعالى ملك
الظل فقعد الى جنبه
يؤنسه فنظر نمرود
من صرحه فأشرف
عليه فرآه جالسا في روضة
مونقة ومعه جليس على
أحسن ما يكون من
الهيئة والنار محيطة
به فناداه يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشي فخرج منها فاستقبله نمرود وعظمه
وقال من الرجل الذي رأيته معك قال ذلك ملك الظل

أرسله ربي ليؤنسني فقال اني مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لا يقبل الله منك مادمت على دينك هذا قال لا استطيع تركه لكن ﴿ ١٧٤ ﴾ ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها

وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان اذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من ابدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيبا وان لم يكن بدعا من قدرة الله عزوجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم (وأرادوا به كيدا) مكرا عظيما فى الاضرار به (فجعلناهم الاخسرين) أى أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على انه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لاشد العذاب (ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) أى من العراق الى الشام وبركاته العامة أن اكثر الانبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم ﴿ منافع ﴾ والخصب الغالب روى انه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة

جعل احدهما عوضا عن الآخر (وثانيها) ان اجتهاد داود عليه السلام ان كان صوابا لزم أن لا ينقض لان الاجتهاد لا ينتقض بالاجتهاد وان كان خطأ وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الانبياء عليهم السلام فلما مدحهما بقوله وكلا آتينا حكما وعلما دل على انه لم يقع الخطأ من داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظنا لا علما لان الله تعالى قال وكلا آتينا حكما وعلما (ورابعها) كيف يجوز أن يكون عن اجتهاد مع قوله ففهمناها سليمان (والجواب) عن الاول ان الجهالة فى القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة (وعن الثانى) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بينا ان من تمسك بالقياس فالظن واقع فى طريق اثبات الحكم فاما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) انه اذا تامل واجتهد فاداه اجتهاده الى ما ذكرنا كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك فهذا جملة الكلام فى بيان انه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام فى ذلك الحكم انما كان بسبب الاجتهاد وأما بيان انه لا يمتنع أيضا أن يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال ان داود عليه السلام كان مامورا من قبل الله تعالى فى هذه المسئلة بالحكم الذى حكم به ثم انه سبحانه نسخ ذلك بالوحى الى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعا فقوله ففهمناها سليمان أى أوحينا اليه فان قيل هذا باطل لوجهين (الاول) لما أنزل الله تعالى الحكم الاول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضا على داود لا على سليمان (الثانى) ان الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن فى فهمه كثير مدح انما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة فى الاستنباط (السؤال الثالث) اذا أثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لاجل النص وأن يكون لاجل الاجتهاد فأى القولين اولى (والجواب) الاجتهاد أرجح لوجوه (احدها) انه روى فى الاخبار الكثيرة ان داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ان غير ذلك أولى وفى بعضها ان داود عليه السلام ناشده لكى يورد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص لانه لو كان نصا لكان يظهره ولا يكتمه (السؤال الرابع) بينوا انه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) ان وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من ان داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده ان الواجب فى ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى الى انه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فاما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائز لانه يقتضى الحيف والجور ولعل منافع الغنم فى تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به كما قال الشافعى رضى الله عنه فيمن غصب عبدا فابق من يده انه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من

منافع العبد فاذا ظهر ترادا (السؤال الخامس) على تقدير ان ثبت قطعا ان تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد فهل تدل هذه القصة على ان المصيب واحد أو الكل مصيبون (الجواب) أما القائلون بان المصيب واحد ففيهم من استدل بقوله تعالى ففهمناها سليمان قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة وأما القائلون بان الكل مصيبون ففيهم من استدل بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولو كان المصيب واحدا ومخالفه مخطئا لما صح أن يقال وكلا آتينا حكما وعلما واعلم ان الاستدلالين ضعيفان (أما الاول) فلان الله تعالى لم يقل انه فهمه الصواب فيحتمل انه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لانه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به على انا كثرما في الآية انها دالة على ان داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الامر كذلك في شرعنا (وأما الثاني) فلانه تعالى لم يقل ان كلا آتيناه حكما وعلما بما حكم به بل يجوز أن يكون اتيناه حكما وعلما بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام على انه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيبا في شرعهم أن يكون الامر كذلك في شرعنا (السؤال السادس) لو وقعت هذه الواقعة في شرعنا ما حكمها (الجواب) قال الحسن البصرى هذه الآية محكمة والقضاة بذلك يقضون الى يوم القيامة واعلم ان كثيرا من العلماء يزعمون انه منسوخ بالاجماع ثم اختلفوا في حكمه فقال الشافعي رحمه الله ان كان ذلك بالنهار لا ضمان لان لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه وان كان ليلا يلزمه الضمان لان حفظها بالليل عليه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان أو نهارا اذا لم يكن متعديا بالارسال لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار واحتج الشافعي رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب انه قال كانت ناقة ضارية فدخلت حائطا فافسدته فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى ان حفظ الحوائط بالنهار على أهلها وان حفظ الماشية بالليل على أهلها وان على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل وهذا تمام القول في هذه الآية ثم ان الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التي خص بها داود عليه السلام أمرين (الاول) قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تفسير هذا التسبيح وجهان (أحدهما) ان الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوها (أحدها) قال مقاتل اذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه (وثانيها) قال الكلبي اذا سبح داود أجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام اذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطا واشتياقا (القول الثاني) وهو اختيار بعض أصحاب المعاني انه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وتخصيص داود عليه السلام بذلك انما كان بسبب انه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما

لا لبعضهم دون بعض (جعلنا صالحين) بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم في أمور الدين اجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتي (يهدون) أى الامة الى الحق (بأمرنا) لهم بذلك وارسالنا اياهم حتى صاروا مكملين (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل الى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى (واقام الصلاة وايتاء الزكاة) وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وانافته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه (وكانوا لنا) خاصة دون غيرنا (عابدين) لا يخطر ببالهم غير عبادتنا

(ولوطا) قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (آتيناه) أى وآتينا لوطا وقيل باذكر (حكما) أى حكمة أو نبوة أو فصلا بين الخصوم بالحق (وعلما) بما ينبغي علمه للانبياء عليهم السلام (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) أى اللواطة وصفت بصفة اهلها

واستدل اليها على حذف المضاف واقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء فاسقين) فانه كالتعليل له
(وأدخلناه فى رحمتنا) أى فى أهل رحمتنا او فى جنتنا

(انه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى
(ونوحا) أى اذكر نوحا أى خبره وقوله تعالى (اذ نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه (من قبل) أى من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب فانتصر (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو الطوفان وقيل اذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) وحمله على فانتصر يأباه ما ذكر من دعائه عليه السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع ما فيه من تهويل الامر قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء) تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى (فأغرقناهم أجمعين) فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا (وداود وسليمان) اما عطف على نوحا معمول ﴿ فوارث ﴾ لعامله واما المضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى (اذ يحكمان) ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما

والقول الاول أقرب لانه لاضرورة فى صرف اللفظ عن ظاهره وأما المعتزلة فقالوا لو حصل الكلام من الجبل لحصل اما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه (والاول) محال لان بنية الجبل لاتحتمل الحياة والعلم والقدرة ومالا يكون حيا عالما قادرا يستحيل منه الفعل (والثانى) أيضا محال لان المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا الكلام فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل فثبت انه لايمكن اجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا فى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ومثله قوله تعالى ياجبال أوبى معه معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من السبح الذى هو السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولو لم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه أى سيرى وهو كقوله ان لك فى النهار سبحا طويلا أى تصرفا ومذهبا اذا ثبت هذا فنقول ان سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ماتنزه عنه واعلم ان مدار هذا القول على ان بنية الجبل لاتقبل الحياة وهذا ممنوع وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضا ممنوع (المسئلة الثانية) أما الطير فلا امتناع فى أن يصدر عنها الكلام ولكن أجمعت الامة على ان المكلفين اما الجن أو الانس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ فى العقل الى درجة التكليف بل تكون على حالة كحال الطفل فى أن يؤمر وينهى وان لم يكن مكلفا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق وأيضا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لايجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كان قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن والطير اما معطوف على الجبال واما مفعول معه فان قلت لم قدمت الجبال على الطير قلت لان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل فى الاعجاز لانها جماد والطير حيوان ناطق اما قوله وكنا فاعلين فالمعنى انا قادرون على ان نفعل هذا وان كان عجبا عندكم وقيل نفعل ذلك بالانبياء عليهم السلام (الانعام الثالث) قوله تعالى وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللبوس اللباس قال البس لكل حالة لبوسها (المسئلة الثانية) ليحصنكم قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس (المسئلة الثالثة) قال قتادة أول من صنع الدرع داود عليه السلام وانما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقا ذكر الحسن ان لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه فقال الصمت حكمة وقليل فاعله قالوا ان الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كانه طين (المسئلة الرابعة) البأس ههنا الحرب وان وقع على السوء كله والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من بأسكم أى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح (المسئلة الخامسة) فيه دلالة على ان أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه

فتوارث الناس عنه ذلك فعمت النعمة بها كل المحار بين من الخلق الى آخر الدهر فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال فهل أنتم شاكرون أى اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة واعلم انه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام وقال قتادة ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته و زاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين (الانعام الاول) قوله تعالى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره أى جعلناها طائعة منقادة له بمعنى انه ان أرادها عاصفة كانت عاصفة وان أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها فى الحالتين فان قيل العاصف الشديدة الهبوب وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة فى قوله رخاء حيث أصاب فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين (الاول) انها كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال غدوها شهر و رواحها شهر وكانت جامعة بين الامرين رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد و يحكم آية الى آية ومعجزة الى معجزة (الثانى) انها كانت فى وقت رخاء وفى وقت عاصفا لاجل هبوبها على حكم ارادته (المسئلة السادسة) قرئ الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال فان قيل قال فى داود وسخرنا مع داود الجبال وقال فى حق سليمان ولسليمان الريح فذكره فى حق داود عليه السلام بكلمة مع وفى حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضا فى قوله ياجبال أوبى معه والطير وقال فسخرنا له الريح تجرى بأمره فما الفائدة فى تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع وسليمان باللام قلنا يحتمل ان الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف فما أضيف اليه بلام التمليك أما الريح فلم يصدر عنه الا ما يجرى مجرى الخدمة فلا جرم أضيف الى سليمان بلام التمليك وهذا اقناعى أما قوله الى الارض التى باركنا فيها للعالمين أى الى المضى الى بيت المقدس قال الكلبى كانت تسير من اصطخر الى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه أما قوله وكنا بكل شئ عالمين أى لعلمنا بالاشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير فى رسلنا وفى خلقنا وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة (الانعام الثانى) قوله تعالى ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد انهم يغوصون له فى البحار فيستخرجون الجواهر و يتجاوزون ذلك الى الاعمال والمهن و بناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون (المسئلة الثانية) قوله ومن الشياطين من يغوصون له يعنى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فيكون فى موضع النصب نسقا على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون فى موضع رفع من وجهين (احدهما) النسق على الريح وأن يكون المعنى ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين ويجوز أن يكون رفعا على

(فى الحرث) أى فى حق الزرع او الكرم المتدلى عناقيده كما قيل أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى (اذ نفشت) أى تفرقت وانتشرت (فيه غنم القوم) ليلا بلا راع فرعته وافسدته ظرف للحكم (وكنا لحكمهم) أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرئ لحكمهما (شاهدين) حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه (ففهمناها سليمان) عطف على يحكمان فانه فى حكم الماضى وقرئ فافهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فافسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فاخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق البنوة والابوة الا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم الى صاحب الارض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث الى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ما كان ثم يترادا فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه

السلام غيرهذا ارفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح فى انه ليس بطريق الوحى والابت

الابتداء و يكون له هو الخبر (المسئلة الثالثة) يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذى يعمل سائر الاعمال و يحتمل انهم فرقة أخرى و يكون الكل داخلين فى لفظة من وان كان الاول هو الاقرب (المسئلة الرابعة) ليس فى الظاهر الا أنه سخرهم لكنه قد روى انه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الاقرب من وجهين (أحدهما) اطلاق لفظ الشياطين (والثانى) قوله وكنا لهم حافظين فان المؤمن اذا سخر فى أمر لايجب أن يحفظ لئلا يفسد وانما يجب ذلك فى الكافر (المسئلة الخامسة) فى تفسير قوله وكنا لهم حافظين وجوه (أحدها) انه تعالى وكل بهم جمعا من الملائكة أو جمعا من مؤمنى الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بان حبب اليهم طاعته وخوفهم من مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم مايشاء فان قيل وعن أى شئ كانوا محفوظين قلنا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا و يتركوه (وثانيها) قال الكلبى كان يحفظهم من أن يهيجوا أحدا فى زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم انهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه فى الليل (المسئلة السادسة) سأل الجبائى نفسه وقال كيف يتهيأ لهم هذه الاعمال وأجسامهم رقيقة لايقدرون على عمل الثقيل وانما يمكنهم الوسوسة وأجاب بانه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد فى عظمهم ليكون ذلك معجزا لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان ردهم الله الى الخلقة الاولى لانه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ولو ادعى متنبى النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلذا ردهم الى خلقتهم الاولى واعلم ان هذا الكلام ساقط من وجوه (أحدها) لم قلت ان الجن من الاجسام ولم لايجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز و يكون الجن منهم فان قلت لو كان الامر كذلك لكان مثلا للبارى تعالى قلت هذا ضعيف لان الاشتراك فى اللوازم الثبوتية لايدل على الاشتراك فى الملزومات فكيف اللوازم السلبية سلمنا انه جسم لكن لم لايجوز حصول القدره على هذه الاعمال الشاقة فى الجسم اللطيف وكلامه بناء على ان البنية شرط وليس فى يده الا الاستقراء الضعيف سلمنا انه لابد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لابد من ردها الى الخلقة الاولى بعد موت سليمان عليه السلام فان قال لئلا يفضى الى التلبيس قلنا التلبيس غير لازم لان المتنبى اذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعو أن يقول لم لايجوز أن يقال ان قوة أجسادهم كانت معجزة لنبى آخر قبلك ومع قيام هذا الاحتمال لايتمكن المتنبى من الاستدلال به واعلم ان أجسام هذا العالم اما كثيفة أو لطيفة أما الكثيف فأكثف الاجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر لانه لما قدر على احياء الحجارة فأى بعد فى احياء العظام الرميمة واذا قدر على أن يجعل فى اصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الاصبع فى نهاية اللطافة فأى بعد فى ان يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا والعطف

القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ماعنده بل وجب عليه أن يظهره بدأ وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبئ عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة الى المجنى عليه أو يفديه و يبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث الى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه انه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء مافوته الغاصب من المنافع فاذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام اليه مع أن الحكم المبنى

الاشياء فى هذا العالم الهواء والنار وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام أما الهواء فقوله تعالى فسخرناله الريح وأما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص فى المياه والنار تنطفئ بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك وذلك يدل على قدرته على اظهار الضد من الضد ❊ (القصة السادسة) قصة أيوب عليه السلام

❊ قوله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبناله فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) اعلم ان فى امر أيوب عليه السلام ماذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفى غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس فى غيره لانه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ويجتهد فى القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتى الضراء والسراء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن انوص وكان من ولد عيص بن اسحق وكانت أمه من ولد لوط وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيا وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظا وافرا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان رحيما بالمساكين وكان يكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله قال وهب وان لجبريل عليه السلام بين يدى الله تعالى مقاما ليس لاحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة وهو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين فاذا شاع ذلك فهم يصلون عليه ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الارض وكان ابليس لم يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد ومن هناك وصل الى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع فكان يصعد بعد ذلك الى ثلاث الى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السموات الامن استرق السمع قال فسمع ابليس تجارب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال يارب انك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض الملعون حتى وقع الى الارض وجمع عفاريت الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى سلطت على مال أيوب قال عفريت أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار فأحرقت كل شئ آتى عليه فقال ابليس فأت الابل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها شئ الا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها فذهب ابليس على شكل بعض أولئك الرعاة الى أيوب فوجده قائما يصلى فلما

على الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وان كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا انه ورد فى الاخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع وأما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لا ضمان ان لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى (وكلا آتينا حكما وعلما) لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا انما يدل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار ما تفضل عليه فى صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة (وسخرنا مع داود الجبال) شروع فى بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما (يسبحن) أى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير

فرغ من الصلاة قال يا أيوب هل تدرى ما صنع ربك الذى اخترته بابلك ورعائها فقال أيوب
انها ماله اعارنيه وهو أولى به اذا شاء نزعه قال ابليس فان ربك أرسل عليها نارا من السماء
فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها فمن قائل يقول ما كان
أيوب يعبد شيئا وما كان الا فى غرور ومن قائل يقول لو كان اله أيوب يقدر على شئ لمنع من
وليه ومن قائل آخر يقول بل هو الذى فعل ما فعل ليشمت عدوه به و يفجع به صديقه فقال
أيوب عليه السلام الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا
أعود فى التراب وعريانا أحشر الى الله تعالى ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك
مع تلك الارواح وصرت شهيدا وآجرنى فيك ولكن الله علم منك شرا فأخرك فرجع ابليس
الى أصحابه خاسئا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت صحت صوتا لا يسمعه
ذو روح الا خرجت روحه فقال ابليس فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات
رعاؤها فخرج ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب فقال له القول الاول ورد عليه أيوب
الرد الاول فرجع ابليس صاغرا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت تحولت
ريحا عاصفة اقلع كل شئ أتيت عليه قال فاذهب الى الحرث والثيران فأتاهم فأهلكهم ثم
رجع ابليس متمثلا حتى جاء أيوب وهو يصلى فقال مثل قوله الاول فرد عليه أيوب الرد
الاول فجعل ابليس يصيب أمواله شيئا فشيئا حتى أتى على جميعها فلما رأى ابليس صبره على
ذلك وقف الموقف الذى كان يقفه عند الله تعالى وقال يا الهى هل انت مسلطى على ولده
فانها الفتنة المضلة فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فأتى أولاد أيوب فى
قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ثم جاء الى أيوب متمثلا بالمعلم وهو
جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين
على رؤسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب
عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فاغتنم ذلك ابليس ثم
لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد ابليس ووقف موقفه وقال
يا الهى انما يهون على أيوب خطر المال والولد لعلمه انك تعيد له المال والولد فهل أنت
مسلطى على جسده وانى لك زعيم لو ابتليته فى جسده ليكفرن بك فقال تعالى انطلق فقد
سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعا فوجد
أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الارض فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها
جسده وخرج به من فرقه الى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها وكان يحك
باظفاره حتى سقطت اظفاره ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم حكها بالفخار والحجارة ولم يزل
يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا
ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح
أموره ثم ان وهبا طول فى الحكاية الى ان قال ان أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى

✻ مستغيثا ✻

وقيل بالتسبيح وهو بعيد (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر
محذوف أى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل (وكنا فاعلين) أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس) أى عمل الدرع وهو فى الاصل اللباس قال قائلهم * البس لكل حالة لبوسها * اما نعيمها واما بوسها وقيل كانت صفائح فحلقها وسردها (لكم) متعلق بعلمنا او بمحذوف هو صفة لبوس (لتحصنكم) أى اللبوس بتأويل الدرع وقرئ بالتذكير على ان الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرئ بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم (من بأسكم) قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم (فهل أنتم شاكرون) أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع
(ولسليمان الريح) أى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على ما بين التسخيرين من
التفاوت فان تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بامره ونهيه والمقهورية

تحت ملكوته وأما تسخير الجبال والطير لداود (١٨١) عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام
والاقتداء به فى عبادة
الله عز وعلا (عاصفة)
حال من الريح والعامل
فيها الفعل المقدر أى
وسخرنا له الريح حال
كونها شديدة الهبوب
من حيث انها كانت تبعد
بكرسيه فى مدة يسيرة من
الزمان كما قال تعالى غدوها
شهر ورواحها شهر
وكانت رخاء فى نفسها
طيبة وقيل كانت رخاء
تارة وعاصفة أخرى
حسب ارادته عليه السلام
وقرئ الريح بالرفع على
الابتداء والخبر هو الظرف
المقدم وعاصفة حينئذ
حال من ضمير المبتدأ فى
الخبر والعامل ما فيه من
معنى الاستقرار وقرئ
الرياح نصبا ورفعا
(تجرى بأمره) بمشيئته
حال ثانية أو بدل من
الاولى أو حال من ضميرها
(الى الارض التى باركنا
فيها) وهى الشام رواحا
بعدما سار به منه بكرة
قال الكلبي كان سليمان
عليه السلام وقومه
يركبون عليها من اصطخر
الى الشام والى حيث شاء
ثم يعود الى منزله (وكنا
بكل شئ عالمين) فتجريه
حسبما تقتضيه الحكمة (ومن الشياطين) أى وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) فى البحار ويستخرجون له من نفائسها
وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر (ويعملون عملا دون ذلك) أى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور

مستغيثا متضرعا اليه فقال يارب لاى شئ خلقتني ياليتني كنت حيضة القتني أمي وياليتني
كنت عرفت الذنب الذى أذنبته والعمل الذى عملت حتى صرفت وجهك الكريم عني
ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهى أنا عبد ذليل ان
أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وسلطت
على ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله الهى تقطعت أصابعي وتساقطت لهواتي وتناثر
شعري وذهب المال وصرت أسأل اللقمة فيطعمني من يمن بها على ويعيرني بفقري
وهلاك أولادي قال الامام أبو القاسم الانصاري رحمه الله وفى جملة هذا الكلام ليتك
لو كرهتني لم تخلقني ثم قال ولو كان ذلك صحيحا لاغتنمه ابليس فان قصده ان يحمله على
الشكوى وأن يخرجه عن حلية الصابرين والله تعالى لم يخبر عنه الا قوله انى مسني الضر
وأنت ارحم الراحمين ثم قال انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب واختلف العلماء
فى السبب الذى قال لاجله انى مسني الضر وأنت أرحم الراحمين وفى مدة بلائه (فالرواية
الاولى) روى ابن شهاب عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
أيوب عليه السلام بقى فى البلاء ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد الا رجلين من
اخوانه كانا يغدوان ويروحان اليه فقال أحدهما للآخر ذات يوم والله لقد أذنب أيوب
ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وماذاك فقال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه
الله تعالى ولم يكشف ما به فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لايوب عليه السلام
فقال أيوب ما أدرى ما تقولان غير ان الله تعالى يعلم انى كنت أمر على الرجلين يتنازعان
فيذكران الله عز وجل فارجع الى بيتي فاكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله الا فى حق وفى
رواية أخرى ان الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحا فقالا لو كان لايوب عند الله خير ما بلغ
الى هذه الحالة قال فما شق على أيوب شئ مما ابتلى به أشد مما سمع منهما فقال اللهم ان كنت
تعلم انى لم ابت شبعانا وأنا أعلم بمكان جائع فصدقني فصدقه وهما يسمعان ثم خر أيوب عليه
السلام ساجدا ثم قال اللهم انى لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي قال فكشف الله ما به
(الرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث أيوب عليه السلام بعدما ألقى على الكناسة
سبع سنين وأشهرا ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت
تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء
عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ ابليس صرخة جزعا من صبر أيوب فاجتمع جنوده من
أقطار الارض وقالوا له ما خبرك قال أعياني هذا العبد الذى سألت الله أن يسلطني عليه
وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد بذلك الا صبرا وحمدا لله تعالى ثم سلطت على
جسده فتركته ملقى فى كناسة وما يقربه الا امرأته وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله
فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له أين مكرك أين عملك الذى أهلكت به من مضى قال
بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا على قالوا أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته

واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة الاولى أو غيرها والعموم كلمة
من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين
روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لامؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى (وكنا لهم حافظين) أى من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ماهو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة جمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ماعملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ماعملوه بالنهار (وأيوب) الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان أى واذكر خبر أيوب (اذ نادى ربه أنى) أى بأنى (مسنى الضر) وقرئ بالكسر على اضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بمافى النفس من مرض وهزال ونحوهما (وأنت أرحم الراحمين) وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ماذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان
عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحق استنبأه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك
أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة

قال من قبيل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فانه لايستطيع أن يعصيها الا انه
لايقربه أحد غيرها قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها فى صورة رجل فقال أين
بعلك ياأمة الله قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده فلما سمعها طمع أن
يكون ذلك كلمة جزع فوسوس اليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال وذكرها جمال أيوب
وشبابه قال الحسن رحمه الله فصرخت فلما صرخت علم انها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال
ليذبح هذه لى أيوب ويبرأ قال فجاءت تصرخ الى أيوب ياأيوب حتى متى يعذبك ربك
الا يرحمك أين المال أين الماشية أين الولد أين الصديق أين اللون الحسن أين جسمك الذى
قد بلى وصار مثل الرماد وتردد فيه الدواب اذبح هذه السخلة واسترح فقال أيوب عليه
السلام أتاك عدو الله ونفخ فيك فأجبتيه ويلك أترين ماتبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه
من المال والولد والصحة من أعطانا ذلك قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال
فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك والله ما أنصفت
ربك ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفانى الله
لاجلدنك مائة جلدة أمرتينى ان أذبح لغير الله وحرام على ان أذوق بعد هذا شيئا من
طعامك وشرابك الذى تأتينى به فطردها فذهبت فلما نظر أيوب فى شأنه وليس عنده طعام
ولاشراب ولاصديق وقد ذهبت امرأته خر ساجدا وقال رب انى مسنى الضر وأنت أرحم
الراحمين فقال ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين
فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الاسقطت منه ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين
أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الاخرج وقام صحيحا وعاد اليه شبابه وجماله حتى
صار أحسن ما كان ثم كسى حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل
والولد والمال الا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان حتى ذكر ان الماء الذى
اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب قال فجعل يضمه بيده فأوحى الله اليه ياأيوب
ألم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف
ثم ان امرأته قالت هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا وتأكله السباع لارجعن اليه
فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولا تلك الحال واذا بالامور قد تغيرت فجعلت تطوف
حيث كانت الكناسة وتبكى وذلك بعين أيوب عليه السلام وهابت صاحب الحلة ان تأتيه
وتسأله عنه فأرسل اليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال ماتريدين ياأمة الله فبكت وقالت
أردت ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة فقال لها أيوب عليه السلام ما كان منك
فبكت وقالت بعلى فقال اتعرفينه اذا رأيتيه قالت وهل يخفى على أحد رآه فتبسم وقال انا
هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال انك أمرتينى ان أذبح سخلة لابليس وانى أطعت الله
وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد على ماترين (الرواية الثالثة) قال الضحاك
ومقاتل بقى فى البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه

﴿الله﴾

الله بقى فى البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب ابليس لعنه الله ذهب ابليس الى امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها أنت صاحبة أيوب قالت نعم قال فهل تعرفينى قالت لا قال انا اله الارض انا صنعت بأيوب ماصنعت وذلك انه عبد اله السماء وتركنى فاغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع مالكما من مال وولد فان ذلك عندى قال وهب وسمعت انه قال لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله تعالى لعوفى مما هو فيه من البلاء وفى رواية أخرى بل قال لها لوشئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى ارد عليك المال والولد واعافى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها فقال لها أيوب اتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم لئن عافانى الله لاجلدنك مائة جلدة وقال عند ذلك مسنى الضر يعنى من طمع ابليس فى سجودى له وسجود زوجتى ودعائه اياها واياى الى الكفر (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئا من الطعام فلم تجد شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال مسنى الضر (الرواية الخامسة) قال اسمعيل السدى لم يقل أيوب مسنى الضر الا لاشياء ثلاث (أحدها) قول الرجلين له لو كان عملك الذى كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذى أصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت الى احداها وقطعتها وباعتها فاعطوها بذلك خبزا ولحما فجاءت الى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا فقالت كل فانه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيئا فباعت الثانية وكذلك فعلت فى اليوم الثالث وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل مالم تخبرينى فاخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم وقيل انما باعت ذوائبها لان ابليس تمثل لقوم فى صورة بشر وقال لئن تركتم أيوب فى قريتكم فانى أخاف أن يعدى اليكم ما به من العلة فأخرجوه الى باب البلد ثم قال لهم ان امرأته تدخل فى بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدى اليكم علته فحينئذ لم يستعملها احد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت له امرأته ماقالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها الى موضعها وقال قد جعلنى الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال مسنى الضر فاوحى الله تعالى اليه لولا انى جعلت تحت كل شعرة منك صبرا لما صبرت (المسئلة الثانية) اعلم ان المعتزلة قد طعنوا فى هذه القصة من وجوه (أحدها) قال الجبائى ذهب بعض الجهال الى أن ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه لقوله تعالى حكاية عنه مسنى الشيطان بنصب وعذاب وهذا جهل أما أولا فلانه لو قدر على احداث الامراض والاسقام وضدهما من العافية لتهيأ له فعل الاجسام ومن هذا حاله يكون الها وأما ثانيا فلان الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بانه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى والواجب تصديق خبر الله تعالى دون الرجوع الى

سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام او رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى ان ابليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا اله الارض فعلت بزوجك مافعلت لانه تركنى وعبد اله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لايقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عزوجل لأضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا شيأ من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لايحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله

مايروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه واعلم ان هذا الاعتراض ضعيف لان المذكورفى الحكاية أن الشيطان نفخ فى منخره فوقعت الحكة فيه فلم قلتم ان القادر على النفخة التى تولدمثل هذه الحكة لابدوأن يكون قادرا على خلق الاجسام وهل هذا الامحض التحكم وأما التمسك بالنص فضعيف لانه انما يقدم على هذا الفعل متى علم انه لوأقدم عليه لمامنعه الله تعالى عنه وهذه الحالة لم تحصل الافى حق أيوب عليه السلام على مادلت الحكاية عليه من انه استأذن الله تعالى فاذن له فيه ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ماروى انه عليه السلام لم يسأل الاعند أمور مخصوصة فبعيد لان الثابت فى العقل انه يحسن من المرء أن يسأل فى ذلك ربه ويفزع اليه كما يحسن منه المداواة واذا جازأن يسأل ربه عند الغم مماراه من اخوانه وأهله جازأيضا أن يسأل ربه من قبل نفسه فان قيل أفلا يجوزانه تعالى تعبده بان لايسأل الكشف الافى آخرأمره قلنا يجوز ذلك بان يعلمه بان انزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لامحالة فعلم عليه السلام انه لاوجه للمسئلة فى هذا الامر الخاص فاذاقرب الوقت جازأن يسأل ذلك من حيث يجوزأن يدوم ويجوزأن ينقطع (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض الى حد التنفيرعنه غيرجائزلان الامراض المنفرة من القبول غيرجائزة على الانبياء عليهم السلام فهذا جملة ماقيل فى هذه الحكاية (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قوله تعالى أنى مسنى الضرأى ناداه بانى مسنى الضر وقرئ انى بالكسر على اضمار القول أولتضمين النداء معناه والضر بالفتح الضرر فى كل شئ وبالضم الضرر فى النفس من مرض وهزال (المسئلة الرابعة) انه عليه السلام ألطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بمايوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فان قيل أليس أن الشكوى تقدح فى كونه صابرا (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا الى الله تعالى فانه لايعد ذلك جزعا اذا كان فى شكواه راضيا بقضاء الله تعالى اذليس من شرط الصبراستحلاء البلاء ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله أما قوله وأنت أرحم الراحمين فالدليل على انه سبحانه أرحم الرحمين أمور (أحدها) ان كل من رحم غيره فاما أن يرحمه طلبا للثناء فى الدنيا أوالثواب فى الآخرة أودفعا للرقة الجنسية عن الطبع وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه أما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غيروجه من هذه الوجوه ومن غير أن يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولانقصان من الثناء ومن صفات الكمال فكان سبحانه ارحم الراحمين (وثانيها) ان كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الابمعونة رحمة الله تعالى لان من أعطى غيره طعاما أوثوبا أودفع عنه بلاء فلولا انه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والادوية والاغذية والماقدر أحد على اعطاء ذلك الشئ ثم بعدوصول تلك العطية اليه فلولا انه سبحانه جعله سببا للراحة لماحصل النفع بذلك فاذا رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة

ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى (فاستجبناله فكشفنامابه من ضر) فلماقام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الاوقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) وقيل كان ذلك بأن ولدله ضعف ما كان ثم ان امرأته قالت فى نفسها هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لارجعن اليه فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولاتلك الحال وقدتغيرت الامورفجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فارسل اليها أيوب ودعاها فقال ماتريدين ياأمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ماكان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه اذارأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أناذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته (رحمة من عندناذكرى للعابدين) أى آتيناه ماذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كماصبر فيثابوا كما أثيب أولرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوب وذكرناياهم بالاحسان وعدم نسياننالهم (واسمعيل ﴿فى﴾ وادريس وذا الكفل) أى واذكرهم وذوالكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لانه كان ذاحظ من الله تعالى أوتكفل منه أوضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجئ بمعنى النصيب والكفالة والضعف

في البحر فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين (وثالثها) ان الله تعالى اولم يخلق في قلب العبد تلك الدواعي والارادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه فكان الراحم هو الحق سبحانه من حيث انه هو الذي أنشأ تلك الداعية فثبت انه أرحم الراحمين فان قيل كيف يكون أرحم الراحمين مع انه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والاسقام والامراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والايذاء وكان قادرا على أن يغني كل واحد عن ايلام الآخر وايذائه (والجواب) ان كونه سبحانه ضارا اينافي كونه نافعا بل هو الضار النافع فاضراره ليس لدفع مشقة وانفاعه ليس لجلب منفعة بل لا يسأل عما يفعل أما قوله تعالى فاستجبنا له فانه يدل على انه دعا ربه لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعا منه على سبيل التعريض كما يقال ان رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وان كان الاليق بالادب وبدلالة الآية هو الاول ثم انه سبحانه بين انه كشف ما به من ضر وذلك يقتضي عادته الى ما كان في بدنه وأحواله وبين الله تعالى انه آتاه أهله ويدخل فيه من ينسب اليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان (أحدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب رضي الله عنهم ان الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده باعيانهم (والثاني) روى الليث رضي الله عنه قال أرسل مجاهد الى عكرمة وسأله عن الآية فقال قيل له ان أهلك في الآخرة فان شئت عجلناهم لك في الدنيا وان شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا فقال يكونون لي في الآخرة وأوتى مثلهم في الدنيا والقول الاول أولى لان قوله وآتيناه أهله يدل بظاهره على انه تعالى أعادهم في الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضا أما قوله وذكرى للعابدين ففيه دلالة على انه تعالى فعل ذلك لكي يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين في الصبر والاحتساب وانما خص العابدين بالذكر لانهم يختصون بالانتفاع بذلك (القصة السابعة) ❁ قوله تعالى (واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين) اعلم انه تعالى ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه اليه أتبعه بذكر هؤلاء فانهم كانوا أيضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة أما اسمعيل عليه السلام فلانه صبر على الانقياد للذبح وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء وصبر في بناء البيت فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيين وأما ادريس عليه السلام فقد تقدمت قصته في سورة مريم عليها السلام قال ابن عمر رضي الله عنهما بعث الى قومه داعيا لهم الى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع ادريس الى السماء الرابعة وأما ذو الكفل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيها بحثان (الاول) قال الزجاج الكفل في اللغة الكساء الذي يجعل على عجز البعير والكفل أيضا النصيب واختلفوا في أنه لم سمي بهذا الاسم على وجوه (أحدها) وهو قول المحققين انه كان له ضعف عمل الانبياء عليهم السلام في زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس

(كل) أي كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) أي على مشاق التكاليف وشدائد النوب و[illegible] وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم ﴿١٨٥﴾ (وأدخلناهم في رحمتنا) أي في النبوة أو في نعمة الآخرة (انهم من الصالحين) أي الكاملين في الصلاح الكامل الذي لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد (وذا النون) أي واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام (اذ ذهب مغاضبا) أي مراغما لقومه لما برم من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادي اصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المبالغة للمبالغة أو لانه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرئ مغضبا (فظن أن لن نقدر عليه) أي لن نضيق عليه أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرئ مشددا أو لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن ان لن نقدر عليه أي نعامله معاملة من يظن ان لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لامرنا كما في

﴿٢٤ س﴾

قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده أي نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرئ بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول (فنادى) الفاء فصيحة أي فكان ما كان

… (في الظلمات) أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة أو في ظلمات بطن الحوت والبحر والليل
وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل (أن لا إله الا أنت)
أي بأنه لا إله الا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشان محذوف أو أي لا إله الا أنت على أنها مفسرة (سبحانك) أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شئ أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب من جهتي (اني كنت من الظالمين) لانفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت الى المهاجرة (فاستجبنا له) أي دعاءه الذي دعاه في ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له (ونجيناه من الغم) بان قذفه الحوت الى الساحل بعد اربع ساعات كان فيها في بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة (وكذلك) أي مثل ذلك الانجاء الكامل (ننجي المؤمنين) من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لا انجاء أدنى منه وفي الامام نجي فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرئ بتشديد الجيم على أن أصله ننجي فحذفت الثانية كما حذفت التاء في تظاهرون وهي وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التي لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتي النونين فان الداعي الى الحذف اجتماع المثلين

﴿ السورة ﴾

رضي الله عنهما في رواية ان نبيا من أنبياء بني اسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله اليه اني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني اسرائيل فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ويقضي بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك اليه فقام ذلك النبي في بني اسرائيل وأخبرهم بذلك فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا فقال في القوم من هو أكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع اليه ملكه ووفى بما ضمن فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل فقال ان لي غريما قد مطلني حقي وقد دعوته اليك فأرسل معي من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد الى صلاته وصلى ليله الى الصباح ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال ان الرجل الذي استأذنتك له هو في موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به فذهب وبقي هو منتظرا حتى فاتته القيلولة ثم أتاه فقال له هرب مني فمضى ذو الكفل الى صلاته فصلى ليلته حتى أصبح فاتاه ابليس وعرفه نفسه وقال له حسدتك على عصمة الله اياك فاردت أن أخرجك حتى لا تفي بما تكفلت به فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه فسمي ذا الكفل وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة (وثالثها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام قال لو اني استخلفت رجلا على الناس في حياتي حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس وقال من يتقبل مني حتى استخلفه ثلاثا يصلي بالليل ويصوم بالنهار ويقضي فلا يغضب وذكر علي كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه من فعل ابليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة أيام وزاد أن ذا الكفل قال للبواب في اليوم الثالث قد غلب علي النعاس فلا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فاني قد شق علي النعاس فجاء ابليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة في البيت وتسورفيها فاذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وعاتب البواب فقال أما من قبلي فلم تؤت فقام الى الباب فاذا هو مغلق وابليس على صورة شيخ معه في البيت فقال له أتنام والخصوم على الباب فعرفه فقال أنت ابليس قال نعم أعييتني في كل شئ ففعلت هذه الافعال لاغضبك فعصمك الله مني فسمي ذا الكفل لانه قد وفى بما تكفل به (المسئلة الثانية) قال أبو موسى الاشعري رضي الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا وقال الحسن والاكثرون انه من الانبياء عليهم السلام وهذا أولى الوجوه (أحدها) ان ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبا وأن يكون اسما والاقرب أن يكون مفيدا لان الاسم اذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب أذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر ان الله تعالى انما سماه بذلك على سبيل التعظيم فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو انما سمي بذلك لان عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الانبياء (وثانيها) انه تعالى قرن ذكره بذكر اسمعيل وادريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) ان

مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا
ورد بانه لايسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضى لايسكن آخره (وزكريا) أى واذكر خبره (اذ نادى ربه)
وقال (رب لاتذرنى فردا
أى وحيدا بلا ولد يرثنى
(وأنت خير الوارثين)
فحسبى أنت ان لم ترزقنى
وارثا (فاستجبناله) أى
دعاءه (ووهبناله يحيى
وقد مر بيان كيفية الا
ستجابة والهبة فى سورة
مريم (وأصلحناله زوجه)
أى أصلحناها للولادة بعد
عقرها أو أصلحناها
للمعاشرة بتحسين خلقها
وكانت حردة وقوله تعالى
(انهم كانوا يسارعون
فى الخيرات) تعليل لما
فصل من فنون احسانه
تعالى المتعلقة بالانبياء
المذكورين أى كانوا
يبادرون فى وجوه الخيرات
مع ثباتهم واستقرارهم
فى أصل الخير وهو السر
فى ايثار كلمة فى على كلمة
الى المشعرة بخلاف
المقصود من كونهم
خارجين عن أصل
الخيرات متوجهين اليها
كما فى قوله تعالى وسارعوا
الى مغفرة من ربكم وجنة
(ويدعوننا رغبا ورهبا)
ذوى رغب ورهب
أوراغبين فى الثواب
راجين للاجابة أوفى
الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أوللرغب والرهب (وكانوا لنا خاشعين) أى مخبتين متضرعين أودائمى الوجل
والمعنى انهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة (والتى أحصنت فرجها) أى اذكر
خبر التى أحصنته على الاطلاق من الحلال

السورة ملقبة بسورة الانبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبى (المسئلة الثالثة) قيل
ان ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل الياس ثم قالوا خمسة من الانبياء سماهم الله تعالى
باسمين اسرائيل و يعقوب الياس وذو الكفل عيسى والمسيح يونس وذو النون محمد وأحمد
وأما قوله تعالى كل من الصابرين أى على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الاذى فى نصرة
دينه وقوله وأدخلناهم فى رحمتنا قال مقاتل الرحمة النبوة وقال آخرون بل يتناول جميع
أعمال البر والخير (القصة الثامنة) قصة يونس عليه السلام * قوله تعالى (وذا النون
اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا انت سبحانك انى
كنت من الظالمين فاستجبناله ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) اعلم ان ههنا مسائل
(المسئلة الاولى) انه لاخلاف فى ان ذا النون هو يونس عليه السلام لان النون هو
السمكة وقد ذكرنا ان الاسم اذا دار بين أن يكون لقبا محضا و بين أن يكون مفيدا فحمله
على المفيد أولى خصوصا اذا علمت الفائدة التى بصلح لها ذلك الوصف (المسئلة الثانية)
اختلفوا فى وقوعه عليه السلام فى بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى
أو بعده (أما القول الاول) فقال ابن عباس رضى الله عنه كان يونس عليه السلام
وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا و بقى سبطان ونصف
فأوحى الله تعالى الى شعيب النبى عليه السلام أن اذهب الى حزقيل الملك وقل له حتى
يوجه نبيا قويا أمينا فانى ألقى فى قلوب أولئك أن يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك
فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الانبياء فقال يونس بن متى فانه قوى أمين فدعا الملك
يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال
لا قال فههنا أنبياء غيرى فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد
قوما هيؤا سفينة فركب معهم فلما تلججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا فقال
الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق لان السفينة لاتفعل هذا من غير ريح الا وفيها
رجل عاص ومن رسمنا انا اذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة
ألقيناه فى البحر ولأن يغرق احد خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت
القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام فقال أنا الرجل العاصى والعبد الآبق وألقى
نفسه فى البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى الله تعالى الى الحوت لاتؤذ منه شعرة فانى
جعلت بطنك سجناله ولم أجعله طعاما لك ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء
كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد فانبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل
بها و يأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له
أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب اليهم ولم تطلب راحتهم
ثم أوحى الله اليه وأمره أن يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل
أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام وقال لملكهم ان الله تعالى ارسلنى

والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آخرذى اثير (فنفخنا فيها) أى أحيينا عيسى

اليك لترسل معى بنى اسرائيل فقالوا مانعرف ماتقول ولو علمنا انك صادق لفعلنا ولقد أتيناكم فى دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم فطاف ثلاثة أيام يدعوهم الى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى اليه قل لهم ان لم تؤمنوا جاءكم العذاب فابلغهم فابوا فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا فى دينهم فقالوا انظروا واطلبوه فى المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شئ وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم انه خرج العشى فلما أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل مافى بطونها وصاح الصبيات وثغت الاغنام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب فبعثوا الى يونس عليه السلام فآمنوا به وبعثوا معه بنى اسرائيل فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ودليل هذا القول قوله تعالى فى سورة الصافات فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وارسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفى هذا القول رواية أخرى وهى ان جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق الى أهل نينوى وأنذرهم ان العذاب قد حضرهم فقال يونس عليه السلام التمس دابة فقال الامر أعجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وباقى الحكاية كما مرت الى أن التقمه الحوت فانطلق الى أن وصل الى نينوى فألقاه هناك (أما القول الثانى) وهو ان قصة الحوت كانت بعد عائه أهل نينوى وتبليغه رسالة الله اليهم قالوا انهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب فلما كشف العذاب عنهم بعد ما توعدهم به خرج منهم مغاضبا ثم ذكروا فى سبب الخروج والغضب أمورا (أحدها) انه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) أنه كان من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) انه دخلته الانفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب باولئك وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضبا بعد أن ارسله الله تعالى اليهم وبعد رفع العذاب عنهم (المسئلة الثالثة) احتج القائلون بجواز الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضبا لربه ويقال هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبى وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم ان مغاضبته لله تعالى من اعظم الذنوب ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضا كان محظورا لان الله تعالى قال فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت وذلك يقتضى أن ذلك الفعل من يونس كان محظورا (وثانيها) قوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه وذلك يقتضى كونه شاكا فى قدرة الله تعالى (وثالثها) قوله انى كنت من الظالمين والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى ألا لعنة الله على

عليه السلام (وجعلناها وابنها) أى قصتهما أو حالهما (آية للعالمين) فان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها (ان هذه) أى ملة التوحيد والاسلام أشير اليها بهذه تنبيها على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد (أمتكم) أى ملتكم التى يجب ان تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشئ منها والخطاب للناس قاطبة (أمة واحدة) نصب على الحالية من أمتكم أى غير مختلفة فيما بين الانبياء عليهم السلام اذ لا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الامم والاعصار وقرئ أمتكم بالنصب على البدلية من اسم ان وأمة

﴿ الظالمين ﴾

واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران (وأنا ربكم) لا اله لكم غيري (فاعبدون) خاصة لا غير
وقوله تعالى (وتقطعوا أمرهم بينهم) التفات الى الغيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق

الظالمين (ورابعها) أنه لولم يصدر منه الذنب فلم عاقبه الله بأن ألقاه في بطن الحوت
(وخامسها) قوله تعالى في آية أخرى فالتقمه الحوت وهو مليم والمليم هو ذو الملامة ومن
كان كذلك فهو مذنب (سادسها) قوله ولا تكن كصاحب الحوت فان لم يكن صاحب
الحوت مذنبا لم يجز النهي عن التشبه به وان كان مذنبا فقد حصل الغرض (وسابعها) انه قال
ولا تكن كصاحب الحوت وقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل فلزم أن لا يكون يونس من
أولي العزم وكان موسى من أولي العزم ثم قال في حقه لو كان ابن عمران حيا ما وسعه الا
اتباعي وقال في يونس لا تفضلوني على يونس بن متى وهذا خارج عن تفسير الآية (والجواب)
عن الاول انه ليس في الآية من غاضبه لكنا نقطع على انه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه
لان ذلك صفة من يجهل كون الله مالك الامر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا
عن أن يكون نبيا وأما ما روي أنه خرج مغاضبا لامر يرجع الى الاستعداد وتناول النفل
فمما يرتفع حال الانبياء عليهم السلام عنه لان الله تعالى اذا أمرهم بشيء فلا يجوز أن يخالفوه
لقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من
أمرهم وقوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الى قوله ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجا مما قضيت فاذا كان في الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم واذا ثبت انه
لا يجوز صرف هذه المغاضبة الى الله تعالى وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضبا لغير الله
والغالب انه انما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعا ومعنى
مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها وقرأ أبو شرف
مغضبا أما قوله مغاضبة القوم أيضا كانت محظورة لقوله تعالى ولا تكن كصاحب الحوت
قلنا لا نسلم أنها كانت محظورة فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم وما أمره بان
يبقى معهم أبدا فظاهر الامر لا يقتضي التكرار فلم يكن خروجه من بينهم معصية وأما
الغضب فلا نسلم انه معصية وذلك لانه لما لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن ان ذلك جائز من
حيث انه لم يفعله الا غضبا لله تعالى وأنفة لدينه و بغضا للكفر وأهله بل كان الاولى له
أن يصابر و ينتظر الاذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ولهذا قال تعالى ولا تكن كصاحب
الحوت كان الله تعالى أراد لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها (والجواب)
عن الشبهة الثانية وهي التمسك بقوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه أن نقول من ظن عجز الله
تعالى فهو كافر ولا خلاف انه لا يجوز نسبة ذلك الى آحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء عليهم
السلام فاذن لا بد فيه من التأويل وفيه وجوه (أحدها) فظن أن لن نقدر عليه أي لن
نضيق عليه وهو كقوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر أي يضيق ومن
قدر عليه رزقه أي ضيق وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيق ومعناه أن لن نضيق
عليه واعلم ان على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا وذلك لان يونس عليه السلام ظن انه

في الدين وجعل أمره
قطعا موزعة و ينعى
قبائح أفعالهم الى
الآخرين كأنه قيل
ألا ترون الى عظيم ما
ارتكب هؤلاء في دين الله
الذي أجمعت عليه كافة
الانبياء عليهم السلام
(كل) أي كل واحدة
من الفرق المتقطعة أو
كل واحد من آحاد كل
واحدة من تلك الفرق
(الينا راجعون) بالبعث
لا الى غيرنا فنجازيهم
حينئذ بحسب أعمالهم
وايراد اسم الفاعل
للدلالة على الثبات
والتحقق وقوله تعالى
(فمن يعمل من الصالحات)
الخ تفصيل الجزاء أي
فمن يعمل بعض الصالحات
أو بعضا من الصالحات
(وهو مؤمن) بالله ورسله
(فلا كفران لسعيه) أي
لا حرمان لثواب عمله
ذلك عبر عن ذلك بالكفران
الذي هو ستر النعمة
و جحودها لبيان كمال
نزاهته تعالى عنه بتصويره
بصورة ما يستحيل
صدوره عنه تعالى من
القبائح وابراز الاثابة
في معرض الامور الواجبة عليه تعالى ونفى نفي الجنس للمبالغة في التنزيه وعبر عن العمل بالسعي لاظهار
الاعتداد به (وانا له) أي

اسعيه (كاتبون) أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لانغادر من ذلك شيئا (وحرام على قرية) اى ممتنع على أهلها
غير متصور منهم وقرئ حرم وهى لغة كالحل والحلال (أهلكناها) قدرناهلاكها أوحكمنابه
لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى (أنهم لايرجعون) فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أوفاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون وما فى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لافى المنفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لان عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى كل الينا راجعون لانهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم الى التوبة على أن لاصلة وقرئ انهم لايرجعون بالكسر على انه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدا محذوف أى حرام عليها ذلك وهو ماذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لايرجعون عما هم عليه من الكفر فكيف لايمتنع ذلك و يجوز حمل المفتوحة

مخيران شاء أقام وان شاء خرج وأنه تعالى لايضيق عليه فى اختياره وكان فى المعلوم ان الصلاح فى تأخر خروجه وهذا من الله تعالى بيان لمايجرى مجرى العذر له من حيث خرج لاعلى تعمد المعصية لكن لظنه ان الامر فى خروجه موسع يجوز أن يقدم و يؤخر وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من غير انتظار لامر الله تعالى (وثالثها) ان تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن أن لن نقضى عليه بشدة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبى ورواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء والزجاج قال الزجاج نقدر بمعنى نقدر يقال قدر الله الشئ قدرا وقدره تقديرا فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى فظن أن لن نقدر عليه بضم النون والتشديد من التقدير وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب يقدر عليه بالتخفيف على المجهول وروى انه دخل ابن عباس رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال معاوية لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك فقال وماهى قال يظن نبى الله أن لن يقدر الله عليه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا من القدر لامن القدرة (ورابعها) فظن أن لن نقدر أى فظن أن لن نفعل لان بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازا عن الآخر (وخامسها) انه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) ان على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ولا يبعد فى حق غير الانبياء والرسل أن يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم انه يرده بالحجة والبرهان (والجواب) عن الثالث وهو التمسك بقوله انى كنت من الظالمين فهو أن نقول انا لوحملناه على ماقبل النبوة فلا كلام ولوحملناه على مابعدها فهى واجبة التأويل لانا لوأجريناها على ظاهرها لوجب القول بكون النبى مستحقا للعن وهذا لايقوله مسلم واذاوجب التأويل فنقول لاشك انه كان تاركا للافضل مع القدرة على تحصيل الافضل فكان ذلك ظلما (والجواب) عن الرابع انالانسلم أن ذلك كان عقوبة اذالانبياء لايجوز أن يعاقبوا بل المراد به المحنة لكن كثيرمن المفسرين يذكرون فى كل مضرة تفعل لاجل ذنب انها عقوبة (والجواب) عن الخامس ان الملامة كانت بسبب ترك الافضل (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف فى الظلمات أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجونهم من النور الى الظلمات ومنهم من اعتبر أنواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل والبحر و بطن الحوت وان كان فى النهار أضيف اليه ظلمة أمعاء الحوت أوأن حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه أولان الحوت اذاعظم غوصه فى قعر البحر كان مافوقه من البحر ظلمة فى ظلمة أماقول من قال ان الحوت الذى ابتلعه غاص فى الارض السابعة فان

✻ ثبت ✻

ثبت ذلك بخبر فلا كلام وان قيل بذلك لكى يقع نداؤه فى الظلمات فما قدمناه يغنى عن ذلك أما قوله ان لا اله الا أنت فالمعنى بانه لا اله الا أنت أو بمعنى أى * عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه الله تعالى الا باقراره على نفسه بالظلم أما قوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز وهذا يدل على انه ماكان مراده من قوله فظن أن لن نقدر عليه انه ظن العجز وانما قال سبحانك لان تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جورا أو شهوة للانتقام أو عجزا عن تخليصى عن هذا الحبس بل فعلته بحق الالهية وبمقتضى الحكمة أما قوله انى كنت من الظالمين فالمعنى ظلمت نفسى بفرارى من قومى بغير اذنك كأنه قال كنت من الظالمين وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عنى المحنة يدل عليه قوله فاستجبنا له وفيه وجه آخر وهو انه عليه السلام وصفه بقوله لا اله الا أنت بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله انى كنت من الظالمين بضعف البشرية والقصور فى أداء حق الربوبية وهذا القدر يكفى فى السؤال على ماقال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما أراد الله حبس يونس عليه السلام أوحى الى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه وهوى به الى أسفل البحر فسمع يونس عليه السلام حسا فقال فى نفسه ماهذا فأوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا مثله وأما قوله ونجيناه من الغم أى من غمه بسبب كونه فى بطن الحوت وبسبب خطيئته وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس اذ دعانا كذلك ننجى المؤمنين من كربهم اذا استغاثوا بنا روى سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين مادعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب الا استجاب الله دعاءه قال صاحب الكشاف قرئ ننجى ونجى ونجى والنون لاتدغم فى الجيم ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين فارسل الياء وأسنده الى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد التعسف * (القصة التاسعة) قصة زكريا عليه السلام

* قوله تعالى (وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) اعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام الى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائما مقامه بعد موته فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بانه قادر على ذلك وان انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره الى اليأس من ذلك بحكم العادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان سنه مائة وسن زوجته تسعا وتسعين أما قوله وأنت خير الوارثين ففيه وجهان (أحدهما) انه عليه السلام انما

أيضا على هذا المعنى بحذف اللام عنها أى لانهم لا يرجعون وحتى فى قوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) الخ هى التى يحكى بعدها الكلام وهى على الاول غاية لما يدل عليه ماقبلها كأنه قيل يستمرون على ماهم عليه من الهلاك حتى اذا قامت القيامة يرجعون الينا ويقولون ياويلنا الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لاتنفعهم التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لايرجعون عنه حتى اذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لاينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ فتحت بالتشديد (وهم) أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس (من كل حدب) أى نشز من الارض وقرئ جدث وهو القبر (ينسلون) أى يسرعون واصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرئ بضم السين (واقترب الوعد الحق) عطف على فتحت والمراد به مابعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة

ذكره فى جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بان مآل الامور الى الله تعالى (والثانى) كأنه عليه السلام قال ان لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث وأما قوله تعالى فاستجبنا له أى فعلنا ما اراده لاجل سؤاله وفى ذلك اعظام له فلذلك تقول العلماء بان الاستجابة ثواب لما فيه من الاعظام وأما قوله تعالى ووهبنا له يحيى فهو كالتفسير للاستجابة وفى تفسير قوله وأصلحنا له زوجه ثلاثة أقوال (أحدها) أصلحها للولادة بان أزال عنها المانع بالعادة وهذا أليق بالقصة (والثانى) انه أصلحها فى أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) أنه سبحانه جعلها مصلحة فى الدين فان صلاحها فى الدين من أكبر اعوانه فى كونه داعيا الى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والاهل جميعا وهذا كأنه أقرب الى الظاهر لانه اذا قيل أصلح الله فلانا فالاظهر فيه ما يتصل بالدين واعلم ان قوله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه يدل على ان الواو لا تفيد الترتيب لان اصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع انه تعالى أخره فى اللفظ و بين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال انهم كانوا يسارعون فى الخيرات وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون فى الخيرات والمسارعة فى طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لانه يدل على حرص عظيم على الطاعة أما قوله تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله يحذر الاخرة و يرجو رحمة ربه والمعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين (أحدهما) الفزع الى الله تعالى لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه (والثانى) الخشوع وهو المخافة الثابتة فى القلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لا ينبسط فى الامور خوفا من الاثم * (القصة العاشرة) قصة مريم عليها السلام * قوله تعالى (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) اعلم ان التقدير واذكر التى أحصنت فرجها ثم فيه قولان (أحدهما) انها أحصنت فرجها احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا (والثانى) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ وأما قوله فنفخنا فيها من روحنا فلقائل أن يقول نفخ الروح فى الجسد عبارة عن احيائه قال تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى أى أحييته واذا ثبت ذلك كان قوله فنفخنا فيها من روحنا ظاهر الاشكال لانه يدل على احياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (أحدها) معناه فنفخنا الروح فى عيسى فيها أى أحييناه فى جوفها كما يقول الزمار نفخت فى بيت فلان أى فى المزمار فى بيته (وثانيها) فعلنا النفخ فى مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لانه نفخ فى جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها ثم بين تعالى باخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال وجعلناها وابنها آية للعالمين

الاولى (فاذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا) جواب الشرط واذا للمفاجاة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا دخلتها الفاء فظاهرت على وصل الجزاء ﴿ ١٩٢ ﴾ بالشرط والضمير للقصة او مبهم يفسره مابعده (ياويلنا) على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط (قد كنا فى غفلة) تامة (من هذا) الذى دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق (بل كنا ظالمين) اضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة فى الانذار وازاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لانها التى يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية قال له ابن الزبعرى خصمتك ورب

أما مريم فآياتها كثيرة (أحدها) ظهور الحبل فيها لا من ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة (وثانيها) ان رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى أنى لك هذا قالت هو من عند الله (وثالثها ورابعها) قال الحسن انها لم تلتقم ثديا يوما قط وتكلمت هي أيضا في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام وأما آياته عليه السلام فقد تقدم بيانها فبين سبحانه انه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار آيتين قلنا لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها اياه من غير فحل وههنا آخر القصص

﴿قوله تعالى (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون) قال صاحب الكشاف الامة الملة وهو اشارة الى ملة الاسلام أي ان ملة الاسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها يشار اليها ملة واحدة غير مختلفة وأنا الهكم اله واحد فاعبدون ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ورفع أمة خبرا وعنه رفعهما جميعا خبرين أو نوى للثاني المبتدأ أما قوله تعالى وتقطعوا أمرهم بينهم والاصل وتقطعتم الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى أما قوله تعالى كل الينا راجعون فقد توعدهم بان هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال تفرقت بنو اسرائيل على احدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة وان أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة فتهلك احدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة قالوا يا رسول الله من تلك الفرقة الناجية قال الجماعة الجماعة الجماعة فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى وأن هذه أمتكم الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات وأن في قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الناجية انها الجماعة اشارة الى أن هذه أشار بها الى أمة الايمان والا كان قوله في تعريف الفرقة الناجية انها الجماعة لغوا اذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق الا وهي جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم في صحة هذا الخبر فقال ان أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الاديان فلم يبلغ هذا القدر وان أراد الفروع فانها تتجاوز هذا القدر الى أضعاف ذلك وقيل أيضا قد روى ضد ذلك وهو انها كلها ناجية الا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتي في حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الاحوال لا يجوز أن يزيد وينقص

﴿قوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي

الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ولا يعارضه ﴿١٩٣﴾ ما روى أنه عليه السلام رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك ولا ما روى أن ابن الزبعرى قال هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى اذ ليس شيء منهما نصا في عموم كلمة ما كما أن الاول نص في خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضي شموله بطريق العبارة بل يكفي في ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة في المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين في حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضا تأكيدا للرد والزام وتكريرا للتبكيت والافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين عن حكم منبئ عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة في عبادته في الجملة بل بتحقيق الحق وبيان ﴿٢٥﴾ س أنهم ليسوا من المعبودية في شيء حتى يتوهم دخولهم في الحكم المذكور دلالة

قوله لاشتراكهم الخ كذا فى النسخ ولعله سقطت منه كلمة مع والاصل لاشتراكهم مع الاصنام اه بموجب شركتهم
للاصنام فى المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين ﴿ ١٩٤ ﴾ التى أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى
سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون فى الحكم المذكور لاشتراكهم الاصنام فى المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه فى التوفيق بين الاخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضا وجعل ماسيأتى من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فمما لايساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم (والحصب) مايرمى به ويهيج به النار من حصبه اذا رماه بالحصباء وقرئ بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة (أنتم لها واردون) استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا (لو كان هؤلاء) أى أصنامهم (آلهة) كما يزعمون (ماوردوها) وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها ﴿ اشئ ﴾ آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بما يعبدون هى الاصنام لان المراد اثبات نقيض مايدعونه وهم انما يدعون الهية الاصنام لا الهية الشياطين حتى

شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) اعلم انه سبحانه لما ذكر أمر الامة من قبل وذكر تفرقهم وانهم اجمع راجعون الى حيث لا أمر الا له أتبع ذلك بقوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين ان من جمع بين أن يكون مؤمنا وبين أن يعمل الصالحات فيدخل فى الاول العلم والتصديق بالله ورسوله وفى الثانى فعل الواجبات وترك المحظورات فلا كفران لسعيه أى لا بطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا فالكفران مثل فى حرمان الثواب والشكر مثل فى اعطائه وقوله فلا كفران المراد نفى الجنس ليكون فى نهاية المبالغة لان نفى الماهية يستلزم نفى جميع افرادها وأما قوله تعالى وانا له كاتبون فالمراد وانا لسعيه كاتبون فقيل المراد حافظون لنجازى عليه وقيل كاتبون اما فى أم الكتاب أو فى الصحف التى تعرض يوم القيامة والمراد بذلك ترغيب العباد فى التمسك بطاعة الله تعالى أما قوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون فاعلم ان قوله وحرام خبر فلا بد له من مبتدا وهو اما قوله أنهم لا يرجعون أو شئ آخر أما الاول فالتقدير ان عدم رجوعهم حرام أى ممتنع واذا كان عدم رجوعهم ممتنعا كان رجوعهم واجبا فهذا الرجوع اما أن يكون المراد منه الرجوع الى الآخرة أو الى الدنيا (أما الاول) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الحياة فى الدار الآخرة واجب ويكون الغرض منه ابطال قول من ينكر البعث وتحقيق ماتقدم انه لا كفران لسعى أحد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبى مسلم بن بحر (وأما الثانى) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الدنيا واجب لكن المعلوم انهم لم يرجعوا الى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الاول) ان الحرام قد يجئ بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر أما الآية فقوله تعالى قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وترك الشرك واجب وليس بمحرم وأما الشعر فقول الخنساء

وان حراما لا أرى الدهر باكيا ✻ على شجوه الا بكيت على عمرو

يعنى وان واجبا وأما الاستعمال فلان تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها اذا ثبت هذا فالمعنى انه واجب على أهل كل قرية أهلكناها انهم لا يرجعون ثم ذكروا فى تفسير الرجوع أمرين (أحدهما) انهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيهما) لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل (الوجه الثانى) أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل لا فى قوله لا يرجعون صلة زائدة كما انه صلة فى قوله مامنعك ان لا تسجد والمعنى وحرام على قرية أهلكناها رجوعهم الى الدنيا وهو كقوله فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الايمان وهذا قول طائفة من المفسرين هذا كله اذا جعلنا قوله وحرام خبرا لقوله أنهم لا يرجعون أما اذا جعلناه خبرا

لشيء آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك وهو المذكور في الآية المتقدمة من
العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور ثم علل فقال انهم لا يرجعون عن الكفر
فكيف لا يمتنع ذلك هذا على قراءة انهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضا على هذا
أي انهم لا يرجعون أما قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب
ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ففيه مسائل (المسئلة
الاولى) ان حتى متعلقة بحرام فاما على تأويل ابي مسلم فالمعنى ان رجوعهم الى الآخرة
واجب حتى ان وجوبه يبلغ الى حيث انه اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد
الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا والمعنى انهم يكونون أول الناس حضورا
في محفل القيامة فحتى متعلقة بحرام وهي غاية له ولكنه غاية من جنس الشيء كقولك دخل
الحاج حتى المشاة وحتى ههنا هي التي يحكى بعدها الكلام والكلام المحكي هو هذه
الجملة من الشرط والجزاء أعني قوله اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق
فهناك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا فان قيل الشرط هو مجموع فتح يأجوج
ومأجوج واقتراب الوعد الحق والجزاء هو شخوص أبصار الذين كفروا وذلك غير جائز
لان الشرط انما يحصل في آخر أيام الدنيا والجزاء انما يحصل في يوم القيامة والشرط
والجزاء لابد وأن يكونا متقاربين قلنا التفاوت القليل يجري مجرى المعدوم وأما على
التأويلات الباقية فالمعنى ان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة (المسئلة
الثانية) قوله حتى اذا فتحت المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وادخلت
علامة التأنيث في فتحت لما حذف المضاف لان يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين
وقيل حتى اذا فتحت جهة يأجوج (المسئلة الثالثة) هما قبيلتان من جنس الانس يقال
الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (المسئلة
الرابعة) قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء وقيل بل اذا جعل الله تعالى الارض دكا زالت
الصلابة عن اجزاء الارض فحينئذ ينفتح السد أما قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون
فحشو في أثناء الكلام والمعنى اذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار
الذين كفروا والحدب النشز من الارض ومنه حدبة الظهر وقرأ ابن
عباس رضي الله عنهما من كل جدث ينسلون اعتبارا بقوله فاذا هم من الاجداث الى
ربهم ينسلون وقرئ بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان قال أكثر المفسرين
انه كناية عن يأجوج ومأجوج وقال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أي يخرجون
من قبورهم من كل موضع فيحشرون الى موقف الحساب والاول هو الوجه
والا لتفكك النظم وأن يأجوج ومأجوج اذا كثروا على ماروي في الخبر فلا بد من ان
ينتشروا فيظهر اقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع أما قوله تعالى واقترب الوعد الحق
فلا شبهة ان الوعد المذكور هو يوم القيامة أما قوله فاذا هي فاعلم ان اذا ههنا للمفاجاة

يحج يوردها النار على عدم الهيتها وأما ما وقع في الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار
الكلام اليه عند بيان
ما سيق له النظم الكريم
بطريق العبارة حيث
سأل ابن الزبعرى عن
حال سائر المعبودين وكان
الاقتصار على الجواب
الاول مما يوهم الرخصة
في عبادتهم في الجملة لانهم
المعبودون عندهم أجيب
ببيان أن المعبودين هم
الشياطين وأنهم داخلون
في حكم النص لكن
بطريق الدلالة لا بطريق
العبارة لئلا يلزم التدافع
بين الخبرين (وكل)
أي من العبدة والمعبودين
(فيها خالدون) لا خلاص
لهم عنها (لهم فيها
زفير) أي أنين وتنفس
شديد وهو مع كونه من
أفعال العبدة أضيف
الى الكل للتغليب ويجوز
أن يكون الضمير للعبدة
لعدم الالباس وكذا
في قوله تعالى (وهم فيها
لا يسمعون) أي لا يسمع
بعضهم زفير بعض
لشدة الهول وفظاعة
العذاب وقيل لا يسمعون
ما يسرهم من الكلام
(ان الذين سبقت لهم
منا الحسنى) شروع
في بيان حال المؤمنين
اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب أي سبقت لهم
منا في التقدير الخصلة الحسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة وقيل التوفيق

الاولين مع خفاء ما اليسا
من مقدورات المكلفين
فالجملة مع ما بعدها تفصيل
لما أجمل فى قوله تعالى فمن
يعمل من الصالحات وهو
مؤمن فلا كفران لسعيه
وانا له كاتبون كما أن ما قبلها
من قوله تعالى انكم وما
تعبدون الخ تفصيل
لما أجمل فى قوله تعالى
وحرام الخ (أولئك)
اشارة الى الموصول
باعتبار اتصافه بما فى
حيز الصلة ومافيه من
معنى البعد للايذان بعلو
درجتهم و بعد منزلتهم
فى الشرف والفضل أى
أولئك المنعوتون بما ذكر
من النعت الجميل (عنها)
أى عن جهنم (مبعدون)
لانهم فى الجنة وشتان
بينها و بين النار وما روى
أن عليا رضى الله تعالى
عنه خطب يوما فقرأ
هذه الآية ثم قال أنا منهم
وأبو بكر وعمر وعثمان
وطلحة والزبير وسعد
وسعيد وعبد الرحمن بن
عوف وأبو عبيدة بن
الجراح رضوان الله تعالى
عنهم أجمعين ثم أقيمت
الصلاة فقام يجر رداءه
و يقول (لا يسمعون حسيسها) ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس ﴿ لفظ ﴾
صوت يحس به أى لا يسمعون صوتها سمعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون المصوت

فسمى الموعد وعدا تجوزا وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هى شاخصة أو فهى شاخصة كان سديدا أما لفظة هى فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون كناية عن الابصار والمعنى فاذا ابصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الابصار ثم أظهر (والثانى) أن تكون عمادا و يصلح فى موضعها هو فيكون كقوله انه أنا الله ومثله فانها لا تعمى الابصار وجاز التأنيث لان الابصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد وهو قول الفراء وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعنى ان القصة ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ومعنى الكلام ان القيامة اذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الاهوال فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ومن توقع ما يخافونه و يقولون يا و يلنا قد كنا فى غفلة من هذا يعنى فى الدنيا حيث كذبناه وقلنا انه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة و بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الاوثان واعلم انه لا بد قبل قوله يا و يلنا من حذف والتقدير يقولون يا و يلنا ﴿ قوله تعالى

(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) اعلم أن قوله انكم خطاب لمشركى مكة وعبدة الاوثان أما قوله تعالى وما تعبدون من دون الله روى انه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبد الله الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فاخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح و بنو مليح عبدوا الملائكة ثم روى فى ذلك روايتان (احداهما) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الاجدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) انه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فانزل الله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية يعنى عزيرا والمسيح والملائكة واعلم ان سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (أحدها) أن قوله انكم خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الاصنام فقط (وثانيها) انه لم يقل ومن تعبدون بل قال وما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء أما قوله تعالى والسماء وما بناها وقوله لا أعبد ما تعبدون فهو محمول على الشئ ونظيره ههنا أن يقال انكم والشئ الذى تعبدون من دون الله لكن

لفظ الشئ لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثالثها) ان من عبد الملائكة
لا يدعى انهم آلهة وقال سبحانه لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها (ورابعها) هب انه ثبت
العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير
لبراءتهم من الذنوب والمعاصي ووعد الله اياهم بكل مكرمة وهذا هو المراد من قوله سبحانه
ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (وخامسها) الجواب الذي ذكره
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو انهم كانوا يعبدون الشياطين فان قيل الشياطين عقلاء
ولفظ ما لا يتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قلنا كأنه عليه السلام
قال لو ثبت لكم انه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضا غير لازم من هذا الوجه وأما ما قيل انه
عليه السلام سكت عند ايراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لانه لا أقل من انه عليه
السلام كان يتنبه لهذه الاجوبة التي ذكرها المفسرون لانه عليه السلام كان أعلم منهم
باللغة وبتفسير القرآن فكيف يجوز أن تظهر هذه الاجوبة لغيره ولا يظهر شئ منها له عليه
السلام فان قيل جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظار البيان قلنا لما كان البيان حاضرا
معه لم يجز عليه السكوت لكي لا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم ومن الناس من أجاب
عن سؤال ابن الزبعرى فقال ان الله تعالى يصور لهم في النار ملكا على صورة من عبدوه
وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم ان هذا ضعيف من وجهين (الاول) أن القوم
لم يعبدوا تلك الصورة وانما عبدوا شيئا آخر لم يحصل معهم في النار (الثاني) وهو أن الملك لا
يصير حصب جهنم في الحقيقة وان صح أن يدخلها فان خزنة النار يدخلونها مع انهم ليسوا
حصب جهنم (المسئلة الثانية) الحكمة في أنهم قرنوا بآلهتهم أمور (أحدها) انهم لا يزالون
لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة لانهم ما وقعوا في ذلك العذاب الا بسببهم والنظر الى وجه
العدو باب من العذاب (وثانيها) ان القوم قدروا انهم يشفعون لهم في الآخرة في دفع
العذاب فاذا وجدوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (وثالثها) ان
القاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ما كان منها حجرا أو حديدا
يحمى ويلزق بعبادها وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها أما قوله تعالى حصب
جهنم فالمراد يقذفون في نار جهنم فشبههم بالحصباء التي يرمى بها الشئ فلما رمى بهم كرمي
الحصباء جعلهم حصب جهنم تشبيها قال صاحب الكشاف الحصب الرمي وقرئ بسكون
الصاد وصفا بالمصدر وقرئ حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركا وساكنا أما قوله تعالى
أنتم لها واردون فانما جاز مجئ اللام في لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب
كقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم والذين هم لفروجهم أي أنتم فيها داخلون
والمعنى انه لا بد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها أما قوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة
ما وردوها فاعلم ان قوله انكم وما تعبدون من دون الله بالاصنام أليق لدخول لفظة ما
وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد الشياطين والاصنام فيغلب

بعيدا وان كان صوته في غاية الشدة لأنهم لا يسمعون صوتها الخفي في نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال
من ضميره مسوقة للمبالغة
في انقاذهم منها وقوله
تعالى (وهم فيما اشتهت
أنفسهم خالدون) بيان
لفوزهم بالمطالب اثر بيان
خلاصهم من المهالك
والمعاطب أي دائمون
في غاية التنعم وتقديم
الظرف للقصر والاهتمام
به وقوله تعالى (لا يحزنهم
الفزع الاكبر) بيان
لنجاتهم من الافزاع
بالكلية بعد بيان نجاتهم
من النار لانهم اذا
لم يحزنهم أكبر الافزاع
لا يحزنهم ما عداه
بالضرورة عن الحسن
رضي الله عنه انه
الانصراف الى النار
وعن الضحاك حين
يطبق على النار وقيل
حين يذبح الموت في
صورة كبش أملح وقيل
النفخة الاخيرة لقوله
تعالى ففزع من في
السموات ومن في الارض
وليس بذاك فان الآمن
من ذلك الفزع من
استثناه الله تعالى بقوله
الا من شاء الله لا جميع
المؤمنين الموصوفين
بالاعمال الصالحة على
أن الاكثرين على ان ذلك في النفخة الاولى دون الاخيرة كما سيأتي في سورة النمل (وتتلقاهم الملائكة) أي تستقبلهم مهنئين
لهم (هذا يومكم) على ارادة القول أي قائلين هذا اليوم يومكم (الذي كنتم توعدون) في الدنيا وتبشرون